

رسائل

من

القرآن العظيم

جمال شاهين



منشورات المكتبة الخاصة ٢٠٢٣

القرآن والتفسير


منشورات المكتبة الخاصة
٢٠٢٣/ ١٤٤٤
جمال شاهين
رسائل
من
القرآن العظيم

رسائل

من

القرآن العظيم

[البقرة: ١٦٤]

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾

الْفُلْكِ :السُّفن، وواحده وجمْعه بلفظٍ واحد، وأصل الفَلَك: الاستدارةُ في الشَّيء، ولعلَّ السُّفن سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدار في الماء .

بَثَّ :فرَّق ونشَر .

المُسَخَّرِ :المُذلَّل، وَالمُيسَّر .

❊ وقَعتْ هذه الآية موقعَ الحُجَّة مِن الدَّعوى؛ فإنَّه لَمَّا ذكر تعالى أنَّه واحد، وأنَّه منفرد بالإلهيَّة، لم يَكتفِ بالإخبار حتى أورد دلائلَ الاعتبار، ثم مع كونها دلائلَ، هي نِعم كذلك من الله على عباده، فكانت أوضحَ لِمَن يتأمَّل، وأبهرَ لِمَن يَعقل؛ إذ التنبيه على ما فيه النَّفع باعثٌ على الفِكر، فقال تعالى :

❊ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. أي: إنَّ في إنشاء السَّموات والأرض وابتداعها، وما أودَع الله تعالى فيهما من العَجائب

❊ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. أي: تعاقبِها الدَّائم، بحيث يَجيء أحدُهما، ثم يذهب، ويخلُفه الآخَر مباشرةً دون أن يتأخَّر عنه لحظة، وكذا اختلافهما في الضِّياء والظُّلمة، والحرِّ والبَرد، والطُّول والقِصَر .كما قال تعالى :وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا

❊ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ. أي: السُّفن التي تَسير في البحر، فيَنتفع النَّاسُ بالتنقُّل عبْرَها من مكان لآخَر، وبجلْب البضائع، وصَيد الأسماك، وغير ذلك .

❊ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. أي: المطر الذي أنزله الله تعالى

من السَّحاب، فأنبتتْ بسببه الأرضُ بعدَ أن كانت قاحلةً مُجدِبةً .

❁ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ. أي: نشَر في أقطارِ الأرض جميعها، كلَّ ما يمشي على وجهِها من مختلف أنواعِ الحيوان .

❁ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .أي: تَنويعِها في الركود والهُبوب، وفي الاتِّجاه، والشِّدَّة والنَّفع، فتهبُّ من عِدَّة اتجاهات، وتختلف شِدَّةً وضعفًا، ونفعًا للنَّاس، أو هلاكًا وضرًّا .

❁ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. أي: السَّحاب الواقِع في جوِّ السَّماء، المذلَّل بأمْر الله تعالى لمصالح الخَلْق .

❁ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .أي: في تِلك الأمور المذكورة، علاماتٌ ودَلالات واضحةٌ على وَحدانية الله تعالى، وعلى كمال صِفاته، وعظيم أفعاله، ولكن لِمَن لديه عقلٌ رشيد، يتدبَّر به، ويَفهم عن الله تعالى مقصودَه

❁ كلَّما تدبَّر العاقلُ في هذه المخلوقات، وتغلغل فِكرُه في بدائع المبتَدَعات، وازداد تأمُّله للصَّنعة، وما أودع فيها مِن لطائف البرِّ والحِكَم الباهرات- علِم بذلك أنَّها خُلِقت للحقِّ وبالحقِّ، وأنَّها صحائفُ آيات، وكتُب دلالات

❁ وفي الآية: ترتيبٌ بديع في الذِّكر لهذه الدَّلائل والنِّعم؛ حيث بدأ أولًا بخلق السَّموات والأرض، ثم ثنَّى بذِكر ما نشأ عن العالَم العُلوي، ثم أتى ثالثًا بذِكْر ما نشأ عن العالم السُّفلي، ثم أتى بالمشترَك، ثم ختَم ذلك بما لا تتمُّ النِّعمة للإنسان إلَّا به

[البقرة: ٢٧٢]

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) ﴾

يُوَفَّ إِلَيْكُم :تُوفَّوْا أجرَه، وأصْل التَّوفية: بلوغ التَّمام .

سبب النُّزول:

❁ عن سعيد بن جُبير عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال :كانوا يَكْرَهون أن يرضَخوا

لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرُخِّص لهم، فنزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ إلى قوله :﴿وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُون﴾ .

❁ وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال : كان يأمرنا ألَّا نَتصدَّق إلَّا على أهلِ الإسلام، حتى نزلت هذه الآية، فأمَرَنا بالصَّدقة بعدها على كلِّ مَن سألك من كل دِين .

❁ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. أي: ليس عليك- يا محمَّد- هداية الخَلْق إلى الإسلام هدايةَ توفيقٍ، وإنَّما عليك البلاغ وهو هداية الإرشاد، فلا تَمتنِعْ من بذْل الصَّدقة للكفَّار والمشركين؛ كي يَدخلوا في الإسلام حاجةً منهم إليها، ولكنَّ الله تعالى هو الَّذي يَهدي وحده مَن يشاء من خلْقه إلى الإسلام فيُوفِّقهم له، فلا تمنعهم الصَّدقة ولو لم يهتدوا

❁ عن أسماءَ بنت أبي بكرٍ رضي الله عنهما، قالت : قَدِمتْ أُمِّي وهي مُشرِكَةٌ، في عهدِ قُريشٍ ومُدَّتِهم إذ عاهَدوا النبيَّ ﷺ، مع أبيها، فاستَفتَيتُ النبيَّ ﷺ فقُلْتُ: إنَّ أُمِّي قَدِمَت وهي راغِبَةٌ؟ قال: نعم، صِلِي أُمَّكِ

❁ ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله﴾. أي: إنَّ كلَّ ما تَبذُلونه صدقةً من الأموال- قليلةً أو كثيرةً- على أيِّ شخص- مسلمًا كان أو كافرًا- فنفْعُه في الحقيقة عائدٌ إليكم، وليس لله تعالى حاجةٌ به، والنفقة النافعة لصاحبها والمعتدُّ بها، هي ما كانت خالصةً لله تعالى، وطلَب بها صاحبُها الفوزَ في الآخرة بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه، وتلك هي صدقات المؤمن؛ فإنَّ إيمانهم يُحتِّم عليهم الإخلاصَ لله عزَّ وجلَّ، وإذا تَصدَّق بهذه النيَّة فقد وقع أجرُه على الله تعالى، ولا عليه في نَفْس الأمر لمن أصاب: ألِبَرٍّ أو فاجرٍ، فهو مُثابٌ في جميع الأحوال على قصْده .

❁ عن أبي هُرَيرَة ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : قال رجلٌ: لأتصدَّقنَّ الليلةَ بصدقةٍ، فخرج بصدقتِه فوضعها في يدِ زانيةٍ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّق الليلةَ على زانيةٍ، قال: اللهمَّ لك الحمد على زانيةٍ، لأَتصدَّقنَّ بصدقةٍ. فخرج بصدقتِه فوضعها في يدِ غَنيٍّ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّق على غنيٍّ، قال: اللهمَّ لك الحمدُ على غنيٍّ، لأَتصدقنَّ بصدقةٍ. فخرج بصدقتِه فوضعها في يد سارقٍ،

فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّقَ على سارقٍ، فقال: اللهمَّ لك الحمد على زانيةٍ، وعلى غنيٍّ وعلى سارقٍ، فأُتِيَ فقيل له: أمَّا صدقتُك فقد قُبِلَتْ، أما الزَّانيةُ فلعلَّها تستَعِفُّ بها عن زِناها، ولعلَّ الغنيَّ يَعتَبِر فيُنفِق ممَّا أعطاه اللهُ، ولعلَّ السارقَ يَستعِفُّ بها عن سرقتِه

❁ قوله :لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ فيه الخِطاب بما ظاهره خاصٌّ –وفي ذلك تسلية له ﷺ – والمراد منه العامُّ؛ فظاهر قوله لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ خطاب للنبيِّ ﷺ، ولكن المراد به هو وأمَّته، بدليل قوله :إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ، وهذا خطاب عام، ثم قال :لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وهو في الظاهر خاصٌّ، ثم قال بعده :وَمَا تُنْفِقُوا من خَيرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ، وهذا عامٌّ؛ فيُفهم من عموم ما قبل الآية وعمومِ ما بعدها عُمومُها أيضًا .

[آل عمران: ١٠٣]

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾

فَأَلَّفَ :جمَع، وأَوْقَع الأُلْفة، والإلفُ: اجتماعٌ مع التِئام، وأصلُه: انضمامُ الشَّيءِ إلى الشَّيء .

شَفَا حُفْرَة :أي: حَرْفِ حُفرة؛ فشفَا الشيءِ: حرْفُه، ومنه: أَشْفَى على كذا: إذا أشْرَف عليه .

❁ لَمَّا أمَر الله تعالى عبادَه المؤمنين بالتَّقوى، أمَرَهم بما يُعِينهم عليها وهو الاجتماعُ والاعتصامُ بدِين الله ، فقال تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا أي: تَمَسَّكُوا بدِينه، وعهْدِه إليكم بالأُلفةِ والاجتماعِ على كلمةِ الحقِّ، ولا تَرتكِبوا ما يُفرِّق جمْعَكم عن هذا الدِّين والعَهْد . قال تعالى :شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ وقال جلَّ وعلا :وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

❁ وعن أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : إنَّ اللهَ يرضَى لكم ثلاثًا، ويَكرهُ لكُم ثلاثًا، فيَرضَى لكُم: أنْ تَعبدوهُ، ولا تُشرِكوا به شيئًا، وأنْ تَعتصِموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تَفرَّقوا، ويَكرهُ لكم:

قيلَ وقالَ، وكثرةَ السُّؤالِ، وإضاعةَ المالِ

❁ عن زيدِ بن أَرْقمَ ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : أَلَا وإنِّي تَارِكٌ فيكم ثَقَلَين: أحدُهما كتابُ اللهِ ﷻ هو حبلُ الله، مَن اتَّبعه كان على الهُدى، ومَن ترَكه كان على ضلالةٍ .. الحديث .

❁ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا أي: اذكُروا بقلوبِكم وألْسنتِكم– أيُّها المؤمنون– ما أَنعَم الله تعالى به عليكم من الأُلْفةِ والاجتماعِ على دِين الإسلام، فقد كنتُم من قبلِ اعتناقِكم الإسلامَ أعداءً مُتفرِّقين، يُقاتِل بعضُكم بعضًا، في غيرِ طاعةِ الله تعالى، فجَمع الله عزَّ وجلَّ بالإسلامِ قلوبَكم، فجعَل بعضَكم لبعضٍ إخوانًا مُتحابِّين، بلا ضغائنَ ولا أحقادٍ بينكم . قال تعالى :هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم .

❁ عن عبدِ الله بن زيد ﷺ قال : لَمَّا أفاءَ اللهُ على رسولِه ﷺ يومَ حُنينٍ، قَسَمَ في النَّاسِ في المؤلَّفةِ قلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شيئًا، فكأنَّهم وجَدوا إذ لم يُصِبْهم ما أصابَ النَّاسَ، فخطَبهم فقال: يا معشرَ الأنصارِ، أَلَمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكنتم مُتفرِّقين فألَّفَكم اللهُ بي، وكنتم عالةً فأغْناكم اللهُ بي؟! كلَّما قال شيئًا، قالوا: اللهُ ورسولُه أَمَنُّ ... الحديث .

❁ وفي روايةٍ أخرى قال عليه الصَّلاة والسَّلام :يا معشرَ الأنصارِ، أَلَمْ أَجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي، ومُتفرِّقينَ فجمَعكم اللهُ بي؟

❁ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا أي: كنتُم– أيُّها المؤمنون– قبلَ اجتماعِ قلوبِكم على الإسلام، على وَشْكِ الوقوع في النَّار، إذ لم يَبقَ بينكم وبينها إلَّا أنْ تموتوا على كُفْركم، فأَنقَذَكم اللهُ تعالى منها بهِدايتِكم إلى الإسلام .

❁ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ أي: بمِثْل هذا الوضوحِ الذي بيَّن الله تعالى به ما تَقدَّم من الآيات الدَّالَّات على الحقِّ القويم، يُبيِّن أيضًا بوضوحِ بقيَّةَ الآيات الأخرى؛ لأجْل أن تَحصُل لكم بها الدَّلالةُ على طريق الحقِّ وتُوفَّقوا لسُلوكه .

❁ وجوبُ الاجتماعِ على شَرْع الله تعالى؛ فقد وضَعَ الله تعالى لنا بفضله ورحْمته قاعدةً نَرجع

إليها عند تَفرُّقِ الأهواءِ واختلافِ الآراء، وهي الاعتصامُ بحبله، بالتَّحاكمِ إلى شرْعِه؛ قال تعالى :وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا .

❁تذكير العبادِ نعمةَ الله تعالى في الأمور الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، بقلوبهم وألْسنتهم؛ ليَزدادوا شكرًا له ومحبَّة، وليَزيدَهم من فضْله وإحسانه، قال سبحانه وتعالى :وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ... ، والتَّذكير بنِعْمة الله تعالى طريقٌ من طُرُق مواعظ الرُّسل .

❁في قوله تعالى :وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ...الحرصُ على الاجتماعِ والحَذَر من التَّفرُّق؛ فمِن أكبر نِعَم الله على الأُمَّة أنْ يؤلِّف بين قلوبها بالاجتماعِ وعدم الفُرْقة؛ فاجتماعُ الأُمَّة الإسلاميَّة عِصمةٌ لها، وفي التَّفرُّقِ زوالُ الوَحْدة التي هي مَعقِدُ العزَّة والقوَّة .

❁ الدَّعوةُ إلى سبيلِ الله تعالى وإرشادُ الخَلْقِ إلى دِينه وظيفةٌ ضروريَّة لإقامةِ منهجِ الله في الأرض، ولتغليبِ الحقِّ على الباطل، والمعروفِ على المُنكَر، والخيرِ على الشرِّ؛ فلا بدَّ من جماعةٍ تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المُنكَر، وإنْ كان ذلك واجبًا على كلِّ فردٍ من الأُمَّة بحسَبه، وهؤلاء هم المفلحون الرَّابِحون إذا خسِر النَّاسُ؛ قال سبحانه وتعالى :وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ .

❁ قوله الله تعالى :وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، في الآية دليلٌ على أنَّ الأمْرَ بالشَّيء يَستلزِمُ النَّهيَ عن ضدِّه .

❁قول الله تعالى :بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ولم يَقُل (بينكم)؛ لأنَّ الائتلافَ في القلوب، وهذا هو الذي عليه المدارُ؛ فكم مِن أُمَّةٍ ائتلفتْ بأجسامها وقلوبها مُتفرِّقةٌ! كما قال الله تعالى عن اليهود :تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى

❁في قول الله تعالى :كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ الردُّ على أهلِ البِدع الذين حرَّفوا نُصوصَ الكتاب والسُّنَّة إلى معانٍ لا يدلُّ عليها ظاهرُها، فيكون القرآنُ ليس هدًى ولا بيانًا للنَّاس، وهو خلافُ ما تدلُّ عليه هذه الآيةُ .

❁ في قول الله تعالى :لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إثبات العِللِ في أفعال الله سبحانه وتعالى .

❁ قوله :وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِّ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا :فيه تمثيلٌ لهيئة اجتماعِهم والتفافِهم على دِين الله ووصاياه وعهوده بهيئةِ استمساكِ جماعةٍ بحبل أُلقي إليهم من مُنقِذٍ لهم مِن غرَقٍ أو سقوطٍ، فشبَّه الوثوقَ بالله، والاعتمادَ على حمايتِه، بحالِ مَن يُمسِك بحبلٍ وثيقٍ، وقد تدلَّى من مكانٍ عالٍ، فهو آمنٌ مِن انقطاعِه وانبتاتِه .

❁ وَلَا تَفَرَّقُوا :تأكيدٌ لمضمون (اعتصموا جميعًا) ... وقد يكون قوله :وَلَا تَفَرَّقُوا أمرًا ثانيًا؛ للدَّلالة على طلبِ الاتحاد في الدِّين، وقد يُؤكَّد الشيءُ بنفْي ضِدِّه كما في قوله تعالى :قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

❁كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُّ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ :فيه تصويرٌ لحَالِهم التي كانوا عليها؛ ليَحصُل من استفظاعها انكشافُ فائدةِ الحالة التي أُمِروا بأنْ يكونوا عليها، وهي الاعتصامُ جميعًا بجامعةِ الإسلام الذي كان سببَ نَجاتهم من تلك الحالة، وفي ضِمنِ ذلك تذكيرٌ بنِعمة الله تعالى، الذي اختارَ لهم هذا الدِّين، وفي ذلك تحريضٌ على إجابةِ أمْرِه تعالى إيَّاهم بالاتِّفاق .

❁وقوله :شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ :فيه تمثيلُ حياتِهم التي يُتوقَّع بعدَها الوقوعُ في النَّار بالقعودِ على حرْفها مُشفِين على الوقوع فيها؛ إذ لو ماتوا على ما كانوا عليه مِن الكُفْرِ، لوقعوا في النَّار .

❁وفيه تنبيهٌ على تحقير مُدَّة الحياة؛ فإنَّه ليس بين الحياةِ وبين الموتِ المُستلزِم للوقوعِ في الحُفْرة إلَّا ما بين طرف الشَّيء وبين ذلك الشيء .

آية النساء ٣٦ _ ٣٧

قال تعالى ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَّ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُّ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) ﴾ [النساء]

❁ وَالْجَارِ الْجُنُبِ :أي: الَّذي ليس بينه وبين جاره قَرابة، أو مَن يقرُبُ مسكنُه مِن الجار، أو الغريبُ، وأصل الجوار: الميل؛ وسُمِّي الجار جارًا لميلِه إلى جاره، والجنابة: البُعد؛ يُقال: رجلٌ

جُنُب، أي: غريبٌ .

❁ وَالصَّاحِبِ بِالْجُنْبِ :أي: الصَّاحِبِ إلى الجَنْبِ القَريبِ مِنْه، ويَدخُل فيه الرَّفيقُ في السَّفرِ وغَيرِه والمرأةُ والملازِمُ للمَرءِ رجاءَ نفْعِه؛ لأنَّ كلَّهم بجَنبِ الذي هو مَعَه وقريبٌ منه، وأصْل (صحب): يدلُّ على مُقارنةِ شَيءٍ ومُقاربتِه .

❁ وَابْنِ السَّبِيلِ :المنقطِع الضَّعيف ببلدٍ يُريد بلدًا آخرَ، أو المسافِر البعيد عن منزلِه، ويُطلَق كذلك على الضَّيف، ونُسِب إلى السَّبيل؛ لممارستِه إيَّاه، والسَّبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولة .

❁ مُخْتَالًا :ذا خيلاءَ، أو مُتكبِّرًا يأنَفُ ويَستنكِفُ عن قَراباتِه وجِيرانه وأصحابِه لفقرِهم، والمختالُ البَطِرُ في مِشيتِه، وهو اسمُ فاعلٍ، مِن (اختال)، وألِفُه منقلبةٌ عن ياء؛ لقولهم: الخُيلاء والمخيلة .

❁ فَخُورًا :الَّذي يُعدِّد مناقبَه كِبْرًا وتطاولًا، والفَخرُ: المباهاةُ في الأشياءِ الخارجة عن الإنسانِ؛ كالمالِ والجاهِ، وأصل فخر يدل على عِظَم وقِدَم .

❁ وَأَعْتَدْنَا :من العَتَادِ، وقيل: أصله: أَعدَدْنا، والعتاد: ادِّخارُ الشَّيءِ قبل الحاجة إليه؛ كالإعداد، والعَتيد: الشَّيء المُعدُّ، وأصل (عتد): يدلُّ على حُضور وقُرب، ويدلُّ على تهيئة الشَّيء .

❁ يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه بعِبادته وَحْدَه، وذلك بالتَّذلُّلِ له، والخضوعِ له بالطَّاعة، مخلِصين له العبادة، غيرَ مشركين فيها معه غيرَه، كما أمرهم بالإحسانِ إلى الوالدَين، وإلى الأقارب، وأن يُحسنوا إلى اليتامى، وذَوِي الحاجاتِ الَّذين لا يجدون كفايتَهم، وإلى الجار الَّذي تربطهم به القرابة، والجار الَّذي لا قرابةَ بينهم وبينه، وأمرهم كذلك بالإحسان في صحبةِ كلِّ مصاحبٍ ومرافقٍ لهم؛ كرفيق السفر، وكالزَّوجة، وكذلك أن يُحْسِنوا إلى المسافرِ الَّذي يمرُّ بهم مجتازًا، وأن يُحسنوا إلى مَن يملِكونه مِن بَشَرٍ رقيقٍ، أو حيوانٍ، فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن كان معجَبًا بنفسه، متكبِّرًا على الخَلْق، ومَن يُثني على نفسِه ويمدَحُها فخرًا وبَطَرًا على الخَلْق، هؤلاء هم الَّذين يُمسِكون أموالَهم عن الإنفاقِ فيما أمَر الله تعالى، كما يُمسكون ما آتاهم اللهُ مِن علمٍ عن بذلِه

للنَّاس، بل ويأمرون غيرَهم بالإمساكِ أيضًا، ويُخفون ما أنعَم اللهُ به عليهم من مالٍ أو عِلمٍ، وأعدَّ اللهُ لهؤلاء الكافرين الَّذين ذكَر صفاتِهم عقابًا مُخزيًا ومُذِلًّا.

❄ والعبادة تشمل العبادات: العبادات الحسية كالصلاة ، والعبادات القلبية: مثل الشكر، والذكر ، وتشمل العبادة كلَّ عمل يؤدِّي إلى الإصلاح، وكذلك التفكُّر في خلق السموات والأرض، والمعاملات، والتوحيد.

والعبادة: هي طاعة العابد للمعبود، والخضوع له، والاستسلام له، والإخلاص له في كل حال وزمان، وفيما شرع

{وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْـئًا } أيْ: لا تشركوا بالله شيئاً، ولو كان مقدار ذرة من الشرك {شَيْـئًا}، الشيء: هو أقل القليل، و (شيئاً) نكرة تشمل كل شرك مهما كان نوعه وشكله.

{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}: أي: البر بهما من خدمة، والإنفاق عليهما، وطاعتهما، وتنفيذ أوامرهما بلين ورحمة، وخفض جناح .

{وَبِذِي الْقُرْبَى}: أي: الإحسان إلى ذي القربى وبذي القربى تعني: الإحسان إلى أقرب الأقرباء؛ أيْ: ذريته؛ كالولد، والبنت، والأخ، والأخت، والعم، والعمة، والخال، والخالة ...

{وَالْيَتَامَى}: أي: الإحسان إلى اليتامى جمع يتيم: وهو من فقد أباه ولم يبلغ الحلم، وذلك بالكفالة، والملاطفة، والتواضع معهم

{وَالْمَسَاكِينِ}: والإحسان إلى المساكين جمع مسكين: وهو المحتاج الذي له مال لا يكفيه؛ بالعطاء، والقول المعروف، والإحسان إليه، والمسكين أحسن حالاً من الفقير

{وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى}: وكذلك الإحسان للجار القريب، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم.

{وَالْجَارِ الْجُنُبِ}: الجار البعيد؛ فإذا كان مشركاً؛ فله حق الجوار، وإن كان مسلماً فله حق الجوار، وحق الإسلام. {الْجُنُبِ}: البعيد في النسب؛ أي: الذي لا قرابة بينه وبين جاره.

{وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ}: أي: المرافق، أو المرافقة، قالوا: هي الزوجة، أو رفيق السفر، أو التجارة

ويدخل في ذلك الخادم، وقد تعني: الصديق، أو كل أولئك.

{وَابْنِ السَّبِيلِ}: أيْ: ابن الطريق؛ أي: الغريب الذي انقطعت به الأسباب، ونسب إلى كونه ابن الطريق؛ لأنه ليس له أب، ولا أم، ولا قبيلة حين تنقطع به السبل في بلاد غريبة، وقيل: هو الضيف. وقيل: من لا مأوى له ويفترش الطرقات

{وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}: مثل: الأسرى، والعبيد، والإماء، أو العمال، وفك أسرهم، أو السجناء المظلومين

{مُخْتَالًا}: الخال: هو الكبر، مختال: متكبر

{فَخُورًا}: هو الذي يتفاخر على الناس، ويعدد محاسنه ومناقبه تعالياً، وسمعة على الناس؛ أي: المعجب بنفسه، أو ينكر ما كان عليه حاله قبل غناه مختال على أهله، وقومه، وعشيرته، وأهله

❁ بعد أن ذكر الإحسان إلى الأقارب، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والتصدق عليهم؛ يذم الله سبحانه في هذه الآية الذين يبخلون، أو يأمرون الناس بالبخل، فالبخيل: هو الذي يضيق صدراً بالإعطاء، ويجد فيه مشقة، وهو يبخل على نفسه أولاً قبل أن يبخل على الناس، والشح هو البخل مع الحرص

{وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}: كأن يقولوا للآخرين: لا تنفقوا، نخشى عليكم الفقر، أو الدوائر، أو لا تنفقوا على من عند رسول الله؛ حتى ينفضوا عنه، أو يصدون الناس عن التبرعات بالصدقات بإثارة الشبهات والتحذير وغيرها من وسائل تثبيط عزائم الناس عن الإنفاق في سبيل الله وطرق الخير.

{وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ}: الكتمان: هو ستر النعمة، وجحود النعمة، فلا يتصدق، ولا تظهر عليه آثار نعم الله عليه في المأكل، والملبس، أو العطاء.

فوائد

❁ في قوله تعالى :وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا تحريمُ الإساءةِ إلى الوالدَيْنِ؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيء نهيٌ عن ضدِّه .

❁أنَّ مَن لم يُحسِنْ إلى والدَيْه ولم يُسِئْ لهما فهو مُقصِّرٌ؛ لأنَّ اللهَ أمَر بالإحسان، وخلافُ الإحسانِ شيئانِ: إساءةٌ، وعدمُ إساءةٍ وإحسانٍ، وهذا خلافُ ما أمَرنا اللهُ به؛ قال تعالى :وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .

❁ في الأمرِ بالإحسانِ إلى الأقاربِ في قوله :وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى تنبيهٌ على أنَّ مِن سَفالةِ الأخلاقِ أن يستخفَّ أحدٌ بالقريبِ؛ لأنَّه قريبُه، وآمِنٌ من غوائلِه، ويصرف برَّه ووُدَّه إلى الأباعدِ؛ ليستكفيَ شرَّهم، أو ليُذكَرَ في القبائل بالذِّكرِ الحسَنِ؛ فإنَّ النَّفسَ الَّتي يطوِّعُها الشَّرُّ، وتَدينُها الشِّدَّةُ، لَنَفسٌ لئيمةٌ .

❁ في قوله تعالى :وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ذمُّ مَن يكتُمُ ما آتاه اللهُ من فضلِه، والكتمانُ نوعانِ: كتمانٌ فِعليٌّ، وكتمانٌ قوليٌّ: فالكتمانُ الفِعليُّ: ألَّا يُرَى أثَرُ نعمةِ الله على العبد، فيُعطيه اللهُ المالَ فيخرُجُ إلى النَّاسِ بلباس الفقراءِ، وبمركوبِ الفقراء، لا تعفُّفًا ولكن بُخلًا، والكتمانُ القوليُّ: أن يتحدَّثَ عند النَّاس فيقول: أنا ليس عندي مالٌ، أنا متوسِّطُ الحالِ، أو يزيد ويقول: أنا فقيرٌ، أو ما أشبَهَ ذلك .

❁ أنَّ مَن عدَل عن المشروعِ ابتُلِي بالممنوع؛ وذلك أنَّ الَّذين يبخَلون بما آتاهم اللهُ مِن فضلِه ابتُلوا بإنفاقِ المالِ على وجهٍ لا خيرَ فيه، على أنَّهم يبذلونه رئاءَ النَّاس، وهذا وجهٌ لا خيرَ فيه، بل إذا وقَع تعبُّدًا كان شرًّا، قال تعالى :وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ

❁ أنَّ الإثباتَ المحضَ لا يدلُّ على التَّوحيدِ، ويُؤخَذُ ذلك مِن أنَّه لَمَّا أمَر بالعبادة قال :وَلَا تُشْرِكُوا؛ وذلك أنَّ الإنسانَ قد يَعبُدُ اللهَ لكن يعبُدُ غيرَه، فنقول: إذا عبَد مع الله غيرَه فإنَّه لم يُخلِصِ العبادةَ لله، والمطلوبُ: إخلاصُ العبادةِ له .

❁وجوبُ الإحسانِ إلى الوالدينِ؛ لقوله :وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، فالله تعالى قال :وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ولم يقُلْ: وإلى الوالدين؛ لأنَّ المطلوبَ مباشَرةُ الإنسانِ بالإحسانِ إلى والدَيْه، لا إيصال الإحسانِ فقط، ولو قال: إلى الوالدينِ إحسانًا كان المطلوبُ إيصالَ الإحسانِ فقط .

❁ قوله تعالى :وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا فيه أنَّ أعظمَ حقوقِ البَشر

حقُّ الوالدينِ؛ لأنَّ اللهَ جعلَه في المرتبةِ الثَّانية بعد حقِّه، ولا يرِدُ على هذا حقُّ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ حقَّ الرَّسولِ داخلٌ في حقِّ الله، ووجهُه: أنَّ العبادةَ لا تتمُّ إلَّا بالإخلاصِ لله، والمتابعةِ لرسولِ الله ﷺ، وإذا تحقَّقت متابعةُ الرَّسول فقد أدَّيْت حقَّه، والرَّسولُ لا يسألُنا أجرًا، إنَّما يسألُنا أن نتعبَّدَ لله بما شرَع .

❁ مع أنَّ الوالدينِ من الأقاربِ، إلَّا أنَّ قَرابةَ الوِلادِ لَمَّا كانت مخصوصةً بكونِها أقربَ القراباتِ، وكانت مخصوصةً بخواصَّ لا تحصُلُ في غيرِها، لا جرمَ ميَّزها اللهُ تعالى في الذِّكرِ عن سائر الأنواعِ، فذكَر في هذه الآيةِ قَرابةَ الوِلادِ، ثمَّ أتبعَها بقرابةِ الرَّحِمِ، فقال تعالى :وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى .

❁ في قوله :وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى أنَّ الأقربَ فالأقربَ أَولى بالإحسان، ويؤخَذُ مِن أنَّ اللهَ قدَّم الوالدينِ، وهما أقربُ القَرابات، فقياسًا على ذلك نقول: مَن كان أقربَ مِن بقيَّةِ القَرابات فهو أحقُّ، هذا وجهٌ، والوجه الثَّاني :أنَّ المعلَّقَ على وصفٍ يقوَى بقوَّةِ ذلك الوصفِ، ويضعُفُ بضَعفِ ذلك الوصفِ، والحُكمُ هنا معلَّقٌ على القَرابة؛ فكلُّ مَن كان أقربَ كان حقُّه أوكدَ، فصارتِ الدَّلالةُ على أنَّنا نقدِّمُ الأقربَ فالأقربَ من وجهين :الوجهُ الأوَّلُ :قياسيٌّ، والثَّاني :معنويٌّ.

❁ الأمرُ بالإحسانِ إلى المساكين؛ لقوله :وَالْمَسَاكِينِ، ومَن كان منهم أشدَّ مَسكنةً كانت الوصيةُ به أوكَدَ؛ لأنَّه عُلِّق على وصفٍ .

❁قدَّم اللهُ اليتيمَ على المسكينِ في قوله :وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ؛ لأنَّ المسكينَ لكِبَرِه يمكِنُه أن يعرِضَ حالَ نفسِه على الغير، فيجلِب به نفعًا، أو يدفَع به ضررًا، وأمَّا اليتيمُ فلا قُدرةَ له عليه

❁ إثباتُ المحبَّةِ لله، وتؤخذ من قوله :إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا، فهذا وإن كان نفيًّا إلَّا أنَّه لو كانت المحبةُ منتفيةً عن الله مطلقًا ولا تجوزُ عليه، لم يكُنْ لنفيِها فائدةٌ هنا، وعلى هذا فإنَّها تدلُّ على إثباتِ المحبَّةِ لله، ومذهبُ السَّلفِ وأهلِ السُّنَّةِ إثباتُ المحبَّةِ لله حقيقةً، وأنَّه ﷻ يُحِبُّ، وأنَّ محبَّتَه تتعلَّقُ بالأعمالِ، وتتعلَّقُ بالأشخاصِ، وتتعلَّقُ بالأزمنةِ، وتتعلَّقُ بالأمكنةِ .

❁ في قوله تعالى :إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا، إنَّما خصَّ اللهُ تعالى هذينِ الوصفينِ بالذَّمِّ في هذا الموضعِ؛ لأنَّ مَن اتَّصَف بهاتينِ الصِّفتينِ حَملَتاه على الإخلالِ بمَن ذُكِر في الآيةِ ممَّن يكونُ لهم حاجةٌ إليه، فالمختالَ هو المتكبِّرُ، وكلُّ مَن كان متكبِّرًا فإنَّه قلَّما يقومُ برعايةِ الحقوقِ، ثمَّ أضاف إليه ذمَّ الفَخورِ؛ لئلَّا يُقدِمَ على رعايةِ هذه الحقوقِ لأجل الرِّياءِ والسُّمعةِ، بل لمحضِ أمرِ الله تعالى، فالفخر هو عدُّ المناقبِ على سبيلِ التَّطاولِ بها والتَّعاظم على النَّاس

❁في قوله تعالى :الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أنَّه تعالى ذكَر في هذه الآيةِ مِن الأحوالِ المذمومة ثلاثًا :أوَّلها :كون الإنسانِ بخيلًا، وهو المراد بقوله :الَّذِينَ يَبْخَلُونَ، وثانيها :كونهم آمِرين لغيرِهم بالبُخلِ، وهذا هو النِّهايةُ في حبِّ البُخلِ، وهو المراد بقوله :وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، وثالثها :قوله :وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فيُوهِمون الفقرَ مع الغنى، والإعسارَ مع اليَسارِ، والعَجْزَ مع الإمكانِ، ثمَّ إنَّ هذا الكتمانَ قد يقعُ على وجهٍ يُوجِبُ الكفرَ، مثل: أن يُظهِرَ الشِّكايةَ عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاءِ والقدَرِ، وهذا ينتهي إلى حدِّ الكفرِ؛ فلذلك قال :وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .

[النساء: ١١٤-١١٥]

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) ﴾

نَجْوَاهُمْ: أي: مُتناجِيهم، أو تَناجِيهم، وأصل النَّجاءِ: الانفصالُ مِنَ الشَّيءِ؛ يُقال: ناجيتُه، أي: سَارَرْتُه، وأصلُه: أنْ تخلوَ به في نَجوةٍ مِن الأرضِ

مَعْرُوفٍ: المعروفُ كلُّ ما كان معروفًا فِعْلُه، جميلًا مستحسَنًا غيرَ مستقبَحٍ عند أهل الإيمانِ، و(عَرَف) في الأصل يدلُّ على السُّكونِ والطُّمأنينةِ، ومنه العُرف والمعروف؛ سُمِّي بذلك؛ لأنَّ النُّفوسَ تسكُنُ إليه

يُشَاقِقِ: يخالِفْ، أو صار في شقٍّ غيرِ شقِّ أوليائه، والشِّقاقُ: المخالَفة، وأصل شق: يدلُّ على

انصداعٍ في الشَّيءِ

وَنُصْلِهِ: أي: نَشْوِهِ بها، وصَلَى النارَ: أي: دخَل فيها، وأصل الصَّلْيِ: الإيقادُ بالنَّار، ويُقال: صَلِيَ بالنَّار وبكذا، أي: بَلِيَ بها

❁ لَمَّا لم تَخلُ الحوادثُ الَّتي أشارت إليها الآيُ السَّابقةُ، ولا الأحوالُ الَّتي حذَّرَت منها؛ مِن تناجٍ وتحاورٍ، سرًّا وجهرًا، لتدبيرِ الخيانات وإخفائِها وتبييتِها؛ لذلك كان المقامُ حقيقًا بتعقيبِ جميعِ ذلك بذِكْرِ النَّجوى وما تشتملُ عليه؛ لأنَّ في ذلك تعليمًا وتربيةً وتشريعًا ، فقال تعالى:

❁ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ أي: لا خيرَ في كثيرٍ من الكلام الَّذي يُسِرُّه النَّاس بينهم؛ إمَّا لأنَّه لا فائدةَ فيه؛ كفضولِ الكلام المباح، وإمَّا لكونِه شرًّا ومَضرَّةً محضةً؛ كالكلام المُحرَّمِ بجميعِ أنواعه .

❁ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أي: عَدَا الأمْرَ بالتَّصدُّقِ، سواءٌ كان بالمال أو بالعِلم، أو بأيِّ نفعٍ كان

❁ أَوْ مَعْرُوفٍ أي: وعَدَا الأَمْرَ بالمعروفِ، وهو كلُّ ما أمَر الله تعالى به، أو ندَب إليه من أعمالِ البِرِّ والخيرِ والإحسانِ والطَّاعة، وكلُّ ما عُرِف في الشَّرعِ والعَقلِ حُسْنُه .

❁ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ أي: وعَدَا الأمرَ بالإصلاحِ بين المتنازعَيْنِ والمتخاصمَيْنِ حتَّى تُزالَ العداوةُ والشَّحناء بينهم، ويتمَّ التَّراجعُ إلى ما فيه الأُلفةُ، واجتماعُ الكلمة على ما أذِن اللهُ تعالى وأمَر به .

❁وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ أي: ومَن يأمُرْ بصدقةٍ أو معروف أو يُصلِحْ بين النَّاس؛ طلبًا لرضَا الله تعالى بفعله هذا، مخلصًا له فيه، ومحتسبًا ثوابَه عند الله ﷻ .

❁ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا أي: فسوف يُعطيه اللهُ تعالى جزاءً لِمَا فعَل من ذلك، ثوابًا كثيرًا واسعًا، لا يعلَمُ قدرَه سواه .

❁ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى : أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا رتَّب الثَّوابَ العظيم على الموافَقةِ، وبيَّن وعدَه بالجزاء الحسَنِ للَّذين يتناجَوْن بالخيرِ، ويبتغونَ بنفعِ النَّاس مرضاةَ الله ﷻ رتَّب العقابَ الشَّديدَ على المخالَفة والمشاقَّة، ووكَل المخالِفَ إلى نفسِه بقوله تعالى :

❁ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ أي: ومَن يُخالِفِ الرَّسولَ ﷺ ويعانِدْه فيما جاء به، سالكًا غيرَ طريقِ الشَّريعةِ الَّتي جاء بها الرَّسولُ ﷺ، فصار في جانبٍ والشَّرعُ في جانبٍ آخرَ .

❁ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى أي: وحَصَلتْ منه تِلك المُشاقَّةُ عن عَمْدٍ بعدَما ظهَر له الحقُّ واتَّضَح .

❁ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ أي: ومَن يتَّبعْ طريقًا غيرَ طريقِ المؤمنين في عَقائدِهم وأعمالِهم، ويَسلُكْ منهجًا غيرَ منهجِهم .

❁ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى أي: إذا سلَك هذه الطَّريقَ نَتخلَّى عنه، ونتركُه إلى ما اختاره لنفْسِه، ونُحسِّنُه له في صدرِه استدراجًا له . كما قال تعالى :فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وقال ﷻ : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

❁ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ أي: ونُدخِلْهُ نارَ جهنَّمَ ونُحرِقْه بها .

❁ وَسَاءَتْ مَصِيرًا أي: وما أسوَأَها مِن مرجعٍ ومآلٍ يصيرُ إليه !

فوائد وثمرات

❁ فضيلةُ الأمرِ بالإصلاحِ بين النَّاس؛ قال سبحانه :أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ .

❁ فضيلةُ الأمر بالمعروف؛ حيث قرَنه اللهُ تعالى بالأمر بالصَّدقةِ؛ لقوله :إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ .

❁قال الله تعالى :أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، والإصلاحُ لا يكونُ إلَّا بين مُتنازعَيْنِ مُتخاصمَيْنِ، والنِّزاعُ والخِصامُ والتَّغاضُبُ يوجِبُ مِن الشَّرِّ والفُرقةِ ما لا يمكِنُ حصرُه؛ فلذلك حثَّ الشَّارعُ على الإصلاحِ بين النَّاسِ في الدِّماءِ والأموالِ والأعراضِ، بل وفي الأديانِ .

❁وجوبُ العناية بالإخلاصِ؛ فمع أنَّ هذه المذكوراتِ في قوله :أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ أعمالٌ في غاية الشَّرفِ والجلالةِ، والخيرَ وصفٌ ثابتٌ لها؛ لِمَا فيها من المنافعِ؛ ولأنَّها مأمورٌ بها في الشَّرعِ- إلَّا أن الثَّوابَ لا يحصُلُ إلَّا عن فعلِها ابتغاءَ مرضاةِ الله، ولا ينتفعُ بها المرءُ إلَّا إذا أتى بها لوجه الله؛ فقال :وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا

عَظِيمًا، فأمَّا إذا أتى بها للرِّياءِ والسُّمعةِ انقلَبَتْ فصارت مِن أعظمِ المفاسدِ. وأيضًا فكمالُ الأجرِ وتمامُه بحسَبِ النِّيَّةِ والإخلاص؛ فلهذا ينبغي للعبدِ أن يقصِدَ وجهَ الله تعالى، ويُخلِصَ العملَ لله؛ ليحصُلَ له بذلك الأجرُ العظيمُ .

❊ أنَّ الإيمانَ وحده لا يكفي، بل لا بدَّ من عملٍ، وأنَّ العمَلَ وحده لا يكفي، بل لا بدَّ من إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنَّةَ إلَّا مَن جمَع بين الإيمانِ والعملِ الصَّالح، وإذا ذُكِرَ ثوابُ الجنَّةِ مقيَّدًا أو معلَّقًا بالإيمانِ وحده، فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصَّالحِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .

❊ أنَّ العملَ لا ينفَعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا، والعملُ الصَّالحُ هو: الخالصُ الصَّوابُ، أي: ما ابتُغِيَ به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله؛ قال تعالى :وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .

❊ والخالص الذي يكون لله تعالى بإرادة القلب، والصواب الذي يكون على سبيل السنة وموافقة الكتاب.

❊ عن فضيل بن عياض : {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} قال: أخلصه وأصوبه. قلت: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا، ولم يكن صوابًا لم يُقبل. وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة

❊المعروفُ يَندرجُ تحته الصَّدقةُ والإصلاحُ، لكنَّهما جُرِّدا منه في قوله تعالى :إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، واختصَّا بالذِّكر لعِظَمِ أهميَّتِها .

❊ في قوله تعالى :إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ فضيلة الصَّدَقةِ، وجهُ ذلك: أنَّه إذا كان الآمِرُ بالصَّدقةِ في أمرِه خيرٌ، ففاعلُ الصَّدقةِ مِن بابِ أَوْلى .

❊الحِكمةُ في كونِ النَّجوى مظِنَّةَ الشَّرِّ في الأكثرِ، هي أنَّ العادةَ الغالبةَ وسُنَّةَ الفِطرةِ المتَّبَعة هي استحبابُ إظهارِ الخيرِ والتَّحدُّثِ به في الملأِ، وأنَّ الشَّرَّ والإثمَ هو الَّذي يخفى، ويُذكَرُ في السِّرِّ والنَّجوى؛ لذا قال تعالى :لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ

❁مَعْرُوفٍ المعروفُ هو الإحسانُ والطَّاعةُ، وكلُّ ما عُرِف في الشَّرعِ والعقلِ حُسْنُه، وإذا أُطلِق الأمرُ بالمعروف من غيرِ أن يُقرَنَ بالنَّهيِ عن المُنكَرِ، دخَل فيه النَّهيُ عن المُنكَر؛ وذلك لأنَّ تَرْك المنهيَّاتِ مِن المعروفِ، وأيضًا لا يتمُّ فعلُ الخيرِ إلَّا بترك الشَّرِّ، وأمَّا عند الاقترانِ فيُفسَّرُ المعروفُ بفعل المأمورِ، والمُنكَرُ بترك المَنْهِيِّ .

❁ في قوله تعالى :إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ بيانُ أنَّ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ فيها خيرٌ وإن فعَلها الإنسانُ مِن غيرِ استحضارِ نيَّةٍ، وجهُه: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نفى الخيرَ في كثيرٍ من النَّجوى استثنى هذه الثَّلاثةَ، ثمَّ قال :وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

❁أنَّه يصحُّ إطلاقُ الفعلِ على القولِ، وتؤخذُ مِن قوله :وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، مع أنَّ الَّذي حصَل أمرٌ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ .

❁في قوله :فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يستعجِلَ الثَّوابَ؛ إذ قد يؤخِّرُ اللهُ الثَّوابَ لحكمةٍ؛ فَسَوْفَ دَالَّةٌ على التَّسويفِ، وهي تدلُّ أيضًا على التَّحقيقِ؛ ولهذا لا ينبغي استعجالُ ثوابِ الله، وإجابةِ الله تعالى للدُّعاء .

❁ عِظَمُ ثوابِ مَن فعَل ذلك ابتغاءَ وجهِ الله؛ لقوله :فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا؛ لأنَّ تعظيمَ الشَّيءِ مِن العظيمِ يدلُّ على عظَمتِه .

❁ تحريمُ مُشاقَّةِ الرَّسولِ، وأنَّها مِن كبائر الذُّنوب، وجهُه: أنَّه رتَّب عليها العقوبةَ، وهي: التَّخلِّي عنه، وصَلْيُه جهنَّمَ :وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ. ...

❁العُذْرُ بالجهل؛ لقوله :مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى، فلو أنكَر الإنسانُ شيئًا ممَّا جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام، وصار يُحاجُّ عليه، لكنَّه جاهلٌ، فإنَّه معذورٌ؛ لأنَّ الآيةَ صريحةٌ :مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ودلَّت الآيةُ أيضًا على أنَّه مع التَّردُّدِ لا تقومُ الحُجَّةُ، لكنْ على الإنسانِ أن يتبيَّنَ، فالذين لا يطلُبون التَّبيُّنَ، هم مُفرِّطون بلا شكٍّ، ولا يُعذَرون بجهلِهم .

❁أنَّ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ فهو هُدًى ونورٌ، ويتبيَّنُ بأنْ يتأمَّلَ الإنسانُ ما جاء به الرَّسولُ عليه

الصَّلاة والسَّلام من العباداتِ والأخلاقِ والمعاملاتِ وغيرِ هذا، فإذا تأمَّله بعِلمٍ وعدلٍ- يعني: كان مُنصِفًا- تبيَّن له الحقُّ، وعرَفَ أنَّ ما جاء به الرَّسولُ ﷺ هو الحقُّ؛ قال تعالى :مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى .

❁ قول الله تعالى :وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ، فيه دَلالةٌ على أنَّ الإجماعَ حُجَّةٌ؛ لأنَّه لا يُتوعَّدُ إلَّا على مخالَفةِ الحقِّ ؛ فالأمَّةُ إذا أجمَعَتْ على شيءٍ فإنَّه حقٌّ ، وسَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ مفردٌ مضافٌ، يشمَلُ سائرَ ما المؤمنونَ عليه من العقائدِ والأعمالِ، فإذا اتَّفقوا على إيجابِ شيءٍ أو استحبابِه، أو تحريمِه أو كراهتِه، أو إباحتِه- فهذا سبيلُهم؛ فمن خالَفهم في شيءٍ من ذلك بعد انعقادِ إجماعِهم عليه، فقد اتَّبَع غيرَ سبيلِهم .

❁مَن لم يُشاقِقِ الرَّسولَ، واتَّبعَ سبيلَ المؤمنين، بأن كان قصدُه وجهَ اللهِ واتِّباعَ رسولِه ولزومَ جماعةِ المسلمين، ثمَّ صدَر منه مِن الذُّنوبِ أو الهمِّ بها ما هو من مقتضياتِ النُّفوس، وغَلَبات الطِّباعِ، فإنَّ اللهَ لا يُولِّيه نفسَه وشيطانَه، بل يتدارَكُه بلُطفِه، ويمُنُّ عليه بحفظِه، ويعصِمُه من السُّوءِ، دلَّ على ذلك مفهومُ قولِه تعالى :وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا .

❁قول الله تعالى :وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ، يدلُّ على أنَّه يجبُ الاقتداءُ بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام في أفعالِه؛ إذ لو كان فعلُ الأمَّةِ غيرَ فعلِ الرَّسول لزِم كونُ كلِّ واحدٍ منهما في شقٍّ آخرَ مِن العمل، فتحصُلُ المُشاقَّةُ، لكنَّ المُشاقَّةَ محرَّمةٌ، فيلزَمُ وجوبُ الاقتداءِ به في أفعاله .

❁أنَّ سبيلَ المؤمنين طاعةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنه قال :وَمَنْ يُشَاقِقِ، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، إذًا: سبيلُ المؤمنين هي عدمُ المُشاقَّة، وهو كذلك، وكلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا، كان أقوى اتِّباعًا لرسولِ الله ﷺ

❁قوله :وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ :فيه عَطْفُ اتِّباعِ غَيْرِ سبيلِ المُؤمنينَ على مُشاقَّةِ الرَّسولِ في قوله :وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى على سَبيلِ التَّوكيدِ والتَّشنيعِ، وإلَّا فمَن

يُشاقِقُ الرَّسولَ هو متَّبعٌ غيرَ سبيلِ المؤمنين ضرورةً، ولكنَّه بدأ بالأعظمِ في الإثم، وأَتْبَعَ بلازِمِه توكيدًا، وفائدتُه أيضًا الحَيْطَةَ لحِفظِ الجامعةِ الإسلاميَّةِ بعدَ الرسولِ؛ فقد ارتدَّ بعضُ العَرَبِ بعد الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فكانوا ممَّن اتَّبَعَ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ ولم يُشاقُّوا الرَّسولَ .

لطيفة

قال المزني والربيع – رحمهما اللهَّ تعالى –: " كنا يوماً عند الشَّافِعِي، إذ جاء شيخ، فقال له: أسألُ؟ قال الشَّافِعِي: سل، قال: (إيش) الحجّة في دين اللهَّ؟

فقال الشَّافِعِي: كتاب اللهَّ. قال: وماذا؟ قال: سُنَّة رسول الله ﷺ

قال: وماذا؟ قال: اتفاق الأمة. قال: ومن أين قلت اتفاق الأمة، من كتاب اللهَّ؛ فتدبر الشَّافِعِي – رحمه اللهَّ –ساعة. فقال الشيخ: أجلتك ثلاثة أيام. فتغير لون الشَّافِعِي، ثم إنَّه ذهب فلم يخرج أياماً.

قال: فخرج من البيت في اليوم الثالث، فلم يكن بأسرع أن جاء الشيخ فسلم فجلس، فقال حاجتي؟

فقال الشَّافِعِي رحمه اللهَّ تعالى: نعم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، قال اللهَّ ﷻ : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) لا يصليه جهنم على خلاف سبيل المؤمن إلا وهو فرض.

قال: فقال: صدقت. وقام وذهب.

قال الشَّافِعِي رحمه الله: قرأت القرآن في كل يوم وليلة ثلاث مرات، حتى وقفت عليه.

[النساء: ١١٨-١٢٠]

قال تعالى ﴿لَعَنَهُ اللهُّ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهَّ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهَّ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) ﴾

❁ فَلَيُبَتِّكُنَّ: أي: يُقطِّعُونها ويَشقُّونها، والبَتْكُ: القَطْعُ، ويُستعملُ في قَطْعِ الأعضاءِ والشَّعرِ؛

يُقال: بتك شَعرَه وأُذنَه

❁ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ: يُشوِّهون خَلْقَه بالخِصاءِ، وقطعِ الآذانِ، وفَقْءِ العيون، ونَتْفِ اللِّحيةِ، أو: يُبدِّلون حُكمَه ودِينَه، وأصل غيَّر: اختلافُ شيئينِ، والخَلْقُ أصله: التَّقديرُ المستقيم، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيء من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ

❁ غُرُورًا: الغرورُ: الباطل، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، والغَرور: كلُّ ما يغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ

❁ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا لَعَنَهُ اللَّهُ: أي: قد أَقصاه اللهُ تعالى وأبعَدَه وطرَدَه مِن رحمتِه . كما قال تعالى :قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وكما أبعَدَه اللهُ تعالى من رحمتِه، يسعى في إبعاد العبادِ عن رحمة الله ﷻ؛ ولهذا أخبَرَ اللهُ عن سعيه في إغواءِ العباد، وتزيينِ الشَّرِّ لهم والفسادِ ؛ قال اللهُ تعالى: وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا أي: قال الشَّيطانُ لربِّه حين لَعَنَه: واللهِ لأتَّخذَنَّ مِن عبادِك جزءًا معلومًا مقدَّرًا، أجعَلُهم أولياءَ لي، أتولَّاهم ويتولَّوْنني، فيكونون من حزبِي أصحابِ السَّعيرِ . كما قال الله تعالى :قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ وقال أيضًا :إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ.

❁ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا بعد أن أقسَمَ الشَّيطانُ أنَّه سيتَّخذُ نصيبًا مفروضًا من العِباد، ذكَر ما يعتزمُ فعلَه بهم بقوله : وَلَأُضِلَّنَّهُمْ أي: واللهِ لأَصُدَّنَّهم عن طريق الحقِّ إلى سُبُلِ الضَّلالِ، ضلال في العِلمِ، وضلال في العمل .

❁ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ أي: واللهِ لأجعَلَنَّ في نفوسِهم من الأمانيِّ الَّتي أعِدُهم بها، ما يُزيغُهم عن توحيدِك وطاعتِك؛ كأن يُزيِّنَ لهم ما هم فيه من الضَّلالِ، مع تمنِّيهم أن ينالوا ما ناله المهتدونَ، وكأن يُمنِّيَهم بطولِ العمرِ مع أمرِهم بالتَّسويفِ والتَّأخيرِ في التَّوبةِ حتَّى يَبغتَهم الموتُ .

❁ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ أي: واللهِ لآمُرَنَّهم بأن يُقطِّعوا آذانَ الأنعامِ من الإبلِ والبقرِ

والغَنَم علامةً على أنَّها محرَّمةٌ -قيل: يُقطِّعونها نُسُكًا في عبادةِ الأوثانِ- وهذا يقتضي تحريمَ ما أحَلَّ اللهُ، أو تحليلَ ما حرَّمه، ويلتحقُ بذلك مِن الاعتقاداتِ الفاسدةِ والأحكامِ الجائرةِ ما هو مِن أكبرِ الضَّلالِ .

❁ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ أي: ولآمُرَنَّهم بتغييرِ خِلقتِهم الظَّاهرةِ بالوَشْم، والنَّمْصِ، والتَّفلُّجِ للحُسنِ، وغير ذلك ، وتغيير خِلقتِهم الباطنة، فتتغيَّرُ فِطرتُهم الَّتي فُطِروا عليها من التَّوحيدِ إلى الشِّركِ، ومِن اليقينِ إلى الشَّكِّ، ومِن قَبولِ الحقِّ والعملِ به إلى تركِه والإعراضِ عنه والتَّمرُّدِ عليه .

❁ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا حكَى عن الشَّيطانِ دَعاويَه في الإغواءِ والضَّلالِ، حذَّر النَّاسَ عن متابعتِه ، فقال: وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ أي: ومَن يجعَلِ الشَّيطانَ وليًّا لنفسِه ونصيرًا دون الله تعالى فيتَّبِعْه ويُطِعْه .

❁ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا أي: فقد هلَك في الدُّنيا والآخِرةِ هلاكًا ظاهرًا، يُبِينُ عن عطَبِه وهلاكِه، فيحصُلُ له الشَّقاءُ الأبديُّ، ويفوتُه النَّعيمُ السَّرمديُّ .

❁يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا

يَعِدُهُمْ أي: يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه بوعودٍ باطلةٍ لإضلالِهم؛ كأنْ يعِدَهم بأن يكونَ لهم نصيرًا ممَّن أرادهم بسوءٍ، وكأن يعِدَهم بأنَّهم إذا أنفقوا في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ افتقَروا، وإن جاهَدوا في سبيل الله تعالى قُتِلوا .

وَيُمَنِّيهِمْ أي: يُرجِّيهم ويَفتَحُ أمامَهم الآمالَ الكاذبةَ، والأمانيَّ الباطلةَ؛ كأنْ يُمنِّيَهم بالظَّفَرِ على أعدائِهم، وكأن يُمنِّيَهم بأنَّهم هم الفائزونَ في الدُّنيا والآخرةِ .

وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أي: وما يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه إلَّا باطلًا وأوهامًا خادعةً لا حقيقةَ لها . فإنَّه إذا حَصْحَصَ الحقُّ وصاروا إلى الحاجةِ إليه، قال لهم عدوُّ الله :إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا

تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ

❁ وكما قال للمُشركين ببدرٍ وقد زيَّن لهم أعمالَهم :لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ . وحَصْحَصَ الحقُّ، وعايَن جِدَّ الأمرِ، ونزولَ عذابِ الله بحزبِه، نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ فصارَتْ عِداتُه إيَّاهم عند حاجتِهم إليه غرورًا، كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ أنَّ الطَّاعة تُسمَّى دُعاءً وعِبادةً؛ لقوله :وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا .

❁ التَّحذيرُ مِن الانصياعِ لأوامرِ مَن لَعَنَه اللهُ؛ لأنَّ هذه الجملةَ في قوله :لَعَنَهُ اللَّهُ كالتَّعليلِ لذَمِّهم حينما عبَدوا الشَّيطانَ .

❁ إثباتُ القولِ للشَّيطان، وأنَّه يقولُ كما أنَّه يفعَلُ أيضًا، وقد أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّه يأكل ويشربُ بشِماله؛ فهو يقولُ ويفعلُ ويُمَنِّي ويعِدُ ويضُرُّ .

❁ أنَّ نصيبَ الشَّيطانِ من عباد الله مفروضٌ، أي: مُقدَّرٌ لا بدَّ أن يكونَ؛ قال سبحانه وتعالى :وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا .

❁ أنَّ الشَّيطانَ أقسَم قَسَمًا مؤكَّدًا أن يُضِلَّ هؤلاء النَّصيبَ الَّذين فُرِضوا له، وهذا القَسَمُ له مدلوله، فيتفرَّعُ عليه أنَّه يجبُ علينا أن نحذَرَ مِن وساوسِ الشَّيطانِ؛ لأنَّها كلَّها ضلالٌ؛ لقوله :وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ .

❁ أنَّ هذا الإضلالَ الَّذي يقعُ مِن الشَّيطانِ لبني آدمَ مصحوبٌ بالأمنيَّاتِ، بمعنى أنَّه يُدخِلُ عليهم الأمانيَّ وأنَّهم ينالون خيرًا، وأنَّ المعاصيَ لا تضُرُّهم، وأنَّ التَّوبةَ قريبةٌ، وما أشبَهَ ذلك، قال تعالى حاكيا عنه :وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ .

❁ قول الله تعالى :وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ، بدأ بالأمرِ بالتَّبتيك، وإن كان مندرجًا تحت عمومِ التَّغييرِ لخَلقِ الله؛ ليكونَ ذلك

استدراجًا لِمَا يكونُ بعده من التَّغييرِ العامِّ، واستيضاحًا من إبليسَ طواعيتَهم في أوّلِ شيءٍ يُلقيه إليهم، فيَعلَمَ بذلك قَبولَهم له، فإذا قبِلوا ذلك أمَرَهم بجميع التَّغييراتِ الَّتي يُريدُها منهم؛ كما يفعلُ الإنسانُ بمن يقصِدُ خداعَه: يأمُرُه أوَّلًا بشيءٍ سهلٍ، فإذا رآه قد قبِل ما ألقاه إليه من ذلك، أمَرَه بجميعِ ما يُريدُ منه

❃ في قوله تعالى :وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ أنَّ الأصلَ في تغيير خَلْقِ الله المنعُ؛ لأنَّه من أوامرِ الشَّيطانِ

❃ أنَّه لولا وعودُ الشَّيطانِ لَمَا عُنِيَ أولياؤُه بنَشْرِ مذاهبِهم الفاسدةِ وآرائِهم وأضاليلِهم، الَّتي يَبتغون بها الرِّفعةَ والجاهَ والمال، وهؤلاء موجودون في كلِّ زمان، ويُعرَفون بمقاصدِهم، وقد دلَّ على هذا ما قبله، ولكنَّه ذكرَه ليصِلَ به قولَه :وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا

[النساء: ١٤٦]

قال تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) ﴾

وَاعْتَصَمُوا :استمسَكوا وامتنَعوا به، والاعتصام: التَّمسُّك بالشَّيء، وأصل العِصمة: المنعُ، ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ، أي: منَعَه من الجوعِ، والعِصمةُ أيضًا الإمساكُ، والملازَمة

❃ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا أي: إلَّا التَّائبين مِن نِفاقِهم، الَّذين رجَعوا للحقِّ وندِموا على سيِّئاتِهم .

❃ وَأَصْلَحُوا أي: وأصلَحوا أعمالَهم الظَّاهرةَ والباطنةَ فعَمِلوا بما أمَرهم اللهُ تعالى به، وانتهَوْا عمَّا نهاهم عنه، وأصلحوا ما أفسدوه .

❃ وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ أي: واعتصَموا برَبِّهم في جميعِ أمورِهم، والْتَجَؤوا إليه في جَلْبِ مَنافعِهم ودَفْعِ المضارِّ عنهم .

❃ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ أي: قَصَدوا وجهَ الله تعالى بأعمالِهم الظَّاهرةِ والباطنةِ، وسَلِمُوا من الرِّياءِ والنِّفاقِ .

❃ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ أي: فهؤلاء المُنافقون بعدَ تَوبتِهم وإصلاحِهم واعتِصامِهم بالله تعالى

وإخلاصِهم له مع المؤمنين في الدُّنيا والآخرةِ، يَكونون في زُمرتِهم يومَ القيامة، ويَدخُلونَ معهم الجنَّةَ .

❁ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا –في قولِه تعالى :إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِّ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِّ أنَّ مَن كان معتصمًا بغيرِ الله، فإنَّ مِن تحقيقِ توبتِه أن يعدِلَ عن الاعتِصامِ بغير الله إلى الاعتصامِ بالله؛ لأنَّ الدَّاءَ يُداوَى بدواءٍ مقابلٍ؛ فالاعتصامُ بغيرِ الله شِركٌ، يُداوَى بالاعتصامِ بالله عزَّ وجلَّ، ولكلِّ داءٍ دواءٌ يُناسِبُه .

❁أنَّ مِن تمامِ التَّوبةِ إخلاصَ المشرِكِ؛ لقوله :وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِّ، والمنافِقون عندهم إشراكٌ؛ لأنَّهم يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَّ إِلَّا قَلِيلًا .

❁خصَّ اللهُ تعالى الاعتِصامَ والإخلاصَ بالذِّكرِ في قوله تعالى :إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِّ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ، مع دخولِها في قوله :وَأَصْلَحُوا، فهما من جملةِ الإصلاحِ؛ وذلك لشدَّةِ الحاجةِ إليهما، خُصوصًا في هذا المقامِ الحرِجِ الَّذي يمكِّنُ مِن القلوبِ النِّفاقَ، فلا يُزيله إلَّا شدَّةُ الاعتصامِ بالله، ودوامُ اللَّجَأِ والافتقارِ إليه في دفعِه، ولكونِ الإخلاصِ منافيًا كلَّ المنافاة للنِّفاق؛ فذَكَرَهما لفضلِهما وتوقُّفِ الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنة عليهما، ولشدَّةِ الحاجةِ في هذا المقامِ إليهما

❁قال تعالى :إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِّ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِّ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا كان المُنافِقُ متَّصِفًا بنقائضِ هذه الأوصافِ مِن الكُفرِ وفَسادِ الأعمالِ والموالاة للكافرين والاعتزازِ بهم، والمراءاة للمؤمنين– شرَط في تَوبتِهم ما يُناقِضُ تلك الأوصافَ، وهي التَّوبةُ مِن النِّفاقِ، وهي الوصفُ المحتوي على بقيَّةِ الأوصافِ من حيثُ المعنى، ثمَّ فصَّل ما أجمَلَ فيها، وهو الإصلاحُ للعَملِ المستأنَفِ المقابِلُ لفسادِ أعمالِهم الماضية، ثمَّ الاعتصامُ بالله في المستقبَل، وهو المقابلُ لموالاةِ الكافرين والاعتمادِ عليهم في الماضي، ثمَّ الإخلاص لِدين الله، وهو المقابلُ للرِّياء الَّذي كان لهم في الماضي .

❁في قوله تعالى :إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، أنَّ المنافقَ تُقبَلُ توبتُه، وأنَّ مَن اتَّصَف بهذه الصِّفات فإنَّه يكونُ مع المؤمنين، ولو كان قبل ذلك منافقًا؛ لأنَّ هذه الصِّفاتِ تنتشلُه من النِّفاقِ إلى الإيمان، فهذه معيَّةُ المؤمنين، لا شكَّ أنَّها منزلةٌ عالية؛ كما قال تعالى :وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

[النساء: ١٧٥]

قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥) ﴾

وَاعْتَصَمُوا :استَمسَكوا وامتنعوا به، وأصلُ العِصمة: المنْع- ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: مَنعَه من الجوع ، والإمساك، والملازمة .

وَفَضْلٍ :أي: عطاءٍ زائِد؛ فأصلُ الفضل الزِّيادة، وكلُّ عَطيَّة لا تلزم مَن يُعطي، يُقال لها: فضل، والإفضال: الإحسان

❁ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ أي: فأمَّا المؤمنون بالله تعالى، المعتمدون عليه في جميع أمورِهم .

❁ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ أي: فسيتغمَّدهم الله تعالى برحمةٍ خاصَّة، فيُوفِّقهم للخيرات، ويَجزل لهم المثوبات، ويَدفع عنهم المكروهات، ويُدخلهم الجَنَّة، ويَزيدهم ثوابًا، ورَفعًا في درجاتهم، من فَضْله عليهم، وإحسانه سبحانه إليهم .

❁ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا أي: يُوفِّقهم ويُسدِّدهم لسلوك طريق مَن أنعم الله تعالى عليه من أهل طاعتِه، ولاقتفاء آثارِهم، واتِّباع دِينهم، فيوفِّقهم للعِلم النَّافع، والعمل الصالح

❁أنَّ مَن آمَن واعتَصَم بالله، فإنَّه سوف ينالُ الرحمةَ العاجلةَ والآجلة؛ لقوله :فَسَيُدْخِلُهُمْ، والسِّين تدلُّ على القُرب، وأنعمُ الناس بالًا، وأشدُّهم انشراحًا في الصُّدور هم المؤمنون المعتصِمون بالله .

❁قوله تعالى :وَاعْتَصَمُوا بِهِ جاء بصيغة الافتعال؛ للدَّلالةِ على الاجتهاد في ذلك؛ لأنَّ النفس داعيةٌ إلى الإهمال المنتِج للضلال .

❁ قوله :فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا فيه: تقديم ذِكر الوعدِ بإدخال الجَنَّةِ على الوعدِ بالهدايةِ إليه على خِلاف الترتيب في الوجودِ بين الموعودين؛ للمسارعةِ إلى التبشير بما هو المقصدُ الأصليُّ قبلُ .

[التوبة: ٦٧-٦٨]

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) ﴾

❁ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ :أي: يُمسِكونَها عن الصَّدَقةِ والخَيرِ، وأصلُ (قبض): يدلُّ على شيءٍ مأخوذٍ، وتجمُّعٍ في شَيءٍ.

❁ يُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ هم صِنفٌ واحِدٌ مُتشابِهونَ في كُفرِهم ونِفاقِهم؛ يأمرونَ بالمُنكَرِ، وينهَوْنَ عن المعروفِ، ويُمسِكونَ أيديَهم عن إخراجِ ما يجِبُ عليهم من النَّفَقات، نَسُوا ذِكرَ الله، فتَرَك هدايتَهم ورَحمتَهم، وأهمَلَهم وتخلَّى عنهم، ويترُكُهم مخلَّدينَ في عذابِ جهنَّمَ في الآخرةِ، إنَّ المُنافقينَ هم الفاسِقونَ.

❁ وعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارَ نارَ جهنَّمَ، ماكثينَ فيها أبدًا، هي كافيةٌ لِعقابِهم، وأبعَدَهم اللهُ مِن رَحمتِه، ولهم عذابٌ دائِمٌ غيرُ مُنقطِعٍ. وأنَّ أصحابَه سواءٌ؛ ليُعلَمَ بذلك أنَّ افتراقَ أحوالِهم بين عَفوٍ وعذابٍ، لا يكونُ إلَّا إذا اختلَفَت أحوالُهم بالإيمانِ، والبقاءِ على النِّفاقِ .

❁ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ. أي: المُنافِقونَ والمُنافِقات، الذين يُظهِرونَ للمُسلِمينَ الإيمانَ بألسِنَتِهم، ويُبطِنونَ الكُفرَ في قلوبِهم؛ هم صِنفٌ واحدٌ مُتشابِهونَ في كُفرِهم ونِفاقِهم، وأخلاقِهم وأغراضِهم، وبعضُهم أولياءُ بعضٍ .

❇ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ . أي: المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ يأمرونَ بما يُبغِضُه اللهُ ويُنكِرُه؛ من الكُفرِ والمعاصي، ويَنهونَ عن المعروفِ الذي يحِبُّه الله ويأمُرُ به؛ من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ .

❇ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ. أي: ويُمسِكُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ أيديَهم عن إخراجِ زكاةِ أموالِهم، وعن كلِّ ما وجَبَ عليهم من النَّفَقاتِ، ومن ذلك الإنفاقُ في الجِهادِ .

❇ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ. أي: نَسِيَ المُنافِقونَ ذِكرَ اللهِ وترَكوا طاعَتَه، فترَكَ اللهُ هدايتَهم ورَحمَتَهم، وأهمَلَهم وتخلَّى عنهم، ويترُكُهم مخلَّدِينَ في عذابِ جهنَّمَ في الآخرةِ ؛ كما قال تعالى :وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وقال سبحانه :وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

❇ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. : إنَّ المُنافِقين هم الخارِجونَ عن طاعةِ الله، والإيمانِ به سُبحانَه

❇ لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في المُنافِقين والمُنافِقاتِ أنَّه نَسِيَهم، أي: جازاهم على ترْكِهم التمسُّكَ بطاعةِ الله؛ أكَّدَ هذا الوعيدَ، وضَمَّ المُنافِقين إلى الكُفَّارِ فيه، فقال تعالى :

وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا. أي: وعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ وجميعَ الكُفَّارِ أنْ يُدخِلَهم نارَ جَهنَّم، ماكثينَ فيها أبدًا .

❇ هِيَ حَسْبُهُمْ أي: نارُ جهنَّمَ كافيةٌ لعقابِ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارِ؛ جزاءً على نفاقِهم وكُفرِهم .

❇ وَلَعَنَهُمُ اللهُ. أي: وأبعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والكُفَّارَ، وطَرَدَهم مِن رَحمتِه . كما قال تعالى :لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ وقال سبحانه :إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

❇ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ. أي: ولأهلِ النِّفاقِ والكُفرِ عذابٌ دائِمٌ لا ينقطِعُ

فوائد

❋ قال الله تعالى :الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ لأنَّهم اشتَرَكوا في النِّفاق، فاشتَرَكوا في تولِّي بَعضِهم بعضًا، وفي هذا قَطعٌ للمُؤمِنينَ مِن وَلايَتِهم

❋ عاقب اللهُ سبحانه مَن نَسِيَه عُقوبَتينِ :إحداهما :أنَّه سُبحانه يَنساه، كما في قولِه تعالى :نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ، والثَّانية :أنَّه يُنسيه نفسَه، كما في قولِه تعالى :نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، ونسيانُه سبحانَه للعبدِ: إهمالُه، وتركُه، وتخلِّيه عنه، وأمَّا إنساؤُه نفسَه، فهو: إنساؤُه لِحُظوظِها العاليةِ، وأسبابِ سعادتِها وفلاحِها وما تَكْمُلُ به؛ فلا يسعَى إليها، وكذا نسيانُ عُيوبِ نَفسِه ونَقصِها وآفاتِها، فلا يخطُرُ ببالِه إزالتُها، وأيضًا يُنسيه أمراضَ نفسِه وقلبِه وآلامَها، فلا يخطُرُ بِقَلبِه مُداواتُها، ولا السعيُ في إزالةِ عِلَلِها وأمراضِها التي تَؤُولُ بها إلى الفَسادِ والهلاكِ، فهو مريضٌ مُثخَنٌ بالمَرَض، ومَرَضُه مُتَرامٍ به إلى التَّلَفِ، ولا يشعرُ بمَرضِه، ولا يخطرُ ببالِه مُداواتُه

❋ قال الله تعالى :الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وصَفَ اللهُ سُبحانَه المُنافِقينَ بأنَّ بَعضَهم مِن بَعضٍ، وقال في المؤمنينَ :وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ؛ وذلك لأنَّ المُنافِقينَ تشابهَت قلوبُهم وأعمالُهم، وهم مع ذلك تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ؛ فليست قلوبُهم مُتوادَّةً مُتواليةً، إلَّا ما دام الغَرَضُ الذي يَؤُمُّونَه مُشترِكًا بينهم، ثم يتخَلَّى بعضُهم عن بعضٍ، بخلافِ المؤمِن، فإنَّه يُحِبُّ المؤمِنَ وينصُرُه بظَهرِ الغيبِ، وإن تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعَدَ الزَّمانُ ، ودلَّ قولُه :بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ على أنَّ نِفاقَ الأتباعِ كالأمرِ المتفَرِّعِ على نفاقِ الأسلافِ، والأمرُ في نفسِه كذلك؛ لأنَّ نِفاقَ الأتباعِ وكُفرَهم حصَلَ بسبَبِ التَّقليدِ لأولئك الأكابِرِ، وبسببِ مُقتضى الهَوى والطَّبيعةِ والعادةِ، أمَّا المُوافَقةُ الحاصِلةُ بين المؤمنينَ، فإنَّما حصَلَت لا بسبَبِ المَيلِ والعادةِ، بل بسببِ المُشاركةِ في الاستدلالِ والتَّوفيقِ والهِدايةِ، اللُّحْمةُ الجامعةُ بينهم هي ولايةُ الإسلامِ، فهم فيها على السَّواءِ، ليس واحدٌ منهم مقلِّدًا للآخَرِ ولا تابعًا له على غيرِ بَصيرةٍ؛ لِما في معنى الولايةِ مِن الإشعارِ بالإخلاصِ والتَّناصُرِ، بخلافِ المُنافِقينَ، فكأنَّ بَعضَهم ناشئٌ مِن بعضٍ في مَذامِّهم؛ فلهذا السَّبَبِ قال تعالى في المُنافقين :بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وقال في المؤمنين :بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .

❁ قَولُ الله تعالى :وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ اقتصَرَ مِن مُنكَراتِ المُنافِقينَ الفعليَّةِ على هذا؛ لأنَّه شَرُّها وأضَرُّها، وأقواها دَلالةً على النِّفاقِ .

❁ قَولُ الله تعالى :وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ أخَّرَ ذِكرَ الكُفَّارِ في مقامِ الوعيدِ؛ للإيذانِ بأنَّ المُنافِقينَ- وإن أظهَروا الإيمانَ وعَمِلوا أعمالَ الإسلامِ- شَرٌّ مِن الكفَّارِ الصُّرَحاءِ، ولا سيَّما المتدَيِّنونَ منهم بأديانٍ باطلةٍ مِن الأصلِ، أو مُحَرَّفةٍ ومَنسوخةٍ كأهلِ الكِتابِ .

❁ قولُه :وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ قَبْضُ اليدِ كِنايةٌ عَنِ البُخْلِ والشُّحِّ، والأصْلُ في هذه الكِنايةِ أنَّ المُعطي يَمُدُّ يدَهُ، ويَبْسُطُها بالعَطاءِ، فقيل لِمَنْ مَنَعَ وبَخِلَ: قد قَبَضَ يَدَه .

❁ قولُه :نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ، أي: تَركُوهُ حين تَركوا نبيَّهُ وشِرْعتَه، فتَرَكَهم حين لم يَهْدِهم، ولا كَفاهم عذابَ النَّارِ؛ ففيهِ التَّعبيرُ عَنِ التَّرْكِ بالنِّسيانِ؛ وإنَّما يُعبَّرُ بالنِّسيانِ عَنِ التَّرْكِ مُبالغةً؛ إذ أبلَغُ وجوهِ التَّرْكِ الوَجْهُ الذي يَقْتَرِنُ به نِسيانٌ، أو مُبالَغةً في أنَّه لا يَخْطُرُ ذلك ببالٍ .

❁ وقولُه :هُمُ الْفَاسِقُونَ صِيغةُ قَصْرٍ، أي: هم الكامِلونَ في الفِسْقِ، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ للمُبالَغةِ؛ لأنَّهُمْ لَمَّا بَلَغوا النِّهايةَ في الفُسوقِ جُعِلَ غيرُهم كمَنْ ليس بفاسِقٍ ، فحَصَرَ الفِسقَ فيهم؛ لأنَّ فِسقَهم أعظَمُ مِن فِسقِ غَيرِهم؛ بدليلِ أنَّ عَذابَهم أشَدُّ مِن عذابِ غَيرِهم، وأنَّ المُؤمِنينَ قد ابتُلُوا بهم؛ إذ كانوا بين أظهُرِهم، والاحترازُ منهم شديدٌ .

❁ وزيادةُ ذِكْرِ الكُفَّارِ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُنافِقين ليسوا بأهونَ حالًا مِنَ المشركينَ؛ إذْ قَدْ جَمَعَ الكُفْرُ الفريقينِ .

❁ وعبَّر بصيغةِ الماضي وَعَدَ؛ للإخبارِ عَنْ وعيدٍ تَقدَّمَ، وَعَدَهُ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ تذكيرًا بِهِ؛ لزيادةِ تَحقيقِهِ، أو لصَوغِ الوعيدِ في الصِّيغةِ التي تَنشأُ بِها العُقودُ، مِثْلَ: (بِعْتُ ووَهَبْتُ)؛ إشعارًا بأنَّهُ وعيدٌ لا يتخلَّفُ مِثْلَ العَقْدِ والالْتِزام .

❁ هِيَ حَسْبُهُمْ فيه مُبالَغةٌ في عِظَمِ عذابِها، وأنَّهُ لا شيءَ أَبْلَغَ مِنه، وأنَّهُ بحيثُ لا يُزادُ عليه .

❁ {يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ}: يأمرون: يدعون إلى المنكر. المنكر تعريفه: هو ما يستقبحه الشّرع، ويمنعه، وما تستنكره العقول السّليمة؛ لمنافاته الأخلاق

❁ {وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ}: يحثون على ترك المعروف، والمعروف: هو كلّ أمر به الشّرع، واستحسنه العقل، والعرف الصّحيح، وينهون عن الإيمان

❁{فَنَسِيَهُمْ}: والله سبحانه لا ينسى أبداً، ولا ينسب له الغفلة سبحانه كقوله تعالى: {فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} ولكن تعني: أهملهم، ونسيهم من رحمته، أو تركهم ولم ينظر إليهم، أو يكترث بهم

[التوبة: ٧١-٧٢]

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾

معاني

عَدْنٍ :أي: إقامَةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثباتٍ، يُقال: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يبْرَح منه، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ

❁ يُخبِرُ تعالى أنَّ المُؤمِنينَ والمؤمناتِ بَعضُهم أنصارُ بَعضٍ؛ يأمرونَ بالمعروفِ، وينهَونَ عن المُنكَرِ، ويؤدُّونَ الصَّلاةَ المفروضةَ كما يجِبُ، ويُعطونَ الزَّكاةَ لِمُستحقِّيها، ويُطيعونَ الله ورسولَه، أولئك سيرحَمُهم الله تعالى؛ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ.

❁ ويخبِرُ تعالى أنَّه وَعَدَهم جناتٍ تجري من تحتِ أشجارِها الأنهارُ، ماكثينَ فيها أبدًا، ووَعَدَهم أن يُسكِنَهم منازِلَ حَسَنةً، لا عيبَ فيها، في جناتِ إقامةٍ دائمةٍ، لا يُخرجونَ منها، ورِضوانٌ منه تعالى عن المؤمنِينَ والمؤمِناتِ أعظَمُ مِن نعيمِ الجنَّةِ، ذلك الذي وعَدَ اللهُ به المؤمنينَ والمؤمناتِ هو الفَوزُ العظيمُ.

❋ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ. أي: وأمّا المؤمِنونَ والمؤمناتُ فبَعضُهم أنصارُ بعضٍ، متحابُّونَ في الله، مُتعاطِفونَ، غيرُ مُتفرِّقينَ

❋ عن أبي موسى الأشعريِّ ﷺ ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال :المؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يشُدُّ بعضُه بعضًا .

❋ وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ : مثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى

❋يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ. أي: المؤمنونَ والمؤمناتُ يأمُرونَ النَّاسَ بكُلِّ خَيرٍ يُحِبُّه اللهُ، مِن الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ، ويَنهونَهم عن كلِّ شَرٍّ يُبغِضُه اللهُ، مِن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي . كما قال تعالى :وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وقال سبحانه [التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .]

❋ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ. أي: ويؤدُّونَ الصَّلواتِ المفروضةَ بِشُروطِها وأركانِها وواجباتِها، ويُعطونَ زكاةَ أموالِهم لِمُستحِقِّيها .

❋ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ. أي: ويُلازِمونَ طاعةَ الله تعالى فيما أمَرَهم به أو نهاهم عنه، ويُلازِمونَ طاعةَ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما أمَرَهم به، أو نهاهم عنه .

❋ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ أي: هؤلاءِ الذينَ هذه صفتُهم سيرحَمُهم اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ .

❋ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. أي: إنَّ الله تعالى ذو عزَّةٍ، فمن أطاعه أعَزَّه، ومن عَصاه وكفَرَ به فإنَّه ينتقِمُ منه، لا يمنعُه منه مانِعٌ، ولا ينصُرُه منه ناصِرٌ، فهو قَويٌّ قاهِرٌ، حكيمٌ في انتقامِه منهم، وفي جميعِ ما يفعَلُه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الوَعدَ في الآيةِ الأُولَى على سبيلِ الإجمالِ؛ ذكَرَه في هذه الآيةِ على سبيلِ التَّفصيلِ؛ وذلك لأنَّه تعالى وعَدَ بالرَّحمةِ، ثمَّ بَيَّن في هذه الآيةِ أنَّ تلك الرحمةَ هي هذه الأشياءُ .

❁ وأيضًا لَمَّا أعقَبَ الْمُنافِقِينَ بذِكرِ ما وعَدَهم به من نارِ جهنَّمَ، أعقَبَ المؤمنينَ بذِكرِ ما وعَدَهم به من نعيمِ الجِنانِ .

❁ وأيضًا لما ذكَرَ الله تعالى كَونَ الْمُؤمِنينَ مَوصوفينَ بصِفاتِ الخَيرِ، وأعمالِ البِرِّ؛ ذكَرَ بَعدَه أنواعَ ما أعَدَّ الله لهم من الثَّوابِ الدَّائمِ، والنَّعيمِ الْمُقيمِ .

❁ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أي: وعَدَ اللهُ الْمُؤمِنينَ والمؤمِناتِ بَساتينَ تجري من تحتِ أشجارِها أنهارُ الجنَّةِ، ماكثينَ فيها أبدًا . كما قال سبحانه :وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا

❁ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ أي: ووعَد اللهُ المؤمنينَ والمؤمِناتِ أن يُسْكِنَهم منازِلَ حَسَنةً، لا عَيبَ فيها ، مبنيَّةً في بساتينِ إقامةٍ دائمةٍ، لا يُخرَجونَ منها .

❁ عن أبي موسى الأشعريِّ ﷺ ، عن النبيِّ ﷺ قال : جنَّتانِ مِن فِضَّةٍ آنيتُها وما فيها، وجنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيتُها وما فيها، وما بين القَومِ وبين أن ينظُروا إلى ربِّهم إلَّا رِداءُ الكِبرِ على وَجهِه، في جنَّةِ عَدْنٍ .

❁ وعن أبي موسى الأشعريِّ ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : إنَّ للمُؤمِنِ في الجنَّةِ لَخيمةً مِن لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجَوَّفةٍ، طُولها سِتُّون مِيلًا، للمُؤمِنِ فيها أهلُونَ، يطوفُ عليهم المؤمِنُ، فلا يرى بعضُهم بعضًا

❁ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ. أي: ورضا الله تعالى عن المؤمِنينَ والمؤمناتِ أعظمُ وأفضَلُ ممَّا هم فيه مِن نَعيمِ الجنَّةِ .

❁ عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبَّيك ربنا وسَعدَيك، والخَيرُ في يَدَيك، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضَى يا رَبِّ، وقد أعطَيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلْقِك؟! فيقولُ: ألَا أعطِيكم أفضَلَ مِن ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ من ذلك؟! فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا .

❁ وعن جابرِ بنِ عبدِ الله رضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ : إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقولُ اللهُ ﷻ : هل تَشتَهونَ شَيئًا فأزيدَكم؟ فيقولونَ: ربَّنا، وما فوقَ ما أعطيتَنا؟! يقول: رِضواني أكبَرُ .

❁ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. أي: ما وعدَ اللهُ تعالى به المؤمنينَ والمُؤمِناتِ مِن النَّعيمِ والرِّضوانِ في الآخرةِ، هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَر الكبيرُ الذي لا أكبَرَ ولا أعظَمَ منه . كما قال تعالى :قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

وقال ﷻ :يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

وقال :إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ

فوائد

❁ دلَّ قولُه تعالى :وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ أنَّ المؤمنَ يحبُّ المؤمنَ، وينصُرُه بظَهرِ الغَيبِ، وإنْ تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعدَ الزَّمانُ .

❁ قَولُ الله تعالى :وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ ... الآية هذه الأمورُ الخَمسةُ بها يتميَّزُ المؤمِنُ مِن المنافِقِ، فالمنافِقُ- على ما وصَفَه اللهُ تعالى في الآيةِ المتقدِّمة- يأمرُ بالمنكَرِ، وينهى عن المعروفِ، والمؤمِنُ بالضِّدِّ منه. والمنافِقُ لا يقومُ إلى الصَّلاةِ إلَّا مع نوعٍ مِن الكسَلِ، والمؤمِنُ بالضِّدِّ منه. والمنافِقُ يبخَلُ بالزكاة وسائِرِ الواجباتِ، والمؤمنونَ يُؤتونَ الزَّكاةَ. والمنافِقُ إذا أمَرَه الله ورسولُه بالمسارعةِ إلى الجهادِ، فإنَّه يتخلَّفُ بنَفسِه، ويثَبِّطُ غَيرَه، والمؤمنونَ بالضدِّ منهم .

❁في قولِه تعالى :أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ دلالةٌ على أنَّ دخولَ المؤمنين الجنةَ إنَّما هو برحمتِه سبحانه لا بأعمالِهم؛ لأنَّه- تبارك وتعالى- بعدَ ما وصفَهم به مِن كثرةِ الأعمالِ، وَعَدَهم الرحمةَ قبلَ الجنةِ،

حتى يكونَ دخولُهم إيَّاها برحمتِه لا بأعمالِهم؛ إذْ أعمالُهم لو قِيْسَتْ ببعضِ النِّعَمِ لاستفرغَتْها؛ فلا يحصلُ لهم إلَّا رحمتُه، فلمَّا تغمدتْهم وأدخلَتْهم دارَ كرامتِه؛ عَطَفَ عليهم بفضلٍ جديدٍ، ونعمةٍ مثناةٍ .

❁ اللهُ تعالى جعلَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ، فَرْقَ ما بين المؤمنينَ والمُنافِقينَ؛ لأنَّه قال :الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وقال :وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فثبَت بذلك أنَّ أخَصَّ أوصافِ المُؤمنِينَ وأقواها دَلالةً على صِحَّةِ عَقْدِهم، وسلامةِ سَريرتِهم، هو الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَر، وهاتان الصِّفتانِ هما سِياجُ حِفظِ الفَضائِلِ، ومَنع فشُوِّ الرذائلِ، وقد فضَّلَ الله تعالى بهما أمَّةَ محمَّدٍ ﷺ على سائرِ الأمَمِ في قَولِه تعالى :كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .

❁ قال الله تعالى :وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ ... هؤلاء الآمِرونَ بالمَعروفِ، والنَّاهونَ عن المُنكَرِ أطبَّاءُ الأديانِ، الذين تشفَى بهم القلوبُ المريضةُ، وتهتدي بهم القُلوبُ الضالَّةُ، وتَرشُدُ بهم القلوبُ الغاويةُ، وتستقيمُ بهم القُلوبُ الزائغةُ، وهم أعلامُ الهدى ومصابيحُ الدُّجى .

❁ قال الله تعالى :وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ مَنْ كان مُؤْمِنًا وجَبَتْ مُوالاتُه مِن أيِّ صِنْفٍ كان، ومَنْ كان كافِرًا وَجَبَتْ مُعاداتُه مِن أيِّ صِنْفٍ كان، ومَن كان فيه إيمانٌ وفيه فجورٌ، أُعطِيَ مِن المُوالاةِ بحسَبِ إيمانِه، ومِن البُغضِ بحسَبِ فُجورِه

❁ قال الله تعالى :وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ وظيفةَ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ ليست خاصةً بالرِّجالِ، بل حتى النِّساءُ عليهنَّ أن يأمُرنَ بالمعروفِ، ويَنهَينَ عن المُنكَر، ليس في مجامِعِ الرِّجالِ، وفي أسواقِ الرِّجالِ، لكنْ في حقولِ النِّساءِ، ومُجتَمَعاتِ النِّساءِ .

❁ قَولُه تبارك وتعالى :وَيُطِيعُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ أي: في سائِرِ الأمورِ، في مُقابلةِ وَصْفِ المنافقينَ بكَمالِ الفِسقِ، والخُروجِ عن الطَّاعةِ

❁ لا يُشرَعُ اجتماعُ طائفةٍ وتحزُّبُهم على التَّناصُرِ المُطلَق، بحيث ينصُرُ بعضُهم بعضًا في الحقِّ والباطلِ، بل الواجبُ على كلِّ أحدٍ اتِّباعُ كتابِ الله وسُنَّةِ رَسولِه ﷺ ، والمؤمنونَ إخوةٌ يجِبُ موالاةُ بعضِهم بعضًا وتناصرُهم، وتعاونُهم على البرِّ والتَّقوى، قال تعالى :وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ

❁ قَولُ الله تعالى :وَعَدَ اللهُّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ... الآيةُ نَصٌّ في مساواةِ النِّساءِ للرِّجالِ في نعيمِ الآخرةِ كُلِّه حتى أعلاه، بالتَّبَعِ؛ لِمُساهَمتِهنَّ لهم في التَّكليفِ ووَلايةِ الإيمان، إلَّا ما خَصَّهنَّ الشَّرعُ به لِضَعفِهنَّ، وانفِرادِهنَّ بوظائِفِهنَّ الخاصَّةِ بهنَّ؛ إذ حَطَّ عنهنَّ وُجوبَ القتالِ، والصَّلاةَ والصِّيامَ في بعضِ الأحوالِ، وهذا من المعلومِ بالضَّرورةِ مِن أحكامِ الإسلام، وإنْ جَهِلَه أو تجاهَلَه أعداؤُه الطَّغام

❁ رِضا الله عن العبدِ أكبَرُ مِن الجنَّةِ وما فيها؛ لأنَّ الرِّضا صفةُ الله، والجنَّةُ خَلْقُه؛ قال الله تعالى :وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهَّ أَكْبَرُ بعد قولِه :وَعَدَ اللهُّ الْمُؤْمِنِينَ ... وهذا الرِّضا جزاءٌ على رِضاهم عنه في الدُّنيا، ولَمَّا كان هذا الجزاءُ أفضَلَ الجزاءِ، كان سبَبُه أفضَلَ الأعمالِ .

❁ قال الله تعالى :وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهَّ أَكْبَرُ قولُه :أَكْبَرُ تفضيلٌ لم يُذكَرْ معه المفضَّلُ عليه؛ لظهورِه مِن المقامِ، أي: أكبَرُ مِن الجنَّاتِ؛ لأنَّ رِضوانَ الله أصلٌ لجميعِ الخَيراتِ، وفيه دليلٌ على أنَّ السَّعاداتِ الرُّوحانيَّةَ أعلى وأشرَفُ مِن الجُثمانيَّة

❁ قوله تعالى :وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ... فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عَبَّرَ عَنْ نِسبةِ المؤمنينَ بعْضِهم إلى بعضٍ بالوَلايةِ، وعن نِسْبةِ المُنافِقينَ بـمِنْ الاتِّصاليَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ نِسْبةَ هؤلاءِ–أي: المُؤمنِينَ– بطَريقِ القَرابةِ الدِّينيَّةِ، المبنيَّةِ على المُعاقَدةِ، المُسْتتبِعَةِ للآثارِ مِنَ المعونةِ والنُّصْرةِ وغيرِ ذلك، وأنَّ نِسْبةَ أولئكَ–أي: المُنافِقينَ– بمُقْتَضَى الطَّبيعةِ والعادةِ ؛ فقولُه في المُؤمنِينَ :بَعْضُهُمْ

أَوْلِياءُ بَعْضٍ مُقابِلُ قولِه في المُنَافِقِينَ :بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وعَبَّرَ في جانِبِ المؤمنينَ والمؤمناتِ بأنَّهُمْ أولياءُ بَعْضٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللُّحمَةَ الجامعةَ بَيْنَهُمْ هي وَلايةُ الإسلامِ؛ فهم فيها على السَّواءِ، ليس واحدٌ مِنْهم مُقلِّدًا للآخَرِ، ولا تابعًا له على غيرِ بصيرةٍ؛ لِما في مَعْنى الوَلايةِ مِنَ الإشعارِ بالإخلاصِ والتَّناصُرِ، بخِلافِ المنافقينَ، فكأنَّ بَعْضَهم ناشئٌ مِنْ بَعْضٍ في مَذامِّهم .

❁ وزِيدَ في وَصْفِ المؤمنينَ هُنا :وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ تَنويهًا بأنَّ الصَّلاةَ هي أعظمُ المعروفِ ، ومُقابلةً لِمَا سَبَقَ مِنْ قولِهِ تَعالى :نَسُوا اللهَّ .

❁ قال اللهُ تعالى :وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ خصَّصَ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ بالذِّكرِ مِن جملةِ العباداتِ؛ لِكَونِهما الرُّكنَيْنِ العَظيمَيْنِ فيما يتعلَّقُ بالأبدانِ والأموالِ .

[إبراهيم: ٢٢]

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَّ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾

بِمُصْرِخِكُمْ :أي: بمُغيثِكم ومُنقِذِكم، وأصلُ (صرخ): يدلُّ على صَوتٍ رَفيعٍ

❁ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَّ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ.

أي: وقال إبليسُ- وهو أوَّلُ المُستكبرينَ المتبوعينَ في الضَّلالِ- لأتباعِه لَمَّا أدخَلَ اللهُ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلَ النَّارِ النَّارَ: إنَّ اللهَ وعَدَكم على ألسِنةِ رُسُلِه وعدًا صادِقًا متحَقِّقًا لا يُخلَفُ بوقوعِ البَعثِ، وإثابةِ المُطيعِ بالجنَّةِ، والعاصي بالنَّارِ، ووعَدكم أنَّ في اتِّباعِ هؤلاء الرسلِ النَّجاةَ وَالسَّلامَةَ، فوفَى بوَعدِه، ووَعَدتُكم أنْ لا بعثَ، ولا جَنَّةَ ولا نارَ، ولَا ثَوابَ ولَا عِقابَ، ووعدتُكم النُّصرةَ، فأخلفْتُ وعدي لكم، وكذَبْتُ عليكم . كما قال الله تعالى :يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا

❁ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .أي: قال إبليسُ لأهلِ النَّارِ: وما أظهرتُ لكم أيَّ حجَّةٍ تدُلُّ على صِدقي فيما وعدتُكم به، ولكِنْ دعوتُكم إلى الكُفرِ باللهِ والإشراكِ به ومَعصيتِه، فأطعتُموني واتَّبعتُموني بلا بُرهانٍ .

❁ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ .أي: فلا تَلوموني اليومَ على طاعتِكم واتِّباعِكم لي بلا حُجَّةٍ، ولوموا أنفُسَكم على ذلك؛ فأنتم السَّبَبُ في دخُولِكم النَّارَ؛ لأنَّكم مُؤاخَذونَ بكَسبِكم، ولكم قُدرةٌ واختيارٌ، فاختَرتُم الشَّرَّ على الخيرِ .

❁مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ. أي: ما أنا بمُغيثِكم ومُنقِذِكم من النَّارِ، وما أنتم بُمغيثينَ ومُنقذينَ لي من النَّارِ؛ فكلٌّ مِنَّا له قِسْطُه من العذابِ . كما قال تعالى :وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ وقال سُبحانه :وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ

❁ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ. أي: إنِّي جَحَدْتُ وتبرَّأتُ مِن جَعْلِكم لي شَريكًا لله في العبادةِ والطَّاعةِ مِن قَبلُ في الدُّنيا . كما قال تعالى :وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِّ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا وقال سبُحانه :أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ وقال ﷻ :وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِّ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ

❁ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أي: إنَّ الكافرينَ- الذين ظلَموا أنفُسَهم بوَضعِهم العِبادةَ والطَّاعةَ في غيرِ مَوضِعِها- لهم عَذابٌ مُوجِعٌ .

❁ قال الله تعالى :وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ... حِكايةُ هذه المُحاورةِ لِتَنبيهِ السَّامعينَ على النَّظَرِ في العواقِبِ، والاستعدادِ لذلك اليومِ قبل ألَّا يكونَ إلَّا النَّدمُ وقَرعُ السِّنِّ وعَضُّ اليَدِ

❁ ولإثارةِ بُغضِ الشَّيطانِ في نُفوسِ أهلِ الكُفرِ؛ ليأخُذوا حِذرَهم بِدِفاعِ وِسْواسِه؛ لأنَّ هذا الخِطابَ الذي يُخاطِبُهم به الشَّيطانُ مَليءٌ بإضمارِ الشَّرِّ لهم فيما وعَدَهم في الدُّنيا ممَّا شَأْنُه أن يستفِزَّ غَضَبَهم مِن كَيدِه لهم وسُخريتِه بهم، فيُورِثَهم ذلك كراهيةً له وسُوءَ ظَنِّهم بما يتوقَّعونَ إتيانَه إليهم مِن قِبَلِه، وذلك أصلٌ عَظيمٌ في المَوعِظةِ والتَّربيةِ .

❁ لأنَّ السُّلطانَ أخَصُّ مِن البُرهانِ؛ إذ معناه: برهانٌ يتسَلَّطُ به على إبطالِ مَذهَبِ الخَصمِ، إشارةً إلى أنَّهم تَبِعوه ولا قُدرةَ له على غيرِ هذا الدُّعاءِ الذي لا سُلطانَ فيه، وترَكوا دُعاءَ مَن أنزل إليهم مِن كُلِّ سُلطانٍ مُبينٍ، مع تهديدِهم بما هو قادِرٌ عليه، وضَربِهم ببَعضِه، وفاعِلُ مثلِ ذلك لا لومَ له على غيرِ نَفسِه .

❁ قال الله تعالى :وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ذكرَ الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّه ليس للشَّيطانِ عليهم سُلطانٌ، وقال في آيةٍ أخرى :إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ فأثبتَ له سُلطانًا، ولكِنَّ السُّلطانَ الذي أثبَتَه له عليهم غيرُ السُّلطانِ الذي نفاه، وذلك مِن وَجهينِ:

الأول :أنَّ السُّلطانَ الذي نفاه عنه هو سُلطانُ الحُجَّةِ والدَّليل، فليس له حُجَّةٌ أصلًا على ما يدعو إليه، وإنَّما نهايةُ ذلك أن يُقيمَ لهم مِن الشُّبَهِ والتَّزييناتِ ما به يتجَرَّؤون على المعاصي، وإطلاقُ السُّلطانِ على البرهانِ كثيرٌ في القرآنِ، وأمَّا السُّلطانُ الذي أثبَتَه فهو التسَلُّط بالإغراءِ على المعاصي لأوليائِه يَؤُزُّهم إلى المعاصي أزًّا.

الثاني :أنَّ الله لم يجعَلْ له عليهم سُلطانًا ابتداءً البتَّة، ولكِنَّهم هم الذين سَلَّطوه على أنفُسِهم بطاعتِه ودُخولِهم في حِزبِه، فلم يتسَلَّطْ عليهم بقُوَّةٍ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ :إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا وإنَّما تسَلَّط عليهم بإرادتِهم واختيارِهم، فهم الذين سَلَّطوه على أنفُسِهم بموالاتِه والالتحاقِ بحِزبِه، ولهذا ليس له سُلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلونَ .

❆ قام لهم في هذا اليومِ مقامًا يقصِمُ ظُهورَهم ويُقَطِّعُ قُلوبَهم؛ فقد أوضَحَ لهم

أوَّلًا :أنَّ مواعيدَه الَّتي كان يعِدُهم بها في الدُّنيا باطلةٌ، ومعارِضةٌ لِوعْدِ الحقِّ مِن الله سبحانه

ثانيًا :أنَّه أخلَفَهم ما وعَدَهم مِن تلك المواعيدِ، ولم يَفِ لهم بشيءٍ منها

ثالثًا :أوضَحَ لهم أنَّهم قَبِلوا قولَه بما لا يوجِبُ القَبولَ، ولا ينفَقُ على عقْلِ عاقلٍ؛ لعدَمِ الحُجَّةِ الَّتي لا بدَّ للعاقلِ منها في قَبولِ غيرِه

رابعًا :أوضَحَ لهم أنَّه لم يكُنْ منه إلَّا مُجرَّدُ الدَّعوةِ العاطِلةِ عنِ البُرهانِ، الخاليةِ مِن أيسَرِ شيءٍ ممَّا يتمسَّكُ به العُقلاءُ .

خامسًا :ثمَّ نعَى عليهم ما وقَعوا فيه، ودفَعَ لومَهم له، وأمَرَهم بأنْ يلوموا أنفُسَهم؛ لأنَّهم هم الَّذين قَبِلوا الباطلَ البحْتَ، الَّذي لا يلتَبِسُ بُطلانُه على مَن له أدنى مُسْكَةٍ مِن عقْلٍ

سادسًا :أوضَحَ لهم أنَّه لا نصْرَ عندَه ولا إغاثةَ، ولا يستطيعُ لهم نفعًا، ولا يدفَعُ عنهم ضرًّا، بل هو مِثْلُهم في الوُقوعِ في البليَّةِ والعجْزِ عنِ الخُلوصِ مِن هذه المِحنةِ

سابعًا :ثمَّ صرَّحَ لهم بأنَّه قد كفَرَ بما اعتَقَدوه وأثبَتوه له، فتضاعَفَت عليهمُ الحَسراتُ، وتوالَتْ عليهمُ المَصائبُ. وإذا كانت جُملةُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مِن تتمَّةِ كلامِه– كما ذهَبَ إليه بعضُ المُفسِّرينَ– فهو نوعٌ ثامِنٌ مِن كلامِه الَّذي خاطَبَهم به .

[الأنبياء: ٨]

قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨)﴾

وهذا الرّدُّ تتمة للردِّ على قولهم: هل هذا إلا بشر مثلكم.

{وَمَا جَعَلْنَاهُمْ}: ما النّافية، جعلناهم: أيْ: هؤلاء الرّسل إلا رجالاً نوحي إليهم، ولم نجعلهم ملائكة لا يأكلون الطعام.

❁ {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ}: أيْ: ما جعلنا الرسل أو الأنبياء ملائكة؛ لأنّ الملائكة لهم أجساد، الجسد= بدن +روح.. ولا يأكلون الطّعام، أمّا الرّسل والأنبياء فهم بشر يأكلون ويشربون، والبشر= بدن+ روح+ نفس.

❁ {وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ}: أي: الرسل. ما: تكرارها يفيد توكيد النّفي، وما كانوا خالدين: لأنّ الخلود ليس من صفة البشر والرّسل، إذن هم ميتون كما جاء في سورة الزّمر الآية (٣٠): {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}

❁ {وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً } أي وما جعلنا الأنبياء ذوي جسد غير طاعمين كالملائكة، بل كانوا أجسادا يأكلون الطعام، وما كانوا مخلّدين باقين في الدنيا، ونظير الآية: {وَقالُوا: مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ} [الفرقان ٢٥] وقوله: {وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ} [الفرقان ٢٥].

❁ وهذا نفي لما اعتقدوا أن من صفات الرسل الترفع عن الحاجة إلى الطعام، فهم كانوا بشرا يأكلون الطعام، ويتصفون بكل الصفات الإنسانية، ويطرأ عليهم الحزن والسرور، والمرض، والنوم واليقظة، والحياة والموت، فلا خلود لهم في الدنيا، كما قال تعالى: {وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ} [الأنبياء ٢١]

❁ لَمَّا بيَّنَ أنَّ النبيَّ ﷺ على سُنَّةِ مَن مضَى مِنَ الرُّسُلِ في كَونِه رَجُلًا؛ بيَّن أنَّه على سُنَّتِهم في جميعِ الأوصافِ التي حكَمَ بها على البَشَرِ مِنَ العَيشِ والمَوتِ، فقال :

❁وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ. أي: وما جعَلْنا الأنبياءَ أجسادًا لا يأكُلونَ الطَّعامَ، بل كانوا بشرًا مِثلَك يأكلونَ الطَّعامَ . كما قال تعالى :وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ

❁ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ. أي: وما كان الأنبياءُ السَّابقونَ خالدينَ في الدُّنيا لا يموتونَ، بل كانوا بشرًا عاشُوا ثمَّ ماتوا، وإنَّما تميَّزوا عن النَّاس بما يأتيهم عن الله سُبحانَه مِن الوحي

❁ في قولِه :وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا وحَّدَ الجسَدَ؛ لإرادةِ الجنْسِ. وقيل: بتَقديرِ المُضافِ، أي: ذَوِي جسَدٍ ، وذِكْرُه يُفِيدُ التَّهكُّمَ بالمُشرِكينَ؛ لأنَّهم لمَّا قالوا :مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ

❁ وسَألوا أنْ يأتِيَ بما أُرْسِلَ به الأوَّلونَ، كان مُقْتضَى أقوالِهم أنَّ الرُّسلَ الأوَّلينَ كانوا في صُوَرِ الآدميِّينَ، لكنَّهم لا يأْكُلون الطَّعامَ –وأكْلُ الطَّعامِ مِن لَوازمِ الحياةِ– فلَزِمَهم لمَّا قالوا :مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ أنْ يَكونوا قائلينَ بأنَّ شأْنَ الرُّسلِ أنْ يكونوا أجسادًا بلا أرواحٍ، وهذا من السَّخافةِ بمَكانةٍ .

❁ قولُه :وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ تأكيدٌ وتَقريرٌ لِمَا قبْلَه؛ فإنَّ التَّعيُّشَ بالطَّعامِ مِن تَوابعِ التَّحليلِ المُؤدِّي إلى الفَناءِ ، وهو زِيادةُ استدلالٍ لتَحقيقِ بشَريَّتِهم؛ استدلالًا بما هو واقعٌ مِن عدَمِ كَفاءةِ أولئك الرُّسلِ كما هو معلومٌ بالمُشاهَدةِ لقطْعِ مَعاذيرِ الضَّالِّينَ، فإنْ زَعَموا أنْ قد كان الرُّسلُ الأوَّلونَ مُخالِفينَ للبشَرِ؛ فماذا يَصْنعون في لَحاقِ الفَناءِ إيَّاهم؟ فهذا وجْهُ زِيادةِ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ .

❁ وأُتِيَ في نفْيِ الخُلودِ عنهم بصِيغَةِ (ما كانوا)؛ تَحقيقًا لِتَمكُّنِ عدَمِ الخُلودِ منهم

❁ وفي إيثارِ(مَا كَانُوا) على (ما جَعَلْناهم) تَنبيهٌ على أنَّ عدَمَ الخُلودِ مُقْتضى جِبِلَّتِهم الَّتي أُشِيرَ إليها بقولِه تعالى :وَمَا جَعَلْنَاهُمْ... ، لا بالجَعْلِ المُستأنَفِ .

[الحج: ٣١]

﴿حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾

حُنَفَاءَ :جمْعُ حَنيفٍ، وهو المُقبلُ على اللهِ، المُعرِضُ عمَّا سِواه، وقيل: الحنيفُ: هو المسلمُ المستقيمُ ، وقيل: المائلُ عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيم، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخَرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ

في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها . خَرَّ :أي: سَقَط على وَجهِه، وأصلُه يدُلُّ على اضطرابٍ وسُقوطٍ مع صَوتٍ

سَحِيقٍ :أي: بَعيدٍ، وأصلُ (سحق): يدُلُّ على بُعدٍ

❁ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. أي: مُستقيمينَ للهِ على إخلاصِ التَّوحيدِ له، وإفرادِ الطَّاعةِ والعبادةِ له، مائلِينَ عن الباطِلِ إلى الحَقِّ، وعن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، مُقبِلينَ على اللهِ، مُعرِضينَ عن عبادةِ ما سِواه سُبحانَه . كما قال تعالى :إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

❁ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ. لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى باجتِنابِ عِبادةِ الأوثانِ وقَولِ الزُّورِ؛ ضَرَب مثلًا للمُشرِكِ، فقال : وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ. لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى باجتِنابِ عِبادةِ الأوثانِ وقَولِ الزُّورِ؛ ضَرَب مثلًا للمُشرِكِ، أي: وَمَن يُشرِكْ بالله شَيئًا في عبادتِه، فمَثَلُه في هلاكِه وضَلالِه عن الهُدى والحَقِّ، وبُعدِه مِن ربِّه؛ كمَن سَقَط مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، فتمَزَّقَ جَسَدُه، فتُقَطِّعُه النُّسورُ سَريعًا، وتَستَلِبُ لَحمَه، فتأكُلُه ويتفَرَّقُ في حواصِلِها .

❁ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ. أي: أو تُلقِي الرِّيحُ أوصالَه المُمَزَّقةَ في مَوضِعٍ بَعيدِ العُمقِ؛ لِشِدَّةِ هُبوبِها

❁ عن البَراءِ بنِ عازبٍ ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال ...وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِنَ السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوُجوهِ، معهم المُسوحُ ، فيَجلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتى يجلِسَ عندَ رأسِه، فيقولُ: أيَّتُها النَّفسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، فتفَرَّقُ في جَسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِن الصُّوفِ المَبلولِ ! فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتى يجعَلوها في تِلكَ المُسوحِ، ويَخرُجُ منها كأنتَنِ رِيحِ جيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ! فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على ملأٍ مِنَ المَلائِكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخَبيثُ؟! فيقولونَ: فلانُ بنُ فُلانٍ، بأقبَحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في

الدُّنيا، حتى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رَسولُ الله ﷺ :لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ فيقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: اكتُبُوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلَى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرحًا، ثمَّ قرأ :وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ..الحديثَ

❁ أساسُ الطَّريقِ إلى الله هو الصِّدقُ والإخلاصُ، وقد جمَعَ اللهُ بينهما في قَولِه تعالى :وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ، ونُصوصُ الكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعُ الأمَّةِ

❁ قال الله تعالى :وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ فالإيمانُ بمَنزِلةِ السَّماءِ؛ مَحفوظةً مَرفوعةً، ومَن تَرَك الإيمانَ بمَنزِلةِ السَّاقِطِ مِنَ السَّماءِ عُرْضةٌ للآفاتِ والبَلِيَّاتِ، فإمَّا أن تَخطَفَه الطَّيرُ فتُقَطِّعَه أعضاءً، أوْ تَهويَ به الرِّيحُ في مَكانٍ بَعيدٍ، كذلك المُشرِكُ؛ إذا تَرَك الاعتِصامَ بالإيمانِ تخَطَّفَتْه الشَّياطينُ مِن كُلِّ جانبٍ ومَزَّقوه، وأذهبوا عليه دِينَه ودُنياه

❁وقيل: شَبَّهَ الإيمانَ بالسَّماءِ؛ لعُلُوِّه، والإشراكَ بالسُّقوطِ منها؛ فالمُشرِكُ ساقِطٌ مِن أَوْجِ الإيمانِ إلى حَضيضِ الكُفْرِ، وهذا السُّقوطُ إنْ كان في حَقِّ المُرتَدِّ فظاهِرٌ، وهو في حَقِّ غيرِه باعتبارِ الفطرةِ؛ فتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ؛ فإنَّ الأهواءَ المُرْدِيةَ تُوَزِّعُ أفكارَه، وفي ذلك تَشبيهُ الأفكارِ المُوَزَّعةِ بخَطْفِ جَوارحِ الطَّيرِ .

❁ وقولُه :أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ (أو) للتَّخييرِ في نَتيجةِ التَّشبيهِ، أو للتَّنويعِ؛ أشارتِ الآيةُ إلى أنَّ الكافرينَ قِسمانِ: قِسْمٌ شِرْكُه ذَبْذبةٌ وشَكٌّ؛ فهذا مُشبَّهٌ بمَن اختطَفَتْه الطَّيرُ، فلا يَستولي طائرٌ على مُزْعةٍ منه إلَّا انتهَبَها منه آخَرُ، فكذلك المُذَبذَبُ؛ متى لاحَ له خَيالٌ اتَّبَعَه وترَكَ ما كان عليه.

وقِسْمٌ مُصمِّمٌ على الكُفْرِ، مُستقِرٌّ فيه، فهو مُشبَّهٌ بمَن ألْقَتْه الرِّيحُ في وادٍ سَحيقٍ، وهو إيماءٌ إلى أنَّ مِن المُشركينَ مَن شِرْكُه لا يُرْجَى منه خلاصٌ، كالَّذي تخَطَّفَتْه الطَّيرُ، ومنهم مَن شِرْكُه قد يَخلُصُ منه بالتَّوبةِ، إلَّا أنَّ تَوبَتَه أمْرٌ بَعيدٌ عسيرُ الحُصولِ؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ تمثيليٌّ

❁ قولُه :وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ يَجوزُ في هذا التَّشبيهِ أنْ يكونَ مِن المُركَّبِ والمُفرَّقِ؛ فإنَّ كان تَشبيهًا مُركَّبًا، فكأنَّه قال: مَن أشرَكَ باللهِ فقد أهلَكَ نفْسَه إهلاكًا ليس بعْدَه نِهايةٌ؛ فيكونُ قد شَبَّهَ مَن أشرَكَ باللهِ وعبَدَ معه غيرَه برجُلٍ قد تَسبَّبَ إلى هَلاكِ نَفْسِه هَلاكًا لا يُرْجى معه نَجاةٌ، بأنْ صَوَّرَ حالَهُ بصُورةِ حالِ مَن خَرَّ مِن السَّماءِ، فاختطَفَتْهُ الطَّيْرُ، فتَفرَّقَ مُزَعًا في حواصِلِها، أو عصَفَتْ به الرِّيحُ حتَّى هوَتْ به في بعضِ المطارِحِ البعيدةِ، وعلى هذا لا تَنظُرُ إلى كلِّ فَرْدٍ من أفرادِ المُشبَّهِ ومُقابِلِه مِن المُشبَّهِ به.

❁ وإنْ كان مُفرَّقًا: فقد شَبَّهَ الإيمانَ في عُلُوِّه بالسَّماءِ، والَّذي ترَكَ الإيمانَ وأشرَكَ باللهِ بالسَّاقطِ مِن السَّماءِ، والأهواءَ الَّتي تتوزَّعُ أفكارَهُ بالطَّيرِ المُختطِفةِ، والشَّيطانَ الَّذي يُطوِّحُ به في وادي الضَّلالةِ بالرِّيحِ الَّتي تَهْوي بما عصَفَتْ به في بعْضِ المهاوي المُتلِفَةِ؛ فيُقابَلُ كلُّ واحدٍ مِن أجزاءِ المُمثَّلِ بالمُمثَّلِ به، وعلى هذا فيكونُ قد شَبَّهَ الإيمانَ والتَّوحيدَ في عُلُوِّه وسَعَتِه وشَرَفِه بالسَّماءِ الَّتي هي مصْعَدُه ومَهْبَطُه؛ فمنها هبَطَ إلى الأرضِ، وإليها يَصعَدُ منها، وشَبَّهَ تارِكَ الإيمانِ والتَّوحيدِ بالسَّاقطِ مِن السَّماءِ إلى أسفَلِ سافِلِينَ، مِن حيثُ التَّضييقُ الشَّديدُ والآلامُ المُتراكِمةُ، والطَّيرُ الَّتي تتَخطَّفُ أعضاءَهُ وتُمزِّقُه كلَّ مُمزَّقٍ، هي الشَّياطينُ الَّتي يُرسِلُها اللهُ سُبحانَه وتعالى عليه وتؤزُّهُ أزًّا، وتُزعِجُه وتَدفَعُه إلى مَظانِّ هَلاكِه؛ فكلُّ شَيطانٍ له مُزْعَةٌ مِن دِينِه وقَلْبِه، كما أنَّ لكلِّ طَيرٍ مُزْعةً مِن لَحمِه وأعضائِه، والرِّيحُ الَّتي تَهْوي به في مَكانٍ سَحيقٍ هو هواهُ الَّذي حَمَلَهُ على إلْقاءِ نَفْسِه في أسفَلِ مَكانٍ وأبعَدِه مِن السَّماءِ

[الحج: ٧٨]

﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾

وَاعْتَصِمُوا :أي: استَمسِكوا وامتنِعوا، وأصلُ العَصْمِ: المنعُ، فكلُّ مانعٍ شيئًا فهو عاصِمُه، والمُمتنِعُ به مُعتصِمٌ به، يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: مَنعَه مِن الجوعِ، وأصلُ (عصم) أيضًا: يَدُلُّ على إمساكٍ ومُلازمةٍ، والمعنَى في ذلك كُلِّه معنًى واحِدٌ .

❁ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ. أي: وثِقُوا بالله وتوَكَّلوا عليه في جَميعِ أمورِكم، واعمَلوا بوَحْيِه وتمَسَّكوا به؛ لأنَّه وليُّكم وحافِظُكم، ومُدَبِّرُ أمورِكم، وناصِرُكم على أعدائِكم كما قال تعالى :وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وقال سُبحانَه :وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ

❁ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ. أي: فنِعْم المَولى هو سُبْحانَه، ونِعْمَ النَّاصِرُ . فمتى اعتصَمْتُم به سُبحانَه تولَّاكم ونصَرَكم على أنفُسِكم وعلى الشَّيطانِ، وهما العدوَّانِ اللَّذانِ لا يُفارِقانِ العبدَ، وعداوتُهما أضَرُّ مِن عَداوةِ العَدُوِّ الخارجِ؛ فالنَّصرُ على هذا العدوِّ أهمُّ، والعَبدُ إليه أحوَجُ، وكمالُ النُّصرةِ على العَدُوِّ بحَسَبِ كَمالِ الاعتصامِ بالله .

❁ قال الله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ، والاعتِصامُ به نوعانِ: اعتِصامُ توكُّلٍ واستعانةٍ، وتَفويضٍ ولَجأٍ وعِياذٍ، وإسلامُ النَّفْسِ إليه، والاستِسلامُ له سُبحانَه. والثاني: اعتِصامٌ بوَحْيِه، وهو تحكيمُه دونَ آراءِ الرِّجالِ ومقاييسِهم ومَعقولاتِهم، وأذواقِهم وكُشوفاتِهم ومَواجيدِهم، فمَن لم يكُنْ كذلك فهو مُنسَلٌّ مِن هذا الاعتصامِ؛ فالدِّينُ كُلُّه في الاعتصامِ به وبحَبلِه؛ عِلمًا وعمَلًا، وإخلاصًا واستِعانةً، ومُتابعةً واستِمرارًا على ذلك إلى يومِ القيامةِ .

❁ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ جُملةُ :هُوَ مَوْلَاكُمْ مُستأْنفةٌ مُعلِّلةٌ للأمْرِ بالاعتصامِ بالله، وفُرِّعَ عليها إنشاءُ الثَّناءِ على الله بأنَّه (نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)، أي: نِعْمَ المُدبِّرُ لِشُؤونِكم، ونِعْمَ النَّاصِرُ لكم. والنَّصِيرُ مُبالَغةٌ في النَّصرِ؛ أي: نِعْمَ المولى لكم، ونِعْمَ النَّصيرُ لكم، وهذا الإنشاءُ يَتضمَّنُ تَحقيقَ حُسْنِ ولايةِ الله تعالى وحُسْنِ نَصْرِه، وبذلك الاعتبارِ حَسُنَ تَفريعُه على الأمْرِ بالاعتصامِ به، وهذا مِن بَراعةِ الخِتامِ .

[القصص: ٥٠]

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾

❁ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ. أي: فإنْ لم يأتِ الزَّاعِمونَ أنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحرانِ بكتابٍ أهدَى منهما، ويتَّبِعوا الحَقَّ؛ فاعلَمْ -يا مُحَمَّدُ- أنَّهم يُؤْثِرونَ أهواءَهم وما تستَحسِنُه نفوسُهم ويُحَبِّبُه لهم الشَّيطانُ، ولا يتَّبِعونَ الحَقَّ، ولا حُجَّةَ لهم على ما يَزعُمونَ مِن الكَذِبِ والباطِلِ .

❁ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ . أي: ولا أحَدَ أضَلُّ عن الحَقِّ مِمَّن اتَّبَع هوى نفْسِه، وتَرَك الهُدى بغيرِ بَيانٍ وحُجَّةٍ مِن عندِ الله

❁ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ والهُدى القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم وغيرَهم، وصار ذلك وَصفًا لازِمًا لهم، ومِن جُملةِ ذلك الانهِماكُ في مُتابعةِ الهوى .

كما قال تعالى :وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ

فوائد

❁ عدمُ مجادَلةِ المتَّبِعِ هواه المُكابِرِ؛ فليس هناك سبيلٌ لإقناعِه، فهو يريدُ أنْ يَنتصِرَ لنفْسِه فقط، ويَتَّبِعَ هواه! فما دام الرَّجُلُ صاحِبَ هوًى، فالجِدالُ معه لا فائدةَ منه؛ قال تعالى :فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ .

❁ ليس لأحدٍ أن يعمَلَ في الدِّينِ إلَّا ما شرَعَه اللهُ ورسولُه، دونَ ما يشتهيه ويَهْواه؛ قال الله تعالى :وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ

❁ جعَلَ سُبحانَه وتعالى المتَّبَعَ قِسْمَينِ لا ثالثَ لهما؛ إمَّا ما جاءَ به الرسولُ، وإمَّا الهوَى، فمَنِ اتَّبَع أحدَهما لم يُمكِنْه اتِّباعُ الآخَرِ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى جعَلَ الهوَى مُضادًّا لِما أنزَلَه على رَسولِه، وجعَلَ اتِّباعَه مُقابِلًا لِمُتابَعةِ رُسُلِه، وقَسَّم النَّاسَ إلى قِسمَينِ: أتْباعِ الوَحيِ، وأتْباعِ الهوى، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ .

❁ جميعُ المعاصي إنَّما تنشأُ مِن تَقديمِ هوى النُّفوسِ على مَحَبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وقد وصَف اللهُ المُشرِكينَ باتِّباعِ الهوى في مواضِعَ مِن كِتابِه؛ وكذلك البِدَعُ إنَّما تنشأُ مِن تقديمِ الهوَى على الشَّرعِ؛ ولهذا يُسمَّى أهلُها أهلَ الأهواءِ .

❁ اتِّباعُ الأهواءِ في الدِّياناتِ أعظَمُ مِن اتِّباعِ الأهواءِ في الشَّهواتِ؛ فإنَّ الأوَّلَ حالُ الَّذين كفَروا مِن أهلِ الكِتابِ والمُشركينَ، كما قال الله تعالى :فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ... وقالَ تعالَى :وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ]البقرة ، ولهذا كان مَن خرَج عن موجَبِ الكِتابِ والسُّنَّةِ مِن العُلَماءِ والعبَّادِ يُجعلُ مِن أهلِ الأهواءِ، كما كان السَّلَفُ يُسَمُّونَهم أهلَ الأهواءِ؛ وذلك أنَّ كُلَّ من لم يتَّبِعِ العِلمَ فقد اتَّبَع هواه، والعِلمُ بالدِّينِ لا يكونُ إلَّا بهُدَى الله الَّذي بعَثَ به رَسولَه؛ ولهذا قال تعالى في مَوضِعٍ :وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ] وقال في موضِعٍ آخَرَ :وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ

❁في قَولِه تعالى :فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ... دَليلٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يَستجِبْ للرَّسولِ، وذَهَب إلى قَولٍ مُخالِفٍ لِقَولِ الرَّسولِ؛ فإنَّه لم يَذهَبْ إلى هدًى، وإنَّما ذَهَبَ إلى هوًى .

❁ اختِلافُ النَّاسِ في الضَّلالِ والهدى وتفاوتُهم فيهما؛ فليسوا على حَدٍّ سَواءٍ في الضَّلالِ، كما أنَّهم ليسُوا على حَدٍّ سَواءٍ في الهُدى؛ ولهذا قال تعالى :وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ

❁ في قَولِه تعالى :وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ دَليلٌ على أنَّ الهوى قد يكونُ في الحَقِّ أيضًا إذا كان فيه هُدًى مِن الله .

❁ أصْلُ الهوى محبَّةُ النَّفْسِ، ويَتبَعُ ذلك بُغضُها؛ ونَفْسُ الهوى -وهو الحُبُّ والبُغضُ الَّذي في النَّفْسِ- لا يُلامُ عليه المرءُ؛ فإنَّ ذلك قد لا يُملَكُ، وإنَّما يُلامُ على اتِّباعِه، كما قال تعالى :وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ، وقال تعالى :يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

❁ في قولِه تعالى :إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أنَّ الظُّلمَ سببٌ لحرمانِ الظَّالِمِ مِن الهُدى .

❁ في قَولِه تعالى :إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ردٌّ على القَدَريَّةِ الذين يُنكِرونَ قَدَرَ الله بالنِّسبةِ للأفعالِ، فيَرَون أنَّ الإنسانَ يُمكِنُ أن يهتديَ بنَفْسِه، وليس لله تبارك وتعالى عليه أيُّ سُلطةٍ !

❁ في قَولِه تعالى :إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ردٌّ على الجَبْريةِ الجَهْميَّةِ –الذين يقولون بعَكسِ القَدَريَّةِ– يقولون بأنَّ اللهَ تعالى نَسَبَ هؤلاء بفِعلِهم إلى الظُّلْمِ، ولو كانوا مُجبَرينَ عليه لكانت نِسبةُ الظُّلمِ إليهم ظُلمًا، واللهُ تبارك وتعالى لا يَظْلِمُ أحدًا

❁ قولُه :بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهَّ تقييدُ اتِّباعِ الهوَى بعدَمِ الهُدى مِنَ الله تعالى؛ لزيادةِ التَّقريعِ، والإشباعِ في التَّشنيعِ والتَّضليلِ، وإلَّا فمُقارَنتُه لِهدايتِه تعالى بَيِّنةُ الاستِحالةِ. وقيل: هذا الحالُ قَيْدٌ في اتِّباعِ الهوَى؛ لأنَّه قد يَتَّبِعُ الإنسانُ ما يَهْواهُ ويَكونُ ذلك الَّذي يَهْواهُ فيه هُدًى مِنَ الله؛ لأنَّ الأهواءَ كلَّها تَنقسِمُ إلى ما يَكونُ فيه هُدًى، وما لا يَكونُ فيه هُدًى؛ فلذلك قُيِّد بهذه الحالِ

[القصص: ٧٧]

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُّ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾

❁ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُّ الدَّارَ الْآخِرَةَ. أي: واطلُبْ –يا قارونُ– ثوابَ الآخرةِ ونَعيمَها بما آتاك اللهُ مِنَ الدُّنيا، ووهَبَك مِن أموالِها، فاستَعْمِلْه في طاعةِ الله والتَّقرُّبِ إليه، والإنفاقِ في أوجُهِ الخَيرِ

❁ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا. أي: لا تَترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخِرتِك .

❁ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُّ إِلَيْكَ. أي: وأحسِنْ –يا قارونُ– في عبادةِ الله وإلى خَلْقِ الله، كما أحسَنَ اللهُ إليك بالرِّزقِ الواسِعِ كما قال تعالى :هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ

❁ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ لَمَّا كانتِ النَّفْسُ مِن شأنِها –إنْ لم تُزَمَّ بزِمامِ الشَّرعِ– الإسرافُ والإجحافُ، قالوا : وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ. أي: ولا تَطلُبْ –يا قارونُ– الفسادَ في الأرضِ بالمعاصي والبَغيِ والتكبُّرِ .

❁ إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدينَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، والبَغيِ

والظُّلمِ

فوائد

❁ مِن حُسْنِ الدَّعوةِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى أنَّه إذا ذُكِرَ الحُكمُ تُذكَرُ العِلَّةُ؛ تخويفًا أو تَرغيبًا، إنْ كان مَنصوحًا بطلَبٍ تُذكَرُ العِلَّةُ ترغيبًا، وإنْ كان منصوحًا بنَهيٍ فإنَّها تُذكَرُ تخويفًا، كما في قَولِه تعالى :لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وقولِه :وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فينبغي للدَّاعي أنْ يُذَكِّرَ المدعُوَّ بنِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ الإنسانَ إذا ذُكِّرَ بالنِّعمةِ فقد يَخْجَلُ مِن اللهِ فلا يَعْصيه، أمَّا إذا ذُكِرَ له الأمرُ والنَّهيُ مجرَّدًا عن الأسبابِ والوسائلِ الَّتي تحمِلُه على الفِعلِ أو التَّركِ؛ فإنَّ هذه الدَّعوةَ تكون قاصِرةً؛ فالَّذي ينبغي للدَّاعي أنْ يُذَكِّرَ المرءَ المَدْعُوَّ بما يقتضي إقبالَه وقبوله

❁ في قَولِه تعالى :وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ أنَّه ينبغي لِمَن آتاه اللهُ مالًا أنْ يُحسِنَ النِّيَّةَ والقَصدَ في بَذْلِه، وقد أشار إلى ذلك النَّبيُّ ﷺ حينَ قال لسعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ : إنَّك لن تُنفِقَ نَفَقةً تَبتَغي بها وَجْهَ اللهِ إلَّا أُجِرْتَ عليها، حتَّى ما تَجعَلُ في فِي امرأتِك ، فقد قيَّدَها بقَولِه :تبتغي بها وَجْهَ اللهِ .

❁ قال الله تعالى : وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا في قَولِه :نَصِيبَكَ إضافةُ النَّصيبِ إلى ضَميرِه؛ ففيه دَلالةٌ على أنَّه حَقُّه، وأنَّ للمَرءِ الانتِفاعَ بمالِه فيما يُلائِمُه في الدُّنيا خاصَّةً ممَّا ليس مِن القُرُباتِ، ولم يكُنْ حَرامًا .وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

❁ قولُه تعالى :وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فيه تحريمُ نِيَّةِ الفَسادِ في الأرضِ؛ وإذا حُرِّمَتْ نِيَّةُ الفَسادِ، فالفسادُ نَفْسُه مِن بابٍ أولَى .

❁كُلُّ مَن عصى اللهَ فقد طلَبَ الفَسادَ في الأرضِ؛ قال تعالى :وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ أي: بالمعصيةِ

{وَابْتَغِ}: اقصد، اطلب.

{فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ}: أنفق وتصدق في سبيل الله مما أنعم الله عليك من المال والخير

الكثير، وتقرب إليه بذلك وبالشّكر، فابتغ بها ما عند الله من الثّواب والأجر والحسنى، وابتغ الحلال في كلّ الأمور، وتجنب الحرام مثل التّبذير والإسراف والبطر والمن.

{وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}: استمتع بالحلال بما أنعمنا عليك وبما يرضاه الله فنحن لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك فكل واشرب والبس واسكن واركب وعلى الموسع قَدَرُه. أو المعنى: اعمل لآخرتك؛ لأنّ الدّنيا مزرعة للآخرة ونصيبك في الآخرة ما عملته في الدّنيا من الأعمال الصّالحة أي: الحسنات، وقيل: لا تنسَ أن نصيبك من الدّنيا هو الكفن الّذي تخرج به، أو ما تأخذه إلى القبر، هذا هو نصيبك... إذن نصيبك من الدّنيا ما تتمتع به من الحلال، أو ما فعلته من الحسنات.

{وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ}: أحسن إلى عباد الله بالصدقة والزّكاة ومساعدة الفقير وإغاثة الملهوف، أنفق مما جعلك الله مستخلفاً فيه.

{وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ}: الفساد هنا يعني: إمساك حق الفقراء من الزّكاة والصدقة؛ مما قد يؤدّي إلى السرقة بسبب الجوع والفقر والجريمة، وبالتالي نشر الفساد، والظلم كذلك يعني: الفساد والبغي.

{إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}: إن للتوكيد، الله لا يحب: لا النّافية، المفسدين: جمع مفسد، وهو الّذي يعمد إلى ما خلق الله تعالى فيحدث فيه تغييراً ليفسده، وأما إذا غيّره ليُحدث فيه إصلاحاً فلا مانع أو يتركه على حاله كما خلقه الله تعالى.

[القصص: ٨٨]

قال تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهَّ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾

❋ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهَّ إِلَهًا آخَرَ. أي: ولا تَعبُدْ –يا مُحَمَّدُ– مع اللهِ مَعبودًا غَيْرَه، وأخلِصْ عِبادتَك للهِ وَحْدَه

❋ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وَحْدَه، وكُلُّ مَعبودٍ سِواه فهو باطِلٌ .

❁ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ. أي: كلُّ شيءٍ فانٍ إلَّا ذاتَ الله تعالى، وكُلُّ عَمَلٍ باطلٌ إلَّا ما أُريدَ به وَجْهُه . كما قال تعالى :كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ]

❁ وعن أبي هُريرةَ ﷺ ، قال: قال النَّبيُّ ﷺ : أصدَقُ كَلِمةٍ قالها الشَّاعِرُ كَلِمةُ لَبِيدٍ: ألَا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطِلٌ .

❁ وعن أبي هُريرةَ ﷺ ، قال: قال رَسولُ الله ﷺ قال اللهُ تبارك وتعالى: أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ، مَن عَمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غَيري ترَكتُه وشِرْكَه .

❁لَهُ الْحُكْمُ. أي: لله وَحْدَه الحُكمُ بينَ عِبادِه في الدُّنيا والآخرةِ .

كما قال تعالى :إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِّ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ]الأنعام:

❁ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أي: وإلى الله وَحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازي كُلًّا مِنكم بعَمَلِه .كما قال تعالى :إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ]

فوائد

❁ قوله تعالى :لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هذا النفيُ لا يَتعارضُ مع ما قَبْلَه وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِّ إِلَهًا آخَرَ !لأنَّ ما قَبْلَه باعتبارِ أنَّه إلهٌ باطلٌ، والثاني باعتبارِ أنَّه إلهٌ حقٌّ؛ فلا إلهَ حقٌّ إلَّا اللهُ

❁ في قَولِه تعالى :كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ أنَّ اللهَ تعالى شَيءٌ، لأنَّه استثنَى مِن قولِه :كُلُّ شَيْءٍ استثناءً يُخرِجُ ما لولاه لوَجَبَ أو لَصَحَّ دخولُه تحتَ اللَّفظِ؛ فوَجَبَ كونُه شيئًا، يؤكِّدُه ما في سورةِ الأنعامِ، وهو قولُه :قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُّ الأنعام: ١٩ ، فيصحُّ إطلاقُ لفظةِ (شيء) على الله ﷻ أو على صفةٍ مِن صفاتِه، لكن لا يقالُ: (الشيء) اسمٌ مِن أسمائِه تعالى

❁ خُلِقت الجَنَّةُ وما فيها، وخُلِقَت النَّارُ وما فيها؛ خلَقَهما اللهُ عَزَّ وجَلَّ وخَلَقَ الخَلْقَ لهما، ولا يَفْنَيانِ ولا يفنى فيهما ما فيهما أبدًا، فإذا احتجَّ مُبتَدِعٌ أو زِنديقٌ بقَولِ الله عَزَّ وجَلَّ :كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ وبنَحوِ هذا مِن مُتشابِهِ القُرآنِ، قيل له: كُلُّ شَيءٍ مِمَّا كَتَبَ اللهُ عليه الفَناءَ والهلاكَ هالِكٌ، والجَنَّةُ والنَّارُ خَلَقَهما اللهُ للبَقاءِ لا للفَناءِ ولا للهَلاكِ، وهما مِنَ الآخرةِ لا مِنَ الدُّنيا .

❁ في قَولِه تعالى :كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ إثباتُ صِفةِ الوَجهِ لله عزَّ وجَلَّ، وهو ثابتٌ بالقُرآنِ

والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلَفِ

❁ قولُه تعالَى :وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هذا النَّهْيُ مُوَجَّهٌ إلى النبيِّ ﷺ في الظاهِرِ، والمَقصودُ به إبطالُ الشِّرْكِ وإظهارُ ضَلالِ أهلِه؛ إذْ يَزْعُمون أنهم مُعترِفونَ بإلهيَّةِ الله تعالَى، وأنَّهم إنما اتَّخَذوا له شُركاءَ وشُفعاءَ؛ فبَيَّنَ لهم أنَّ اللهَ لا إلَهَ غيرُه، وأنَّ انفِرادَه بالإلهيَّة في نفْسِ الأمرِ يَقضي ببُطلانِ الإشْراكِ في الاعتقادِ ولو أَضْعَفَ إشراكٍ؛ فجُملةُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ في مَعنى العِلَّةِ للنَّهْيِ الذي في الجُملةِ قَبْلَها

❁ وجملةُ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ علَّةٌ ثانيةٌ للنَّهْيِ؛ لأنَّ هَلاكَ الأشياءِ التي منها الأصنامُ وكلُّ ما عُبِدَ مع الله وأُشْرِكَ به، دَليلٌ على انتفاءِ الإلهيَّةِ عنها؛ لأنَّ الإلهيَّةَ تُنافي الهلاكَ، وهو العدَمُ .

❁ وجملةُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ تَذْييلٌ؛ فلذلكَ كانتْ مَفْصُولةً عمَّا قبْلَها، أي: لم تُعطَفْ عليها. وتقديمُ المجرورِ باللَّامِ لَهُ لإفادةِ الحَصرِ، والمَحْصورُ فيه هو الحُكمُ الأتَمُّ، أي: الذي لا يَرُدُّه رادٌّ .

❁ قولُه :وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فيه تقديمُ المجرورِ بـ(إلى) للاهتِمامِ بالخبَرِ؛ لأنَّ المشركينَ نَفوا الرُّجوعَ مِن أصلِه، ولم يَقولوا بالشَّركةِ في ذلكَ حتَّى يكونَ التَّقديمُ للتَّخْصيصِ

❁ والمَقصودُ مِن تَعدُّدِ هذه الجُملةِ إثباتُ أنَّ اللهَ مُنفَرِدٌ بالإلهيَّةِ في ذاتِه، وهو مدَلْولُ جُملةِ :لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، وذلك أيضًا يدُلُّ على صِفةِ الأوليَّةِ، وأنَّه الأوَّلُ الَّذي ليس قبْلَه شَيءٌ؛ لأنه لَمَّا انْتَفَى جِنْسُ الإلهيَّةِ عن غيرِه تعالَى؛ تَعيَّنَ أنَّه لم يُوجِدْه غيرُه؛ فثبَت أنَّ اللهَ تعالى قبْلَ كلِّ شَيءٍ، وأنَّه باقٍ لا يَعْتَرِيهِ العدَمُ، وذلك مَدْلولُ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، وأنَّه تعالَى مُنفَرِدٌ في أفعالِه بالتصرُّفِ المُطلَقِ الذي لا يَرُدُّه غيرُه، فيَتَضَمَّنُ ذلك إثباتَ الإرادةِ والقدرةِ. وفي كلِّ هذا رَدٌّ على المشركينَ الَّذين جَوَّزُوا شَرِكتَهُ في الإلهيَّةِ، وأَشْرَكوا معه آلهتَهم في التصرُّفِ بالشفاعةِ والغَوْثِ، ثمَّ أَبْطَلَ إنكارَهمُ البعثَ بقولِه :وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

❁ {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ}: كلّ شيء للتوكيد، شيء نكرة تشمل كلَّ شيء وجنس على الأرض.

{هَالِكٌ}: ميِّت، والهلاك ليس بالضّرورة عقوبة، ويشمل الإنس والجن والنّبات والحيوان.

ويعني هالك كانت له حياة تناسبه، فكل شيء له حياة خاصة به، هالك أيْ: فانٍ أو ميِّت

[العنكبوت: ٤٥]

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾

❁ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ أي: اقرَأْ -يا مُحَمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن هذا القُرآنِ بتدَبُّرٍ، واتَّبِعْه واعمَلْ به، وأبلِغْه للنَّاسِ .كما قال تعالى :وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ وقال سُبحانَه :وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ

❁ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ . أي: وأَدِّ -يا مُحَمَّدُ- الصَّلَواتِ تامَّةً بشُروطِها وأركانِها وواجباتِها

❁ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. أي: إنَّ الصَّلاةَ المُقامةَ بحُدودِها وخُشوعِها مِن شأنِها أن تَدعُوَ صاحِبَها إلى اجتِنابِ الوُقوعِ في الفَحشاءِ والمُنكَرِ

❁ عن أبي هُرَيرةَ ﷺ. ، قال : جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: إنَّ فُلانًا يُصَلِّي باللَّيلِ، فإذا أصبحَ سَرَق! قال: إنَّه سيَنْهاهُ ما تَقولُ.

❁ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ أي: وما في الصَّلاةِ مِن ذِكرِ الله أكبَرُ مِن كَونِها تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ .

❁ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ. لَمَّا ذَكَر الله تعالى أمرينِ، وهما تلاوةُ الكتابِ، وإقامةُ الصَّلاةِ؛ بَيَّن ما يُوجِبُ أنْ يكونَ الإتيانُ بهما على أبلغِ وُجوهِ التَّعظيمِ فقال :وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ فيَنْبَغي أنْ يكونَ على أبلغِ وُجوهِ التَّعظيمِ، وأمَّا الصَّلاةُ فكذلك؛ لأنَّ اللهَ يعلمُ ما تَصنعونَ . أي: واللهُ يَعلَمُ ما تَصنَعونَه -أيُّها النَّاسُ- وسيُجازيكم عليه

فوائد

❁ قَولُ الله تعالى :إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ فيه أنَّ الصَّلاةَ مِن شَأنِها أنَّها إذا أُدِّيَت على ما يجِبُ مِن فُروضِها وسُنَنِها والخُشوعِ فيها، والتدَبُّرِ لِما يتلو فيها، وتقديرِ المُثولِ بيْنَ يَدَي الله تعالى أن تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ ، ووجهُ كَونِ الصَّلاةِ تَنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ: أنَّ العَبدَ المُقيمَ لها، المتمِّمَ لأركانِها وشُروطِها وخُشوعِها: يَستنيرُ قَلبُه، ويتطَهَّرُ فؤادُه، ويَزدادُ إيمانُه،

وتَقوى رغبتُه في الخيرِ، وتَقِلُّ أو تَعدَمُ رَغبتُه في الشَّرِّ؛ فبالضَّرورةِ مُداومتُها والمحافظةُ عليها على هذا الوَجهِ تَنهى عن الفَحشاءِ والمُنكرِ، فهذا مِن أعظَمِ مَقاصِدِها وثَمَراتِها .

❁ في قَولِه تعالى :اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وُجوبُ تلاوةِ القرآنِ على الوُجوهِ الثَّلاثةِ: تِلاوةِ اللَّفظِ، والمعنى، والاتِّباعِ .

❁ قال الله تعالى :وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ إن قيلَ: كم مِن مُصَلٍّ يَرتَكِبُ الفَحشاءَ والمُنكَرَ ولا تَنْهاه صلاتُه؟

فالجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ :أنَّ الصَّلاةَ الَّتي تَنهى عن الفَحشاءِ والمُنكرِ هي الصَّلاةُ المُقامةُ الَّتي أقامَها الإنسانُ على الوجهِ الَّذي ينبغي .

الوجهُ الثَّاني :أنَّ مَن كان مُراعيًا للصَّلاةِ جَرَّه ذلك إلى أن يَنتهيَ عن السَّيِّئاتِ يومًا ما، وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ المُراعيَ للصَّلاةِ لا بدَّ أن يكونَ أبعَدَ مِنَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ مِمَّن لا يُراعيها.

الوجهُ الثَّالثُ :أنَّه كم مِن مُصَلِّينَ تَنهاهم الصَّلاةُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، واللَّفظُ لا يَقتضي ألَّا يَخرُجَ واحِدٌ مِنَ المصَلِّينَ عن قَضيَّتِها، كما تقولُ: (إنَّ زَيدًا ينهَى عن المنكَرِ)، فليس غَرَضُك أنَّه يَنهى عن جميعِ المناكيرِ، وإنَّما تُريدُ أنَّ هذه الخَصلةَ مَوجودةٌ فيه، وحاصِلةٌ منه، مِن غيرِ اقتِضاءٍ للعُمومِ

الوجهُ الرابعُ :أنَّ المقصودَ أنَّ الصَّلاةَ تُيَسِّرُ للمُصلِّي تَرْكَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ، وليس المعنى أنَّ الصَّلاةَ صارِفةٌ المُصَلِّيَ عن أن يَرتكِبَ الفَحشاءَ والمُنكَرَ؛ فإنَّ المُشاهَدَ يُخالِفُه؛ إذ كم مِن مُصَلٍّ يُقيمُ صَلاتَه، ويقتَرِفُ بَعضَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ.

الوجهُ الخامِسُ :أنَّ الصَّلاةَ تَشتَمِلُ على مُذكِّراتٍ باللهِ مِن أقوالٍ وأفعالٍ مِن شأنِها أن تَكونَ للمُصَلِّي كالواعِظِ المُذَكِّرِ باللهِ تعالى؛ إذ يَنهى سامِعَه عن ارتكابِ ما لا يُرضي اللهَ .

❁ في قَولِه تعالى :وَأَقِمِ الصَّلَاةَ سُؤالٌ: أنَّه معلومٌ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يُقيمُ الصَّلاةَ، وأنَّه أقوَمُ المصلِّينَ صَلاةً، فكيف وُجِّهَ إليه الخِطابُ بإقامةِ الصَّلاةِ؟!

الجوابُ: توجيهُ الخِطابِ لِمَن يَتَّصِفُ به: المرادُ به الاستِمرارُ عليه، لا تَجديدُه؛ لأنَّه موجودٌ؛ مِثلُ قَولِه سُبحانَه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فالخِطابُ ليس عَبثًا حتَّى نقولَ: إنَّ هذا أمرٌ بالإيمانِ! لأنَّ الأمرَ بالإيمانِ تحصيلُ الحاصلِ؛ لأنهم مُؤمِنونَ، فالخِطابُ المرادُ منه الاستِمرارُ على الإيمانِ .

❁ في قَولِه تعالى :إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ التَّعبيرُ بالنَّهيِ، وهو أبلغُ مِن التَّعبيرِ بالمنعِ؛ فإنَّ المانعَ قد لا يكونُ مُحَذِّرًا، لكنْ في النَّهيِ تحذيرٌ، وهو أشدُّ مِن المنعِ؛ لأنَّها تُوجِبُ في القَلبِ كراهةً لهذا الشَّيءِ ونفورًا منه، ومجرَّدُ المنعِ لا يقتَضي ذلك؛ فكأنَّ الصَّلاةَ فيها سِرٌّ يقتَضي أنْ يَبعُدَ الإنسانُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، كأنَّها تُؤَنِّبُ ضميرَه: لماذا تَفعَلُ هذا؟! فالصَّلاةُ توجِبُ المنعَ مِن المعاصي .

❁ قال تعالى :إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ إنَّ الصَّلاةَ فيها دَفعُ مَكروهٍ وهو الفَحشاءُ والمُنكَرُ، وفيها تحصيلُ محبوبٍ وهو ذِكرُ اللهِ، وحُصولُ هذا المحبوبِ أكبَرُ مِن دَفعِ ذلك المكروهِ؛ فإنَّ ذِكرَ اللهِ عِبادةٌ للهِ، وعِبادةُ القَلبِ للهِ مقصودةٌ لِذاتِها، وأمَّا اندفاعُ الشَّرِّ عنه فهو مقصودٌ لِغَيرِه على سَبيلِ التَّبَعِ ، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

❁ في قَولِه تعالى :إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وقَولِه :وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ أنَّ الأمورَ الإيجابيَّةَ أكمَلُ مِن الأمورِ السَّلبيةِ؛ لأنَّ ذِكْرَ اللهِ أمرٌ إيجابيٌّ؛ ولهذا قال :وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، والنَّهيَ عنِ الفَحشاءِ والمُنكَرِ أمرٌ سَلبيٌّ؛ ولهذا قال العُلَماءُ: إنَّ الصَّبرَ على طاعةِ اللهِ أكملُ مِن الصبرِ عن مَعصيةِ اللهِ؛ لأنَّه صبْرٌ على فِعلِ مُعاناةٍ ومَشقَّةٍ؛ فالإنسانُ يجاهِدُ نفْسَه بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ مِن وَجهَينِ: مِن جهةِ إلزامِها بها، ومِن جهةِ الصَّبرِ والتَّحمُّلِ لهذه الأفعالِ والأقوالِ .

❁ قَولُ الله تعالى :وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ عبَّرَ بلَفظِ (الصَّنعةِ) الدَّالِّ على مُلازَمةِ العَمَلِ؛ تَنبيهًا على أنَّ إقامةَ ما ذُكِرَ تحتاجُ إلى تمرُّنٍ عليه وتدرُّبٍ؛ حتَّى يَصيرَ طبعًا صَحيحًا، ومَقصودًا صَريحًا

❁ في قَولِه تعالى :وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ إثباتُ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعُمومِ علمِه بقَولِه (ما)، وتَعَلُّقِه بفِعلِ العِبادِ بقَولِه :تَصْنَعُونَ، وفيه رَدٌّ على غُلاةِ القَدَريَّةِ؛ لأنَّهم كانوا قديمًا يُنكِرون تعَلُّقَ

عِلمِ الله بفِعلِ العبدِ، ويقولون: إنَّ الأمرَ أُنُفٌ، أي: مُستأنَفٌ، وأنَّ اللهَ لا يَعلَمُ بأفعالِ العِبَادِ إلَّا إذا عَمِلوها! ولا شكَّ أنَّ هذا كُفرٌ، كما قال الشافعيُّ وغيرُه: «جادِلوهم بالعلمِ، فإنْ أقَرُّوا به خُصِمُوا، وإنْ أنكَروه كَفَروا. »

❁ في قَولِه تعالى :مَا تَصْنَعُونَ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للعبدِ، ونِسبتُها إليه، وفيها أيضًا رَدٌّ على الجَبريَّةِ .

[لقمان ١٧ –١٩]

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾

معاني المفردات

تُصَعِّرْ :أي: تُعْرِضْ بوَجهِك وتتكبَّرْ، والتَّصعيرُ: إمالةُ الخَدِّ عن النَّظَرِ؛ عُجْبًا، وأصلُ (صعر): يدُلُّ على مَيلٍ .

مَرَحًا :أي: اختيالًا وبطرًا وكبرًا وفخرًا، والمَرَحُ: شدَّةُ الفرحِ والتَّوسُّعُ فيه، وأصلُ (مرح): يدلُّ على مَسَرَّةٍ لا يكادُ يستقِرُّ معها المرءُ طَرَبًا .

مُخْتَالٍ :أي: مُتكَبِّرٍ ذي فَخرٍ وخُيَلاءَ، والاختيالُ: مأخوذٌ مِنَ (التَّخَيُّل)، والتخيُّلُ: التَّشبُّهُ بالشَّيءِ، فالمُختالُ يَتخيَّلُ في صورةِ مَن هو أعظَمُ منه؛ كِبْرًا، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حركةٍ في تلَوُّنٍ، والمختالُ في مِشيتِه يتلَوَّنُ في حركتِه ألوانًا .

وَاقْصِدْ :أي: تَواضَعْ واعتَدِلْ، وأصلُ القَصدِ: استِقامةُ الطَّريقِ .

وَاغْضُضْ :أي: أنقِصْ واخْفِضْ، يقالُ: غضَّ منه، إذا نقَص منه، وأصلُ (غضض) هنا: يدُلُّ على كَفٍّ ونقصٍ

❁ لَمَّا نهى لُقمانُ ابنَه أوَّلًا عن الشِّركِ، وأخبَرَه ثانيًا بعِلمِه تعالى وباهِرِ قُدرتِه؛ أمَرَه بما يتوسَّلُ به إلى الله مِن الطَّاعاتِ، فبدأ بأشرَفِها، وهو الصَّلاةُ؛ حيث يَتوجَّهُ إليه بها، ثمَّ بالأمرِ بالمعروفِ

والنَّهيِ عن المنكرِ، ثمَّ بالصَّبرِ على ما يُصيبُه مِنَ المِحَنِ جميعِها، أو على ما يُصيبُه بسَبَبِ الأمرِ بالمعروفِ ممَّن يَبعَثُه عليه، والنَّهيِ عن المنكَرِ ممَّن يُنكِرُه عليه؛ فكثيرًا ما يُؤذَى فاعِلُ ذلك .

وأيضًا انتقَل مِن تعليمِه أصولَ العَقيدةِ إلى تعليمِه أصولَ الأعمالِ الصَّالحةِ، فابتدَأها بإقامةِ الصَّلاةِ .

❁ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ. أي: يا بُنَيَّ، أدِّ الصَّلاةَ تامَّةً مُستقيمةً، كما أمَرَ الله تعالى .

❁ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ. لَمَّا أمَرَ بتكميلِه في نَفْسِه؛ توفيةً لحَقِّ الحَقِّ؛ عَطَف على ذلك تَكميلَه لِنفسِه بتكميلِ غَيرِه؛ توفيةً لحَقِّ الخَلقِ؛ وذلك أنَّه لَمَّا كان النَّاسُ في هذه الدَّارِ سَفْرًا، وكان المسافِرُ إنْ أهملَ رَفيقَه حتَّى أُخِذَ، أوشَكَ أن يُؤخَذَ هو- أمَرَه بما يُكَمِّلُ نجاتَه بتكميلِ رَفيقِه، فقال : وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ. أي: وأْمُرِ النَّاسَ بتوحيدِ الله وطاعتِه، واتِّباعِ شَرْعِه .

❁ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ. أي: وانْهَ النَّاسَ عن الشِّركِ باللهِ ومَعصِيَتِه .

❁ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ. لَمَّا علِم أنَّه لا بدَّ أن يُبتلَى إذا أمَر ونهَى، وأنَّ في الأمرِ والنَّهيِ مَشَقَّةً على النُّفوسِ؛ أمَره بالصَّبرِ على ذلك ، فالقابِضُ على دينِه في غالِبِ الأزمانِ كالقابِضِ على الجَمرِ؛ لأنَّه يُخالِفُ المُعظَمَ، فيَرمونَه عن قَوسٍ واحدةٍ، لا سيَّما أنَّه أمَرَهم ونهاهم .

❁ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ. أي: وتحمَّلْ ما أصابَك مِن بلاءٍ وأذًى . كما قال تعالى: وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ يونس: وقال سُبحانه: وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ

❁ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. أي: إنَّ ذلك مِن الأمورِ الَّتي أوجبَها اللهُ تعالى على عِبادِه، وتحتاجُ إلى حَزمٍ وعَزمٍ للقيامِ بها كما قال تعالى: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

❁ انتقَلَ لُقمانُ بابنِه إلى الآدابِ في مُعاملةِ النَّاسِ، فنهاه عن احتِقارِ النَّاسِ، وعن التَّفَخُّرِ عليهم، وهذا يقتَضي أمْرَه بإظهارِ مُساواتِه مع النَّاسِ، وعَدِّ نَفْسِه كواحِدٍ منهم

وأيضًا لَمَّا كان مِن آفاتِ العبادةِ -لا سِيَّما الأمرِ والنَّهيِ؛ لتصَوُّرِهما بصورةِ الاستِعلاءِ- الإعجابُ

الدَّاعي إلى الكِبْرِ، قال مُحَذِّرًا مِن ذلك مُعَبِّرًا عن الكِبْرِ بلازِمِه؛ لأنَّ نَفْيَ الأعَمِّ نَفيٌ للأخَصِّ، مُنبِّهًا على أنَّ المطلوبَ في الأمرِ والنَّهيِ اللِّينُ لا الفَظاظةُ والغِلظةُ الحامِلانِ على النُّفورِ :

❁ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ. أي: ولا تُمِلْ خَدَّك، وتُعرِضْ بوَجهِك عن النَّاسِ؛ تكَبُّرًا عليهم، وتهاوُنًا واستِحقارًا لشَأنِهم

❁ عن أبي ذَرٍّ ﷺ . ، قال: قال لي النَّبيُّ ﷺ : لا تَحقِرَنَّ مِنَ المعروفِ شَيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاك بوَجهٍ طَلْقٍ

❁ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا. أي: ولا تَمشِ في الأرضِ فَرِحًا مُتبَخترًا . كما قال تعالى :وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا وقال سُبحانَه :وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا

❁ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُتكَبِّرٍ، مَزهُوٍّ، مُعجَبٍ بنَفْسِه، شديدِ الفَخرِ على النَّاسِ بما أُعطِيَ مِن النِّعَمِ .

❁ لَمَّا نهى لُقمانُ ابنَه عن الخُلُقِ الذَّميمِ؛ أمَرَه بالخُلُقِ الكريمِ . وأيضًا بعدَ أن بيَّنَ لُقمانُ لابنِه آدابَ حُسنِ المعامَلةِ مع النَّاسِ؛ قفَّاها بحُسنِ الآدابِ في حالتِه الخاصَّةِ، وتلك حالتا المَشيِ والتَّكَلُّمِ، وهما أظهَرُ ما يَلوحُ على المرءِ مِن آدابِه .

❁ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ. أي: وتوسَّطْ، واعتَدِلْ في مِشيَتِك بلا تكَبُّرٍ ولا استِعجالٍ، بل امشِ بسَكينةٍ ووَقارٍ وتواضُعٍ، بلا سُرعةٍ ولا تباطُؤٍ .

❁ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ. أي: واخفِضْ مِن صَوتِك، فلا ترفَعْه مِن غيرِ حاجةٍ .

❁ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ. أي: إنَّ أقبَحَ الأصواتِ وأشنَعَها لَصَوتُ الحَميرِ إذا رفَعَت صَوتَها بالنَّهيقِ

فوائد

❁ دَعَت هذه الآياتُ إلى معالي الأخلاقِ، وهي أمَّهاتُ الفضائِلِ الثَّلاثِ: الحِكمةِ، والعِفَّةِ، والشَّجاعةِ؛ وأمَرَت بالعَدلِ فيها، وهي وظيفةُ التَّقسيطِ الَّذي هو الوَسَطُ الَّذي هو مَجمَعُ

الفضائِلِ، ونَهَت عن مساوئِ الأخلاقِ، وهي الأطرافُ الَّتي هي مَبدأُ الرَّذائِلِ، الحاصِلُ بالإفراطِ والتَّفريطِ؛ فإقامةُ الصَّلاةِ الَّتي هي رُوحُ العبادةِ المبنيَّةِ على العِلمِ هي سِرُّ الحِكمةِ، والأمرُ والنَّهيُ أمرٌ بالشَّجاعةِ ونهيٌ عن الجُبنِ، وفي النَّهيِ عن التَّصعيرِ وما معه نهيٌ عن التَّهَوُّرِ، والقَصدُ في المشيِ والغَضُّ في الصَّوتِ أمرٌ بالعِفَّةِ، ونهيٌ عن الاستِهاتةِ والجُمودِ، والخَلاعةِ والفُجورِ

❁ يؤخَذُ مِن قَولِ لُقمانَ لابنِه –فيما حكاه الله عنه :–يَا بَنِي تلَطُّفُ الإنسانِ بمُخاطَبةِ ابنِه، لا سيَّما في مقامِ الموعِظةِ، ويتفرَّعُ على هذا بيانُ سوءِ معاملةِ بعضِ الآباءِ: إذا أراد أنْ يَعِظَ ابنَه عامَلَه بالعُنفِ والشِّدَّةِ! وهذا خطأٌ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ : إنَّ اللهَ رفيقٌ يحِبُّ الرِّفقَ، ويُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ ، وأنت إذا عَمِلْتَ بهذا فإنَّك سوف تُعامَلُ بالرِّفقِ؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ أخبَرَ بأنَّ اللهَ تعالى يُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ، فإذا كان يحصُلُ لك مَقصودُك بالعُنفِ؛ فإنَّ حُصولَه بالرِّفقِ مِن بابِ أَولى

❁ الصَّبرُ على أذَى الخَلقِ عندَ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكَرِ: إن لم يُستعمَلْ لَزِمَ أحدُ أمْرَينِ: إمَّا تعطيلُ الأمرِ والنَّهيِ، وإمَّا حُصولُ فِتنةٍ ومَفسَدةٍ أعظَمَ مِن مَفسَدةِ تَركِ الأمرِ والنَّهيِ، أو مِثلِها، أو قريبٍ منها، وكِلاهما معصيةٌ وفَسادٌ؛ قال تعالى :وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ، فمَن أمَرَ ولم يصبِرْ، أو صبَرَ ولم يأمُرْ، أو لم يأمُرْ ولم يصبِرْ: حَصَل مِن هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ مَفسَدةٌ، وإنَّما الصَّلاحُ في أن يأمُرَ ويَصبِرَ .

❁ قَولُ الله تعالى :وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ... وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ، وقَولُه :فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وقَولُه :وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، هذا عامٌّ في وُلاةِ الأُمورِ وفي الرَّعيَّةِ: إذا أمَروا بالمَعروفِ ونَهَوا عن المنكَرِ، فعليهم أن يَصبِروا على ما أُصيبوا به في ذاتِ اللهِ، كما يَصبِرُ المجاهِدونَ على ما يُصابُ مِن أنفُسِهم وأموالِهم؛ فالصَّبرُ على الأذى في العِرْضِ أَوْلَى وأَوْلَى؛ وذلك لأنَّ مَصلحةَ الأمرِ والنَّهيِ لا تَتِمُّ إلَّا بذلك، وما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلَّا به فهو واجِبٌ، ويَندرِجُ في ذلك وُلاةُ الأمورِ؛ فإنَّ عليهم مِن الصَّبرِ والحِلمِ ما ليس على غَيرِهم، كما أنَّ عليهم مِنَ الشَّجاعةِ والسَّماحةِ ما ليس على غَيرِهم؛ لأنَّ مَصلحةَ الإمارةِ لا تَتِمُّ إلَّا بذلك. فكما وَجَب

على الأئمَّةِ الصَّبرُ على أذى الرَّعيَّةِ وظُلْمِها إذا لم تَتِمَّ المصلحةُ إلَّا بذلك، أو كان تَركُه يُفضي إلى فسادٍ أكثرَ منه- فكذلك يجِبُ على الرَّعيَّةِ الصَّبرُ على جَورِ الأئمَّةِ وظُلْمِهم، إذا كان في تَركِ الصَّبرِ مَفسَدةٌ راجِحةٌ

❋ قَولُ الله تعالى :وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ يَستلزِمُ العِلمَ بالمعروفِ ليأمُرَ به، والعِلمَ بالمُنكَرِ ليَنهَى عنه، والأمرَ بما لا يَتِمُّ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ إلَّا به؛ مِنَ الرِّفقِ والصَّبرِ، وقد صَرَّح به في قَولِه :وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ، ومِن كَونِه فاعِلًا لِما يَأمُرُ به، كافًّا لِما ينهَى عنه، فتضَمَّن هذا تكميلَ نَفْسِه بفِعلِ الخَيرِ، وتَركِ الشَّرِّ، وتكميلَ غَيرِه بذلك بأمرِه ونَهيِه .

❋ قال الله تعالى :وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ الأمرُ بأن يأمُرَ بالمعروفِ ويَنهى عن المنكَرِ يَقتضي إتيانَ الأمرِ وانتهاءَه في نَفْسِه؛ لأنَّ الَّذي يأمُرُ بفِعلِ الخَيرِ ويَنهى عن فِعلِ الشَّرِّ: يعلَمُ ما في الأعمالِ مِن خيرٍ وشَرٍّ، ومصالِحَ ومفاسِدَ؛ فلا جَرَمَ أن يَتوقَّاها في نَفْسِه بالأولويَّةِ مِن أمْرِه النَّاسَ ونَهْيِه إيَّاهم

❋ قال تعالى حكايةً عن لقمانَ : فالآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكَرِ إذا أمَر ونهَى، فلا بُدَّ أن يُؤذَى في العادةِ؛ فعليه أن يَصبِرَ ويَحلُمَ .

❋ في قَولِه تعالى :إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ تنبيهٌ على فَضيلةِ العَزمِ في الأمورِ، وكلَّما كان الإنسانُ عازمًا في أمورِه، كان ذلك أنجحَ له وأحسَنَ .

❋ في قَولِه تعالى :وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ...زَجْرٌ عن احتِقارِ النَّاسِ، ومِشْيةِ الخُيَلاءِ؛ وحثٌّ على التَّواضُعِ، وأخْذِ السَّكينةِ والوَقارِ .

❋ قَولُ الله تعالى :وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا أي: اختيالًا وتَبختُرًا؛ ومشيُ الأشَرِ والبطَرِ والتَّكبرِ جديرٌ بأن يظلِمَ صاحِبُه ويُفحِشَ ويَبغيَ، بل امْشِ هَونًا؛ فإنَّ ذلك يُفضي بك إلى التَّواضُعِ، فتَصِلُ إلى كلِّ خيرٍ

❋ في قَولِه تعالى :وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يكونَ مَشيُه قَصْدًا: لا إسراعًا مُخِلًّا،

ولا دَبيبًا مُتباطِئًا؛ فالإسراعُ الَّذي فيه التَّهوُّرُ والعَجَلةُ والطَّيْش: مذمومٌ، والتَّباطؤُ والدَّبيبُ أيضًا مَذمومٌ .

❁ قَولُ الله تعالى :وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، قيل :وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ :إشارةٌ إلى الأفعالِ، وقَولُه :وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ :إشارةٌ إلى الأقوالِ؛ فنبَّه على التَّوسُّطِ في الأفعالِ والأقوالِ، وعلى الإقلالِ مِن فُضولِ الكلامِ .

❁ في قَولِه تعالى :وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ دَليلٌ على أنَّ الإجهارَ الشَّديدَ في المنطِقِ مذمومٌ .

❁ قوله تعالى :وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ (مِنْ) هذه للتَّبعيضِ، فلم يقُلْ: (اغضضْ صوتَك)، بل قال: (منه)؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ لا يُحْمَدُ على رفعِ الصَّوتِ جدًّا، ولا على خَفضِه جدًّا، بل يكونُ أيضًا قَصْدًا بينَ رفعِ الصَّوتِ والإخفاءِ

❁ قال تعالى :وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، النَّهيُ عن رفعِ الصَّوتِ فوقَ الحاجةِ، فيه إشارةٌ إلى أنَّ فاعلِ ما لا حاجةَ إليه غيرُ حكيمٍ .

❁ قال الله تعالى :وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ هذه الآيةُ أدَبٌ مِنَ الله تعالى بتَركِ الصِّياحِ في وُجوهِ النَّاسِ تهاوُنًا بهم، أو بتَركِ الصِّياحِ جُملةً، وكانت العَرَبُ تَفخَرُ بجَهارةِ الصَّوتِ الجَهيرِ وغيرِ ذلك؛ فمَن كان منهم أشَدَّ صَوتًا كان أعَزَّ، ومَن كان أخفَضَ كان أذَلَّ

❁قَولُ الله تعالى :يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ بدَأَ هذه الوَصِيَّةَ بالصَّلاةِ، وختَمَها بالصَّبرِ؛ لأنَّهما مِلاكُ الاستِعانةِ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ

❁ قَولُ الله تعالى :يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ يُعلَمُ منه أنَّ الصَّلاةَ كانت في سائِرِ المِلَلِ، غيرَ أنَّ هيئتَها اختلَفَت .

❁ قَولُ الله تعالى :وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ لذِكرِ الحِمارِ مِن بلاغةِ الذَّمِّ والشَّتمِ ما ليس لِغَيرِه؛ ولذلك يُستهجَنُ التَّصريحُ باسمِه، وهذا يُفهِمُ أنَّ الرَّفعَ مع الحاجةِ غَيرُ مَذمومٍ؛ فإنَّه ليس بمُستنكرٍ ولا مُستَبشَعٍ .

❁ قولُه تعالى :إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ استُدِلَّ به على أنَّ رَفْعَ الصَّوتِ في غيرِ محلِّهِ مُحرَّمٌ؛ لأنَّ هذا التَّشبيهَ يقتضي التَّنفيرَ منه، وقد قال النَّبيُّ ﷺ : ليس لنا مَثَلُ السَّوءِ

❁ قولُه :يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ خَصَّ الصَّلاةَ؛ لأنَّها أكبَرُ العباداتِ البَدَنيَّةِ .

❁ وقَدَّم الأمرَ بالمعروفِ -وإن كان مِن جَلبِ المصالحِ- لأنَّه يَستَلزِمُ تَرْكَ المنكَرِ، وأمَّا تَركُ المُنكَرِ فلا يَستلزِمُ فِعلَ الخَيرِ؛ فإنَّك إذا قُلتَ: لا تأتِ مُنكَرًا، لم يَتناوَلْ ذلك في العُرفِ إلَّا الكَفَّ عن فِعلِ المعصيةِ، لا فِعلَ الطَّاعةِ .

❁ وفيه تَعقيبُ الأمْرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ بمُلازَمةِ الصَّبرِ؛ ووجْهُه: أنَّ الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ قد يَجُرَّانِ للقائمِ بهما مُعاداةً مِن بعضِ النَّاسِ، أو أذًى مِن بعضٍ، فإذا لم يَصبِرْ على ما يُصِيبُه مِن جرَّاءِ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، أوشَكَ أنْ يَترُكَهما. ولمَّا كانت فائدةُ الصَّبرِ عائدةً على الصَّابرِ بالأجْرِ العظيمِ، عُدَّ الصَّبرُ هنا في عِدادِ الأعمالِ القاصرةِ على صاحِبِها، ولم يُلتفَتْ إلى ما في تَحمُّلِ أذَى النَّاسِ مِن حُسنِ المُعامَلةِ معهم، حتَّى يُذكَرَ الصَّبرُ مع قولِه :وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ لأنَّ ذلك ليس هو المقصودَ الأوَّلَ مِن الأمْرِ بالصَّبرِ .

❁ قولُه :وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ حقَّق بالماضي أنَّه لا بُدَّ مِنَ المُصيبةِ؛ لِيَكونَ الإنسانُ على بصيرةٍ .

❁ قولُه :إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ فيه التَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ للاهتمامِ .والإشارةُ بـ ذَلِكَ إلى كلِّ ما ذُكِرَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ مع قُرْبِ العهْدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِه في الفضْلِ .

❁ وأيضًا جملةُ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ تَعليلٌ لوُجوبِ الامتثالِ بما سبَقَ مِن الأمرِ والنَّهيِ، وإيذانٌ بأنَّ ما بعْدَها ليس بمَثابتِه .

❁ وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا :يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وقال في سُورةِ (الشُّورى) :وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ؛ فأكَّدَ الخبَرَ في هذه الآيةِ، وسقَطَ التَّوكيدُ مِن الأُولى في سُورةِ (لُقمانَ)؛ وذلك

لأنَّ آيةَ (الشُّورى) لَمَّا دخَلَها معنى القسَمِ، وكانتْ على تقديرِه؛ إذِ اللَّامُ في قولِه :وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ تَوطئةٌ له، ودالَّةٌ على تَضمينِ الآيةِ معناهُ؛ ناسَبَ ذلك زِيادةُ لامِ التَّأكيدِ في خبَرِ (إنَّ)، وذلك ظاهرٌ في معنَى الآيةِ. وأمَّا آيةُ (لُقمانَ) فقولُه فيها :إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ مُجرَّدُ إخبارٍ عن حالِ ما وقَعَت الوصيَّةُ به، ولا مَدخَلَ للقسَمِ هنا، ولا معنَى له، فلم تَدخُلْ لامُ التَّأكيدِ في الخبَرِ؛ إذ ليس في الآيةِ معنَى قسَمٍ يَسْتدعِيها، ولا وقَعَ في اللَّفظِ ما يُطابِقُها، فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ ويُناسِبُ، ولو قُدِّرَ العكْسُ لَمَا ناسَبَ .

❁ قولُه :وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ الصَّعَرُ: داءٌ يُصيبُ البَعيرَ، فيَلْوي منه عُنقَه، فكأنَّه صِيغَ له صِيغةُ تَكلُّفٍ، بمعنى تكلُّفِ إظهارِ الصَّعرِ، وهو تَمثيلٌ للاحتِقارِ؛ لأنَّ مُصاعرَةَ الخدِّ هَيئةُ الْمُحتقِرِ الْمُستخِفِّ في غالبِ الأحوالِ، والمعنى: لا تَحتقِرِ النَّاسَ؛ فالنَّهيُ عن الإعراضِ عنهم احتقارًا لهم، لا عن خُصوصِ مُصاعرةِ الخدِّ، فيَشملُ الاحتقارَ بالقولِ والشَّتْمِ وغيرِ ذلك، فهو قريبٌ مِن قولِه تعالى :فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ، إلَّا أنَّ هذا تَمثيلٌ كِنائيٌّ، والآخَرُ كِنايةٌ لا تَمثيلَ فيها .

❁ قولُه :وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا تَمثيلٌ كِنائيٌّ عن النَّهيِ عن التَّكبُّرِ والتَّفاخُرِ، لا عن خُصوصِ المشْيِ في حالِ المَرَحِ؛ فيَشملُ الفخْرَ عليهم بالكلامِ وغيرِه .

❁ ومَوقِعُ قولِه :الْأَرْضِ مَرَحًا بَعدَ (لَا تَمْشِ)، مع أنَّ المشْيَ لا يكونُ إلَّا في الأرضِ؛ هو الإيماءُ إلى أنَّ المشْيَ في مكانٍ يَمْشي فيه النَّاسُ كلُّهم قَويُّهم وضعيفُهم؛ ففي ذلك مَوعظةٌ لِلماشي مرَحًا أنَّه مُساوٍ لسائرِ النَّاسِ ، وتذكيرٌ بأنَّ أصلَه ترابٌ، وهو لا يقدرُ أن يَعدُوَه .

❁ قولُه :إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ تَعليلٌ للنَّهيِ أو مُوجِبِه، وتأْخيرُ الفَخورِ -مع كَونِه بمُقابَلةِ الْمُصعِّرِ خَدَّه- عن الْمُختالِ -وهو بمُقابَلةِ الماشي مَرَحًا-؛ لرِعايةِ الفَواصلِ .

❁ وفي هذه الآيةِ لَطيفةٌ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى قَدَّمَ الكمالَ على التَّكميلِ؛ حيثُ قال :أَقِمِ الصَّلَاةَ، ثمَّ قال :وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وفي النَّهيِ قدَّمَ ما يُورِثُه التَّكميلُ على ما يُورِثُه الكَمالُ؛ حيثُ قال :وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ، ثمَّ قال :وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا؛ لأنَّ في طَرَفِ الإثباتِ مَن لا يكونُ كاملًا لا يُمكِنُ أنْ يَصِيرَ مُكمِّلًا؛ فقدَّمَ الكَمالَ، وفي طَرفِ النَّفيِ مَن يكونُ مُتكبِّرًا على غيرِه يكونُ

مُتبخترًا؛ لأنَّه لا يَتكبَّرُ على الغَيرِ إلَّا عندَ اعتقادِه أنَّه أكبَرُ منه مِن وَجْهٍ، وأمَّا مَن يكونُ مُتبخترًا في نَفْسِه لا يَتكبَّرُ ويَتوهَّمُ أنَّه يَتواضعُ للنَّاسِ؛ فقدَّمَ نَفْيَ التَّكبُّرِ، ثمَّ نَفْيَ التَّبختُرِ؛ لأنَّه لو قد نَفى التَّبختُرَ لَلَزِمَ منه نَفْيُ التَّكبُّرِ، فلا يَحتاجُ إلى النَّهيِ عنه .

❁قوله تعالى :وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ -جِيءَ بـ (مِن) الدَّالَّةِ على التَّبعيضِ؛ لإفادةِ أنَّه يغُضُّ بَعضَه، أي: بعضَ جَهْرِه، أي: يَنقُصُ مِن جُهورتِه، ولكنَّه لا يَبلُغُ به إلى التَّخافُتِ والسِّرارِ .

❁ قولُه :إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ وُحِّدَ صَوتُ الحَميرِ ولم يُجمَعْ؛ لأنَّه ليس المُرادُ أنْ يُذكَرَ صوتُ كلِّ واحدٍ مِن آحادِ هذا الجِنسِ حتَّى يُجمَعَ، وإنَّما المرادُ أنَّ كلَّ جِنسٍ مِن الحيوانِ النَّاطقِ له صَوتٌ، وأنكَرُ أصواتِ هذه الأجناسِ صوتُ هذا الجِنسِ؛ فوجَبَ توحيدُه .وإنَّما جَمَعَ الحميرَ في نَظْمِ القرآنِ، مع أنَّ (صوت) مُفردٌ، ولم يقُلِ: (الحِمارِ)؛ لأنَّ المُعرَّفَ بلامِ الجِنسِ يَسْتوي مُفردُه وجمْعُه، وإنَّما أُوثِرَ لفظُ الجمْعِ؛ لأنَّ كَلِمةَ (الحَميرِ) أنسبُ لفواصلِ الآياتِ؛ فإنَّ الفواصلَ المُتقدِّمةَ هي: حَمِيدٌ، عَظِيمٌ، الْمَصِيرُ، خَبِيرٌ، الْأُمُورُ، فَخُورٍ، الْحَمِيرِ ، ولأنَّ المَقصودَ مِن الجَمعِ التَّتميمُ والمبالغةُ في التَّنفيرِ؛ فإنَّ الصَّوتَ إذا توافقتْ عليه الحَميرُ كان أنكَرَ .

[لقمان: ٣٣-٣٤]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾

معاني

تَغُرَّنَّكُمُ :أي: تخدَعَنَّكم، والغِرَّةُ: الغفلةُ، ويُقالُ: غَررْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَه، والغَرُّ والغُرورُ: إظهارُ الأمرِ المضِرِّ في صورةِ النَّافِعِ، أو: إظهارُ النُّصحِ مع إبطانِ الشَّرِّ، والغُرورُ بالضمِّ: الباطلُ، والْغَرُورُ :بالفتحِ: الشَّيطانُ، أو: كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ مِن شيطانٍ أو دنيا أو مالٍ وغيرِ ذلك، وأصلُ

ذلك مِن (الغُرِّ)، وهو الأثرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ .

الْغَيْثَ :أي: المطرَ، أو: هو مطرٌ في إبَّانِه وإلَّا فمطرٌ. وسُمِّيَ المطرُ غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ نَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الدَّلائِلَ على الوحدانيَّةِ والحَشرِ مِن أوَّلِ السُّورةِ، أمَرَ بالتَّقْوى على سَبيلِ الموعِظةِ والتَّذكيرِ بهذا اليَومِ العظيمِ .

❁ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ. أي: يا أيُّها النَّاسُ اجعَلوا بيْنَكم وبينَ سَخَطِ الله وعَذابِه وِقايةً؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه .

❁ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ. أي: واخشَوا يومَ القيامةِ الَّذي لا يُغْني فيه والِدٌ عن وَلَدِه .

❁ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا . أي: ولا مولودٌ يُغْني فيه عن والِدِه شَيئًا . كما قال سُبحانَه :يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ

❁ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. أي: إنَّ ما وعَدَ اللهُ عِبادَه مِن البَعثِ يومَ القيامةِ واقِعٌ لا مَحالةَ .

❁ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا. أي: فلا تَخدَعنَّكم الحياةُ الدُّنيا بزينتِها ولَذَّاتِها عن التَّزَوُّدِ والاستِعدادِ للآخِرةِ .

❁ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ. أي: ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ فيَصرِفَكم عن طاعةِ الله، ويَغُرَّكم بحِلمِ الله وإمهالِه، ويُمَنِّيكم بالأمانيِّ الباطِلةِ . كما قال تعالى :يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا وقال سُبحانَه :يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ وقال عزَّ وجلَّ :يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ .

❁ لَمَّا كان مِنَ الأمرِ الواضِحِ أنَّ لِسانَ حالِهم بعدَ السُّؤالِ عن تحقُّقِ ذلك اليَومِ يَسألُ عن وَقتِه؛ إمَّا تعنُّتًا واستِهزاءً، وإمَّا حقيقةً- أجاب عن ذلك ضامًّا إليه أخواتِه مِن مفاتيحِ الغَيبِ .

❁ وأيضًا لَمَّا قال اللهُ تعالى :وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ]، وذكَرَ أنَّه كائِنٌ بقَولِه :إِنَّ

وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، كأنَّ قائِلًا قال: فمتى يكونُ هذا اليومُ؟ فأُجيبَ بأنَّ هذا العِلمَ ممَّا لم يَحصُلْ لِغَيرِ الله، وذلك قولُه سبحانَه :إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، ثمَّ ذكَرَ الدَّليلَينِ على البَعثِ؛ أحَدُهما :إحياءُ الأرضِ بعدَ مَوتِها، المشارُ إليه بقولِه تعالى :وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وثانيهما :الخَلقُ ابتِداءً، المشارُ إليه بقولِه سبحانَه :وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، فكأنَّه قال ﷺ: يا أيُّها السَّائِلُ، إنَّك لا تَعلَمُ وَقتَها، ولكِنَّها كائنةٌ، والله قادِرٌ عليها كما هو قادِرٌ على إحياءِ الأرضِ، وعلى الخلْقِ في الأرحامِ .

❁ وأيضًا لَمَّا جرَى في الآياتِ قَبْلَها ذِكرُ يومِ القيامةِ، أُعقِبَت بأنَّ وَقتَ السَّاعةِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وجَمَع معها الجُمَلَ الأربَعَ الَّتي بَعدَها

❁ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه عِندَه عِلمُ وَقتِ القيامةِ، الَّذي تقومُ فيه . كما قال سُبحانَه :يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً وقال ﷻ :إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وقال تعالى :وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ...

❁ وعن أبي هُريرةَ ﷺ ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : خَمسٌ مِنَ الغَيبِ لا يَعلَمُهنَّ إلَّا اللهُ، ثمَّ قرأ :إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

❁ وعن عبدِ الله بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : مَفاتِحُ الغَيبِ خَمسٌ :إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.

❁ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ أي: ويُنَزِّلُ اللهُ وَحْدَه المطَرَ بقُدرتِه، ويَعلَمُ وَحْدَه وَقْتَ نُزولِه، وغيرَ ذلك مِن شُؤونِه .

❁ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ. أي: ويَعلَمُ اللهُ وَحْدَه ما في أرحامِ الأمَّهاتِ مِمَّا يُريدُ اللهُ أن يَخلُقَه فيها . كما قال تعالى :اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وقال سُبحانَه :وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ

❁ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا. أي: ولا تدري نفْسٌ ما الَّذي ستكسِبُه في يومِ غَدٍ مِن كسْبِ دينِها ودُنياها؛ فاللهُ وَحْدَه يَعلَمُ ذلك .

❁ عن مَسروقٍ، عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها قالت : مَن حدَّثك أنَّه يَعلَمُ ما في غدٍ، فقد كَذَب، ثمَّ قرأَتْ :وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا

❁ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ. أي: ولا تَدري نَفْسٌ في أيِّ أرضٍ يكونُ مَوتُها؛ فاللهُ وَحْدَه مَن يختَصُّ بعِلمِ ذلك .

❁ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. لَمَّا خصَّص الله تعالى هذه الأمورَ الخمسةَ السابقةَ بالذِّكرِ؛ عمَّم عِلمَه بجميعِ الأشياءِ، فقال : إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. أي: إنَّ اللهَ ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، مُحيطٌ بالظَّواهِرِ والبواطِنِ، والخفايا والسَّرائِرِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه .

فوائد

❁ قَولُ الله تعالى :يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ... فيه لَفتُ النَّظَرِ لهذا اليَومِ العظيمِ، ممَّا يقوِّي العبدَ، ويُسَهِّلُ عليه تَقْوى الله، وهذا مِن رحمةِ الله بالعِبادِ: يأمُرُهم بتَقْواه الَّتي فيها سعادتُهم، ويَعِدُهم عليها الثَّوابَ، ويحَذِّرُهم مِنَ العِقابِ، ويُزعِجُهم إليه بالمواعِظِ والمُخَوِّفاتِ

❁ قال الله تعالى :إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فلا تَمْتَرُوا فيه، ولا تَعمَلوا عَمَلَ غَيرِ المصَدِّقِ؛ فلهذا قال :فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بزينتِها وزَخارِفِها وما فيها مِن الفِتَنِ والمِحَنِ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ الَّذي هو الشَّيطانُ، الَّذي ما زال يخدَعُ الإنسانَ ولا يَغفُلُ عنه في جميعِ الأوقاتِ؛ فإنَّ لله على عبادِه حَقًّا، وقد وعَدَهم مَوعِدًا يُجازيهم فيه بأعمالِهم، وهل وَفَّوا حَقَّه أم قَصَّروا فيه. وهذا أمرٌ يجِبُ الاهتِمامُ به، وأن يجعَلَه العَبدُ نُصْبَ عَينيه، ورأسَ مالِ تجارتِه الَّتي يسعَى إليها، ومِن أعظَمِ العوائِقِ عنه والقواطِعِ دُونَه: الدُّنيا الفتَّانةُ، والشَّيطانُ المُوَسوِسُ المُسَوِّلُ؛ فنهَى تعالى عبادَه أن تَغُرَّهم الدُّنيا، أو يَغُرَّهم بالله الغَرورُ :يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا .

❁ قال الله تعالى :فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ، النَّاسُ على أقسامٍ؛ منهم مَن تدعوه الدُّنيا إلى نفْسِها، فيَميلُ إليها، ومنهم مَن يُوَسْوِسُ في صدرِه الشَّيطانُ، ويزيِّنُ في عينِه

الدُّنيا، ويؤمِّلُه، ويقولُ: إنَّك تحصلُ بها الآخرةَ، أو تلتذُّ بها ثمَّ تتوبُ فتجتمعُ لك الدُّنيا والآخرةُ! فنهاهم عن الأمْرَينِ، وقال: كونوا قِسْمًا ثالثًا، وهم الَّذين لا يَلتفِتونَ إلى الدُّنيا، ولا إلى مَن يحسِّنُ الدُّنيا في الأعيُنِ .

❁ قال الله تعالى :فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا ... مِن أعظَمِ الغرةِ أن تراه يُتابعُ عليك نِعَمَه، وأنت مقيمٌ على ما يَكرهُ، فالشيطانُ موكلٌ بالغرورِ، وطبْعُ النَّفْسِ الأمَّارةِ الاغترارُ، فإذا اجتَمع الرَّأيُ والبغْيُ والشَّيطانُ الغرورُ والنَّفْسُ المُغتَرَّةُ لم يقَعْ هناك خلافٌ، فالشَّياطينُ غَرُّوا المغترِّينَ بالله، وأطمَعوهم مع إقامتِهم على ما يُسخِطُ اللهَ، ويُغضبُه في عفوِه وتجاوزِه، وحدَّثوهم بالتَّوبةِ؛ لتسكُنَ قلوبُهم، ثمَّ دافعوهم بالتَّسويفِ حتَّى هجَم الأجَلُ، فأُخِذوا على أسْوَأِ أحوالِهم، وقال تعالى وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ

❁ قَولُ الله تعالى : وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ تَدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ يومَ القيامةِ لا يَنفَعُ فيه والِدٌ وَلَدَه، وقد جاءت آيةٌ أخرى تدُلُّ على رَفعِ دَرَجاتِ الأولادِ؛ بسَبَبِ صلاحِ آبائِهم، حتَّى يَكونوا في دَرَجةِ الآباءِ، مع أنَّ عَمَلَهم -أي: الأولادِ- لم يُبَلِّغْهم تلك الدَّرَجةَ؛ إقرارًا لعُيونِ الآباءِ بوُجودِ الأبناءِ معهم في منازِلِهم مِنَ الجنَّةِ، وذلك نَفعٌ لهم، وهي قَولُه تعالى :وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ فما وَجْهُ الجَمعِ بيْنَهما؟

الجوابُ: وَجهُ الجَمعِ أُشيرَ إليه بالقَيدِ الَّذي في هذه الآيةِ، وهو قَولُه تعالى :وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ، وعيَّنَ فيها النَّفعَ بأنَّ إلحاقَهم بهم في دَرَجاتِهم يُقيَّدُ بالإيمانِ؛ فهي أخَصُّ مِن الآيةِ الأخرى، والأخَصُّ لا يُعارِضُ الأعَمَّ، وعلى قَولِ مَن فَسَّرَ الآيةَ بأنَّ معنى قَولِه تعالى :لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ لا يَقضي عنه حَقًّا لَزِمَه، ولا يَدفَعُ عنه عذابًا حَقَّ عليه؛ فلا إشكالَ في الآيةِ .

❁ قال الله تعالى : فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا أنَّ الدُّنيا مِن أكبرِ الأسبابِ الَّتي تَحولُ بينَ المَرءِ وخَشيتِه لليَومِ الآخِرِ؛ لأنَّه سبحانه فرَّعَها مِن قَولِه تعالى :وَاخْشَوْا يَوْمًا .

❁ قَولُ الله تعالى :وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا في التَّعبيرِ بـ(هو) إشعارٌ بأنَّ المنفيَّ نَفعُه

بنَفْسِه؛ ففيه ترجيةٌ بأنَّ اللهَ قد يأذَنُ له في نَفْعِه إذا وُجِدَ الشَّرطُ .

❁ قال الله تعالى :إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... مَن ادَّعى أنَّه يَعلَمُ شَيئًا مِن هذه، فقد كَفَر بالقُرآنِ؛ لأنَّه قد خالفَه .

❁ قَولُ الله تعالى :إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ لَمَّا كان سُبحانَه قد نَصَب على السَّاعةِ أماراتٍ تُوجِبُ ظُنونًا في قُربِها، وكَشَف بعضَ أمرِها، عبَّرَ تعالى بالعِلمِ .

❁ في قَولِه تعالى :وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ قال سُبحانَه: «مَا» دون «مَن»؛ لأنَّ عِلْمَ ما في الأرحامِ مِن حيثُ الصِّفةُ أبلَغُ مِن عِلمِه مِن حيثُ الذَّاتُ، أي: أبلغُ مِن حيثُ كَونُه ذَكَرًا أو أنثى؛ فالجنينُ الَّذي في الرَّحِمِ ليس العِلمُ المختَصُّ به مجرَّدَ كَونِه ذكرًا أو أنثى، أو طَويلًا أو قَصيرًا، أو صَغيرًا أو كَبيرًا، بل هناك ما هو أبلَغُ مِن ذلك، وهو صِفاتُ هذا الجَنينِ: هل يكونُ شقيًّا أم سَعيدًا؟ طويلَ العُمُرِ أم قصيرَ العُمُرِ؟ وهل عَمَلُه صالحٌ أو عَمَلُه فاسِدٌ؟ ولهذا جاء التَّعبيرُ بـ «مَا» الَّتي تُلاحَظُ فيها الصِّفاتُ؛ لأنَّ عِلمَ ما في الأرحامِ مِن هذه الوجهةِ أعظَمُ مِن كَونِه ذَكَرًا أو أُنثى .

❁ قَولُ الله تعالى :وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ عبَّرَ في جانبِ نفْيِ مَعرفةِ النَّاسِ بفِعلِ الدِّرايةِ؛ لأنَّ الدِّرايةَ عِلمٌ فيه مُعالَجَةٌ للاطِّلاعِ على المعلومِ؛ ولذلك لا يُعبَّرُ بالدِّرايةِ عن عِلمِ الله تعالى، فلا يقالُ: (اللهُ يَدري كذا)، فيفيدُ انتفاءَ عِلمِ النَّاسِ بعدَ الحِرصِ على عِلمِه .وقيل: أُسنِدَ العِلمُ إلى الله، والدِّرايةُ للنَّفْسِ؛ لِما في الدِّرايةِ مِن معنى الخَتْلِ والحيلةِ .

❁ قولُه :لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا فيه حُسْنُ تَرتيبٍ وتَناسُبٍ؛ فإنَّه لَمَّا كان الوالدُ أكثَرَ شَفقةً على الولدِ مِن الولَدِ على أبيه، بَدَأَ به أوَّلًا، وأتى في الإسنادِ إلى الوالدِ بالفِعلِ المُقْتضي للتَّجدُّدِ؛ لأنَّ شَفقتَه مُتجدِّدةٌ على الولَدِ في كلِّ حالٍ، وأتى في الإسنادِ إلى الولَدِ باسمِ الفاعلِ؛ لأنَّه يدُلُّ على الثُّبوتِ، والثُّبوتُ يَصدُقُ بالمرَّةِ الواحدةِ .

❁ وقد أفادَ تَأكيدُ جُملةِ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ بحَرْفِ (إنَّ) تَحقيقَ عِلمِ الله تعالى بوَقتِ السَّاعةِ، وذلك يَتضمَّنُ تأكيدَ وُقوعِها، وفي كَلمةِ عِنْدَهُ إشارةٌ إلى اختِصاصِه تعالى بذلك العِلمِ؛

لأنَّ العِنْديَّةَ شأنُها الاستئثارُ.

❁ ولَمَّا كانوا قد ألَحُّوا في السُّؤالِ عن وَقتِها، وكانت أبعَدَ الخَمسِ عن عِلمِ الخَلْقِ، وكان شَيئًا واحِدًا لا يتجَزَّأُ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ؛ أبرَزَها سُبحانَه في جملةٍ اسميَّةٍ دالَّةٍ على الدَّوامِ والثُّبوتِ على طَريقِ الحَصرِ .

❁ وجُملةُ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ عَطفٌ على جُملةِ الخَبرِ، والتَّقديرُ: وإنَّ اللهَ يُنزِّلُ الغَيثَ؛ فيُفيدُ التَّخصيصَ بتَنزيلِ الغَيثِ. والمقصودُ أيضًا: عندَه عِلمُ وَقتِ نُزولِ الغَيثِ، وليس المقصودُ مُجرَّدَ الإخبارِ بأنَّه يُنزِّلُ الغَيثَ؛ لأنَّ ذلك ليس ممَّا يُنكِرونه، ولكنْ نُظِمَتِ الجُملةُ بأُسلوبِ الفِعلِ المُضارِعِ وَيُنَزِّلُ؛ لِيَحصُلَ مع الدَّلالةِ على الاستئثارِ بالعِلمِ به الامتِنانُ بذلك المَعلومِ الَّذي هو نِعمةٌ. وفي اختيارِ الفِعلِ المُضارِعِ إفادةُ أنَّه يُجدِّدُ إنزالَ الغَيثِ المرَّةَ بعدَ المرَّةِ عندَ احتياجِ الأرضِ . وأيضًا لَمَّا كان المُشرِكونَ يَنسُبونَ الغَيثَ إلى الأنواءِ، أسنَدَ الإنزالَ إليه سُبحانَه؛ لِيُفيدَ الامتِنانَ .

❁ قولُه :وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ أي: يَنفرِدُ بعِلمِ جميعِ أطوارِه؛ مِن نُطفةٍ، وعَلَقةٍ، ومُضْغةٍ، ثمَّ مِن كونِه ذكَرًا أو أُنْثى، وإبَّان وَضعِه بالتَّدقيقِ. وجِيءَ بالمُضارِعِ وَيَعْلَمُ؛ لإفادةِ تَكرُّرِ العِلمِ بتَبدُّلِ تلك الأطوارِ والأحوالِ، والمعنى: يَنفرِدُ بعِلمِ جميعِ تلك الأطوارِ الَّتي لا يَعلَمُها النَّاسُ؛ لأنَّه عطفٌ على ما قُصِدَ منه الحصْرُ؛ فكان المُسنَدُ الفِعليُّ المُتأخِّرُ عن المُسنَدِ إليه مُفيدًا للاختصاصِ بالقَرينةِ .

❁ وأيضًا في هذه الآيةِ أضافَ فيها العِلمَ إلى نفْسِه في الثَّلاثةِ مِن الخَمسةِ المَذكورةِ في قولِه :إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، ونَفى العِلمَ عن العِبادِ في الأخيرَينِ منها في قولِه :وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ –مع أنَّ الخَمْسةَ سَواءٌ في اختِصاصِ اللهِ تعالى بعِلْمِها، وانتفاءِ عِلمِ العِبادِ بها–؛ وذلك لأنَّ الثَّلاثةَ الأُوَلَ أمْرُها أعظَمُ وأفخَمُ؛ فخُصَّتْ بالإضافةِ إليه تعالى، والأخيرَينِ مِن صِفاتِ العِبادِ؛ فخُصَّا بالإضافةِ إليهم، مع أنَّه إذا انْتَفى عنهم عِلْمُها، كان انتفاءُ عِلمِ ما عَداها مِن الخَمْسةِ .

❁ والنُّكتةُ الَّتي دعَتْ إلى العُدولِ عن المُثبَتِ إلى المَنفيِّ في قوله :وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ :هي أنَّ في نَفْيِ الدِّرايةِ المَخصوصةِ وتَكريرِها واختِصاصِها بالذِّكرِ دونَ العِلمِ -لِمَا فيها مِن معنى الحِيلةِ والخِداعِ- وفي تَكريرِ النَّفْسِ، وتَنكيرِها، وإيقاعِها في سِياقِ النَّفيِ، وتَخصيصِ ما هو مِن خُوَيْصَّةِ كلِّ نفْسٍ: الدَّلالةَ على أنَّ النَّفْسَ إنْ لم تَعرِفْ ما يُلصَقُ بها ويَختَصُّ بها وإنْ أعمَلَتْ حِيلتَها، ولا شَيءَ أخصُّ بالإنسانِ مِن كَسبِه وعاقبتِه، فإذا لم يكُنْ له طريقٌ إلى مَعرفتِهما، كان مِن مَعرفةِ ما عداهما أبعَدَ، أي: مِن مَعرفةِ وَقتِ الساعةِ، وإبَّانِ إنزالِ الغَيثِ، ومَعرفةِ ما في الأرحامِ .

❁ وقد نُسِجَ قولُه :وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ على مِنوالٍ آخَرَ مِن النَّظمِ؛ بحيثُ جُعِلَ سُداهُ نَفْيَ عِلمِ أيِّ نَفْسٍ بأخَصِّ أحوالِها؛ وهو حالُ اكتِسابِها القَريبُ منها في اليَومِ المُوالي يومَ تأمُّلِها ونَظرِها، وكذلك مكانُ انقضاءِ حياتِها؛ للنِّداءِ عَليهم بقِلَّةِ عِلْمِهم، فإذا كانوا بهذه المنزلةِ في قِلَّةِ العِلمِ؛ فكيف يَتطلَّعون إلى عِلمِ أعظَمِ حوادثِ هذا العالَمِ؟! وهو حادثُ فَنائِه وانقراضِه واعتياضِه بعالَمِ الخُلودِ؟! وهذا النَّفيُ للدِّرايةِ بهَذينِ الأمْرينِ عن كلِّ نَفْسٍ فيه كِنايةٌ عن إثباتِ العِلمِ بما تَكسِبُ كلُّ نَفْسٍ، والعِلمِ بأيِّ أرضٍ تَموتُ فيها كلُّ نَفْسٍ إلى الله تعالى؛ فحَصَلَت إفادةُ اختصاصِ الله تعالى بهَذينِ العِلمَينِ، فكانا في ضَميمةِ ما انتُظِمَ معهما ممَّا تَقدَّمَهما. وقد حصَلَ إفادةُ اختِصاصِ الله تعالى بعِلمِ هذه الأُمورِ الخَمْسةِ بأفانينَ بَديعةٍ مِن أفانينِ الإيجازِ البالِغِ حدَّ الإعجازِ .

❁ وفي قولِه :بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم يَقُلْ: (بأيِّ وَقتٍ تموتُ)، مع أنَّ كُلًّا منهما غيرُ مَعلومٍ لِغَيرِه، بل نَفْيُ العِلمِ بالزَّمانِ أَوْلى؛ لأنَّ مِن الناسِ مَن يَدَّعي عِلمَه، بخِلافِ المكانِ؛ وذلك أنَّه إنَّما خَصَّ المكانَ بنَفْيِ عِلمِه؛ لأنَّ الكَونَ في مكانٍ دونَ مَكانٍ في وُسعِ الإنسانِ واختيارِه، فاعتِقادُه عِلمَ مكانِ مَوتِه أقرَبُ، بخلافِ الزَّمانِ، ولأنَّ للمكانِ دونَ الزَّمانِ تأثيرًا في جَلبِ الصِّحَّةِ والسَّقمِ، أو تَأثيرُه فيهما أكثَرُ .

❁ وجُملةُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ مُستأْنَفةٌ ابتدائيَّةٌ واقعةٌ مَوقِعَ النَّتيجةِ لِمَا تَضمَّنَه الكلامُ السابقُ مِن إبطالِ شُبْهةِ المشركينَ بقولِه تعالى :إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ

بمَدَى وَعدِه، خبيرٌ بأحوالِكم ممَّا جمَعَه قولُه :وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا... ؛ ولذا جمَعَ بيْن الصِّفتَين: صِفةِ عليمٍ، وصِفةِ خَبيرٍ؛ لأنَّ الثَّانيةَ أخصُّ .

[الأحزاب: ٣٥]

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾

وَالْقَانِتِينَ :أي: الخاضِعين، الـمُداوِمينَ على طاعةِ الله، والقُنوتُ: دوامُ الطَّاعة ولُزومُها مع الخُضوعِ؛ وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ، ثمَّ سُمِّيَ كلُّ استِقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قُنوتًا .

وَالْخَاشِعِينَ :الخاشعُ: هو المطيعُ المتواضِعُ الخائِفُ، والخُشوعِ: التَّواضُعُ والتَّذلُّلُ والاستِكانةُ، وأصلُ الخشوعِ في اللُّغةِ: السُّكونُ

❁ وعن أُمِّ عُمارةَ الأنصاريَّةِ رَضِيَ الله عنها : أنَّها أتَتِ النَّبيَّ ﷺ فقالت: ما أرى كُلَّ شَيءٍ إلَّا للرِّجالِ، وما أرى النِّساءَ يُذكَرْنَ بشَيءٍ! فنَزَلت هذه الآيةُ :إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الآيةَ

❁ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ. أي: إنِّ الرِّجالَ والنِّساءَ المُستَسلِمينَ لله، المُنقادينَ له بطاعتِه .وفي حديثِ جِبريلَ الطَّويلِ عن عُمَرَ ﷺ : أنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ قال: يا مُحمَّدُ، أخبِرني عن الإسلامِ. فقال رسولُ الله ﷺ: الإسلامُ أن تَشهَدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ الله ، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتيَ الزَّكاةَ، وتَصومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيتَ إنِ استَطعْتَ إليه سبيلًا، قال: صَدَقْتَ

❁ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أي: والمؤمِنينَ والمؤمِناتِ باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، وبالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه .كما قال تعالى :آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ❁ وفي حديثِ جبريلَ الطَّويلِ عن عُمَرَ ﷺ أنَّ جِبريلَ عليه

السَّلامُ قال: فأخبِرْني عن الإيمانِ، قال: أن تؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه، قال: صَدَقْتَ

❁ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ أي: والمُطيعينَ والمُطيعاتِ لله فيما يأمُرُهم ويَنْهاهم، المُداوِمينَ على طاعتِه بذُلٍّ وخُضوعٍ وسُكونٍ .كما قال تعالى :وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ وقال سُبحانَه :يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ _ وقال عزَّ وجلَّ :أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

❁ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ. أي: والصَّادقين والصَّادقاتِ في عقائِدِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، فلا يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنون، ولا يَكذِبون، ولا يُراؤون، ولا يُخلِفون الوَعدَ، ولا يَنقُضونَ العَهدَ مع اللهِ ومع عِبادِهوقال سُبحانَه :إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .

❁ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ.أي: والصَّابِرينَ والصَّابراتِ على التَّمسُّكِ بالدِّينِ وفِعلِ الطَّاعاتِ، وتَركِ المعاصي والشَّهواتِ، وتحمُّلِ المصائِبِ والمشَقَّاتِ .

❁ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ.أي: والخائِفينَ والخائِفاتِ مِن اللهِ، المتواضِعينَ الخاضِعينَ له في صَلاتِهم وفي جميعِ أحوالِهم .

❁وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ أي: والمؤدِّينَ والمؤدِّياتِ الصَّدَقاتِ .

❁ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ. أي: والمتعَبِّدينَ والمتعَبِّداتِ لله تعالى بالصِّيامِ

❁ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ. لَمَّا كان الصَّومُ مِن أكبرِ العَونِ على كَسرِ الشَّهوةِ؛ ناسَبَ أن يَذكُرَ بعْدَه قولَه تعالى : وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ. أي: والحافِظينَ فُروجَهم عمَّا لا يَحِلُّ مِن الزِّنا وغَيرِه إلَّا على أزواجِهم أو ما ملَكَت أيمانُهم مِن الإماءِ، والحافِظاتِ فُروجَهنَّ كذلك إلَّا على أزواجِهنَّ إنْ كُنَّ حرائِرَ، أو أسيادِهنَّ المالِكينَ لهنَّ إنْ كُنَّ إماءً . كما قال تعالى :وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ

❁ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ. لَمَّا كان حِفظُ الفروجِ وسائرُ الأعمالِ لا تكادُ تُوجدُ إلَّا بالذِّكْرِ، وهو الَّذي فيه المُراقبةُ؛ قال : وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ. أي: والذَّاكِرينَ والذَّاكراتِ اللهَ ذِكرًا كَثيرًا كما قال تعالى :الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .وقال سُبحانَه :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُوقال سُبحانَه :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

❁ وعن أبي هُريرةَ ﷺ ، قال : كان رَسولُ الله ﷺ يَسيرُ في طَريقِ مَكَّةَ، فمرَّ على جَبلٍ يُقال له: جُمْدانُ، فقال: سيروا، هذا جُمْدانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدونَ ، قالوا: وما المفَرِّدونَ يا رَسولَ الله؟ قال: الذَّاكِرونَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِراتُ

❁ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا. أي: أعدَّ اللهُ لأولئك الرِّجالِ والنِّساءِ المتَّصِفينَ بتلك الصِّفاتِ مَغفِرةً، فيَستُرُ ذُنوبَهم ولا يؤاخِذُهم بها، وأعدَّ لهم أجرًا عَظيمًا

فوائد

اشتملَتْ هذه الخِصالُ العَشرُ على جوامِعِ فُصولِ الشَّريعةِ كُلِّها:

فالإسلامُ: يجمَعُ قواعِدَ الدِّينِ الخَمسَ المفروضةَ الَّتي هي أعمالٌ.

والإيمانُ: يجمَعُ الاعتقاداتِ القَلبيَّةَ المفروضةَ، وهو شرطُ أعمالِ الإسلامِ كُلِّها.

❁ والقُنوتُ: يجمَعُ الطَّاعاتِ كُلَّها؛ مَفروضَها ومَسنونَها، وتَرْكَ المَنهيَّاتِ، والإقلاعَ عنها ممَّن هو مرتَكِبُها، وهو معنى التَّوبةِ؛ فالقنوتُ هو تمامُ الطَّاعةِ، فهو مُساوٍ للتَّقوى، فهذه جوامِعُ شرائِعِ المكَلَّفين في أنفُسِهم.

❁ والصِّدقُ: يجمَعُ كُلَّ عَمَلٍ هو من مُوافَقةِ القَولِ والفِعلِ للواقِعِ؛ في القَضاءِ، والشَّهادةِ، والعُقودِ، والالتزاماتِ، وفي المعاملاتِ بالوَفاءِ بها، وتركِ الخيانةِ، ومُطابقةِ الظَّاهِرِ للباطِنِ في المراتِبِ كُلِّها، ومِن الصِّدقِ صِدقُ الأفعالِ

❁ والصَّبرُ: جامعٌ لِما يَختَصُّ بتحمُّلِ المشاقِّ مِن الأعمالِ؛ كالجِهادِ، والحِسبةِ في الأمرِ بالمعروفِ

والنَّهي عن المنكَرِ، ومناصَحةِ المسلمينَ، وتحمُّلِ الأذى في الله، وهو خُلُقٌ عَظيمٌ هو مِفتاحُ أبوابِ محامِدِ الأخلاقِ والآدابِ، والإنصافِ مِن النَّفسِ.

❃والخُشوعُ: الإخلاصُ بالقَلبِ والظَّاهِرِ، وهو الانقيادُ، وتجنُّبُ المعاصي، ويدخُلُ فيه الإحسانُ وهو المفَسَّرُ في حديثِ جِبريلَ :أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك ويدخُلُ تحت ذلك جميعُ القُرَبِ النَّوافِلِ؛ فإنَّها مِن آثارِ الخُشوعِ، ويدخُلُ فيه التَّوبةُ ممَّا اقترفه المرءُ مِن الكبائِرِ؛ إذ لا يتحقَّقُ الخشوعُ بدونِها.

❃ والتَّصَدُّقُ: يحتوي جميعَ أنواعِ الصَّدَقاتِ والعَطيَّاتِ، وبَذْلَ المعروفِ والإرفاقِ.

❃ والصَّومُ: عبادةٌ عَظيمةٌ؛ فلذلك خُصِّصَت بالذِّكرِ

❃ وحِفظُ الفُروجِ: أُريدَ به حِفظُها عمَّا ورد الشَّرعُ بحِفظِها عنه، وقد اندرَج في هذا جميعُ أحكامِ النِّكاحِ، وما يتفَرَّعُ عنها، وما هو وسيلةٌ لها.

❃ وذِكرُ اللهِ له محملانِ؛ أحدُهما :ذِكرُه اللِّسانيُّ، فيَدخُلُ فيه قراءةُ القُرآنِ، وطَلَبُ العلمِ ودراستُه... وشَمِل ما يُذكَرُ عَقِبَ الصَّلواتِ، ونحو ذلك مِن الأذكارِ.

والمحمَلُ الثَّاني :الذِّكرُ القَلبيُّ، وهو ذِكرُ اللهِ عند أمرِه ونَهْيِه... وممَّا يوضِّحُ شُمولَه لهذه الشَّرائعِ كلِّها تقييدُه بـ كَثِيرًا؛ لأنَّ المرءَ إذا ذكَرَ اللهَ كثيرًا فقد استغرق ذِكرُه على المحمَلَينِ جميعَ ما يُذكَرُ اللهُ عنده.

❃ ويُراعى في الاتِّصافِ بهذه الصِّفاتِ أن تكونَ جاريةً على ما حَدَّده الشَّرعُ في تفاصيلِه قال تعالى :وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ في ذِكرِ الكثرةِ دليلٌ على مشروعِيَّةِ الاستكثارِ مِن ذِكرِ اللهَّ سبحانَه بالقلبِ واللِّسانِ .

❃في قَولِه تعالى :وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ أنَّه ينبغي اتِّخاذُ الوسائلِ الَّتي ينبغي بها حِفظُ الفَرجِ؛ لأنَّ الثَّناءَ على شَيءٍ ثناءٌ عليه وعلى وسائِلِه؛ فكُلُّ ما يَحصُلُ به حِفظُ الفَرجِ فإنَّه مَطلوبٌ ومَشروعٌ؛ ولهذا حَرُمَ النَّظَرُ إلى الأجنبيَّةِ، وحَرُمَ التَّلَذُّذُ بمُخاطبتِها والاستِماعِ إلى صَوتِها، وحَرُمَ أيضًا مُصافَحةُ المرأةِ الأجنبيَّةِ، وحَرُمَتِ الخَلوةُ بها، وحَرُمَ سَفَرُها بلا مَحرَمٍ، وما أشبَهَ ذلك ممَّا

يكونُ سَببًا في حِفظِ الفُروجِ، فإذا كان اللهُ سُبحانَه وتعالى أثنَى على الحافِظِينَ فُروجَهم فإنَّ الوسائلَ الَّتي تؤدِّي إلى حِفظِ الفَرجِ هي مِن الأمورِ المَطلوبةِ-

❁ في قَولِه تعالى :إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ أنَّه يَنْبغي عندَ ذِكْرِ الرِّجالِ والنِّساءِ أنْ يُقَدَّمَ الرِّجالُ، كما في هذه الآيةِ وغيرِها مِن الآيات .

❁ في قَولِه تعالى :إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أنَّ الإسلامَ غيرُ الإيمانِ؛ فالعَطفُ يقتَضي المغايَرةَ ، فالإيمانُ أخَصُّ مِن الإسلامِ؛ لِقَولِه تعالى :قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ

❁ وفي الصَّحيحَينِ :لا يَزني الزَّاني حينَ يَزني وهو مُؤمِنٌ ، فيَسلُبُه الإيمانَ، ولا يلزَمُ مِن ذلك كُفرُه، بإجماعِ المُسلِمينَ، فدَلَّ على أنَّه أخَصُّ منه، فالإسلامُ بعدَه مرتبةٌ يَرْتقي إليها وهي الإيمانُ، ثم قال تعالى :وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ لأنَّ القنوتَ ناشئٌ عنهما

❁ في قَولِه تعالى :إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إلى آخرِ الآياتِ: فضيلةُ الإسلامِ والإيمانِ وكلِّ ما ذُكِرَ بعدَ ذلك، فإنْ قال قائل: إنَّ الفَضْلَ جاء لِمَن اتَّصفوا بهذه الصفاتِ كلِّها؟ قلنا: لكنْ لَمَّا جاء هذا الفضلُ لها مجموعًا دلَّ على أنَّ كلَّ واحدٍ منها له فضلٌ؛ وإلَّا لَمَا كان لِذِكْرِها جميعًا

❁ الابتداءُ قد يكونَ كثيرًا بغيرِ الأفضَلِ، بل يُبتَدَأُ بالشَّيءِ لأسبابٍ مُتعَدِّدةٍ، كما قال الله تعالى :إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ؛ فالآيةُ هنا لا تدُلُّ على أنَّ المسلِمَ أفضَلُ مِن المؤمِنِ لعلَّ بهذه الآيةِ وأمثالِها تقرَّرَ أصلُ التَّسويةِ -أي: في التَّكليفِ والجزاءِ- فأغنى عن التَّنبيهِ عليه في مُعظَمِ أقوالِ القُرآنِ والسُّنَّةِ، ولعَلَّ هذا هو وَجهُ تَعدادِ الصِّفاتِ المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ التَّسويةُ في خُصوصِ صِفةٍ واحِدةٍ ، فالمقصودُ مِن أصحابِ هذه الأوصافِ المذكورةِ: النِّساءُ، وأمَّا ذِكرُ الرِّجالِ فللإشارةِ إلى أنَّ الصِّنفينِ في هذه الشَّرائعِ سواءٌ؛ لِيَعلموا أنَّ الشريعةَ لا تختصُّ بالرِّجالِ، فالأصلُ أن تعُمَّ الرِّجالَ والنِّساءَ إلَّا ما نُصَّ على تخصيصِه بأحدِ الصِّنفَينِ

❁ قال الله تعالى :وَالذَّاكِرِينَ اللهَّ كَثِيرًا في أكثَرِ المواضِعِ حيثُ ذُكِرَ الذِّكْرُ قَرَنَه اللهُ تعالى بالكَثْرةِ هاهنا وفي قَولِه بعدَ هذا :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَّ ذِكْرًا كَثِيرًا وقال مِن قبْلُ :لمِنْ كَانَ يَرْجُو اللهَّ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللهَّ كَثِيرًا لأنَّ الإكثارَ مِن الأفعالِ البَدَنيَّةِ غَيرُ ممُكِنٍ أو عَسِرٌ؛ فإنَّ الإنسانَ أكْلُه وشُربُه وتحصيلُ مأكولِه ومَشروبِه: يمنَعُه مِن أن يشتَغِلَ دائِمًا بالصَّلاةِ، ولكِنْ لا مانِعَ له مِن أن يذكُرَ اللهَ تعالى وهو آكِلٌ، ويَذكُره وهو شارِبٌ أو ماشٍ، أو بائِعٌ أو شارٍ، وإلى هذا أشار بقَولِه تعالى :الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ولأنَّ جميعَ الأعمالِ صِحَّتُها بذِكرِ اللهِ تعالى، وهي النِّيَّ -في قَولِه تعالى :أَعَدَّ اللهُ لهَمُْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا أنَّ الجنَّةَ موجودةٌ الآنَ؛ لقولِه تعالى :أَعَدَّ؛ لأنَّ الإعدادَ بمعنى التَّهيئةِ -و«أَعَدَّ»: فعلٌ ماضٍ-؛ فيكونُ لازمُ ذلك: أنْ تكونَ الجنَّةُ موجودةً، وهذا أمْرٌ معلومٌ عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، ومدعومٌ بنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ: أنّ الجنَّةَ والنَّارَ موجودتانِ الآنَ

❁ وذكَرَ وَالمُْؤْمِنِينَ وَالمُْؤْمِنَاتِ بعدَ المُْسْلِمِينَ وَالمُْسْلِمَاتِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ .

❁ قولُه :وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ الصَّومُ: عِبادةٌ عَظيمةٌ؛ فلذلك خُصِّصَت بالذِّكرِ مع أنَّ الفرضَ منه مَشمولٌ للإسلامِ في قولِه :إِنَّ المُْسْلِمِينَ وَالمُْسْلِمَاتِ، ويَفي صَومَ النَّافلةِ؛ فالتَّصريحُ بذِكرِ الصَّومِ تَنويهٌ به

[الأحزاب: ٤٥-٤٨]

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللهَّ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ المُْؤْمِنِينَ بِأَنَّ لهَمُْ مِنَ اللهَّ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالمُْنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ وَكَفَى بِاللهَّ وَكِيلًا (٤٨)﴾

وَنَذِيرًا :أي: محذِّرًا ومخوِّفًا، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ .

وَسِرَاجًا :أي: ضِياءً وهاديًا، وأصلُ (سرج): يدُلُّ على الحُسنِ والزِّينة .

فَضْلًا :أي: ثوابًا وأجرًا، أو: ما تفضَّل به عليهم زيادةً على الثَّوابِ، والفضلُ: العطاءُ الَّذي يَزيدُه المُعطي زيادةً على العَطيَّةِ، وكلُّ عَطيَّةٍ لا تَلزَمُ مَن يُعطِي يُقال لها: فضْلٌ، والإفضالُ: الإحسانُ،

وأصلُ (فضل): يدُلُّ على زيادةٍ في شَيءٍ .

وَكِيلًا :أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيلُ الرَّجُلِ في مالِه هو الَّذي كفَله له، وقام به، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتِمادِ غيرِك في أمرِك .

❁ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا: أنَّ هذا النِّداءَ الثَّالثَ للنَّبيِّ ﷺ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أبلَغَه بالنِّداءِ الأوَّلِ ما هو مُتعلِّقٌ بذاتِه، وبالنِّداءِ الثَّاني ما هو مُتعلِّقٌ بأزواجِه، وما تخلَّل ذلك مِنَ التَّكليفِ والتَّذكيرِ: ناداه بأوصافٍ أودَعَها سُبحانَه فيه؛ للتَّنويهِ بشَأنِه، وزيادةِ رِفعةِ مِقدارِه، وبيَّنَ له أركانَ رِسالتِه؛ فهذا الغَرَضُ هو وَصفُ تعَلُّقاتِ رِسالتِه بأحوالِ أمَّتِه، وأحوالِ الأُمَمِ السَّالِفةِ

❁يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا أي: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسَلْناك شاهِدًا ومُبَشِّرًا بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ لِمَن آمَن بك وأطاعَك، ومُنذِرًا بالعَذابِ في الدُّنيا والآخِرةِ لِمَن خالَفك وعصَى أمرَك .

❁ عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لَقِيتُ عبدَ الله بنَ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قُلتُ: أخبِرْني عن صِفةِ رَسولِ الله ﷺ في التَّوراةِ. قال : أجَلْ، والله إنَّه لَموصوفٌ في التَّوراةِ ببَعضِ صِفتِه في القُرآنِ :يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وحِرزًا للأُمِّيِّينَ ، أنت عَبدي ورَسولي، سَمَّيتُك المتوكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ ، ولا يَدفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكِنْ يعفو ويَغفِرُ، ولن يَقبِضَه اللهُ حتَّى يُقيمَ به المِلَّةَ العَوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويَفتَحَ بها أعيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا

❁ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا أي: وأرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- داعيًا إلى الله وَحْدَه بإذْنِ الله تعالى لك في الدَّعوةِ وأمرِه وإرادتِه وقَدَرِه وتيسيرِه .

❁ وَسِرَاجًا مُنِيرًا. أي: وسِراجًا مُنيرًا يُستَضاءُ ويُهتدَى به .

❁ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى أنَّه أرسَلَ نَبيَّه شاهِدًا... إلى آخِرِه، تضَمَّن ذلك الأمرَ بتلك الأحوالِ، فكأنَّه قال: فاشهَدْ، وبَشِّرْ، وأنذِرْ، وادْعُ، وانْهَ، ثمَّ قال :وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ؛ فهذا متَّصِلٌ بما قَبْلَه مِن جِهةِ المعنى، وإن كان يَظهَرُ أنَّه مُنقَطِعٌ مِن الَّذي قبْلَه .

❁ وأيضًا لَمَّا تقَدَّمتْ هذه الأوصافُ الحُسنى، وكان تطبيقُ ثَمَراتِها عليها في الذِّروةِ مِن العُلُوِّ، وكان الشَّاهِدُ هو البَيِّنةَ؛ فكان كأنَّه قيل: فأقِمِ الأدِلَّةَ النَّيِّرةَ، وادْعُ وأنذِرْ كُلَّ مَن خالَف أمْرَك، وكان المقامُ لِخِطابِ المُقبِلينَ- طوَى هذا المقَدَّرَ؛ لأنَّه للمُعرِضينَ، ودَلَّ عليه بقَولِه عاطِفًا عليه :

❁ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا أي: وبَشِّرِ المُؤمِنينَ بأنَّ لهم مِنَ الله ثوابًا عَظيمًا جَليلًا .كما قال تعالى :وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وقال سُبحانَه :لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وقال ﷻ :مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وقال ﷻ :وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ وقال ﷻ :يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

❁ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا لَمَّا كان ثَمَّ طائفةٌ مِنَ النَّاسِ مُستعِدَّةٌ للقيامِ بصَدِّ الدَّاعينَ إلى الله مِنَ الرُّسلِ وأتْباعِهم، وهم المنافِقون، الَّذين أظهَروا المُوافَقةَ في الإيمانِ، وهم كَفَرةٌ فَجَرةٌ في الباطِنِ، والكفَّارُ ظاهرًا وباطنًا؛ نهى اللهُ رسولَه عن طاعتِهم، وحذَّره ذلك .

❁ وأيضًا أنَّه لَمَّا أمرَه سُبحانَه بما يَسُرُّ؛ نهاه عما يَضُرُّ، فقال ذاكِرًا ثَمَرةَ النِّذارةِ

❁ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ. أي: ولا تُطِعِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ -يا مُحَمَّدُ- فيما يَدْعونَك ويُشيرونَ عليك؛ مِنَ المُداهَنةِ في الدِّينِ، أو التَّقصيرِ في تَبليغِ رِسالةِ رَبِّ العالَمينَ .

❁ وَدَعْ أَذَاهُمْ. أي: وأعرِضْ -يا مُحَمَّدُ- عن إيذاءِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ لك، ولا تُبالِ بهم، واصبِرْ عليهم . كما قال تعالى :فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا

❁ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ. أي: أي: واعتَمِدْ -يا مُحَمَّدُ- على اللهِ وَحْدَه، في إتمامِ أمرِك، وخذلانِ عدوِّك،

وتبليغِ الرِّسالةِ، وفوِّضْ إليه أمورَك كُلَّها فإنَّه يَكْفيكَ . كما قال تعالى :وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وقال سُبحانَه :فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ

❁ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا. أي: وحسْبُك اللهُ –يا مُحَمَّدُ– قائِمًا بأمورِك، وحافِظًا لك

فوائد

❁ في قَولِه تعالى :وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ الإشارةُ إلى أنَّه يجِبُ على الدَّاعِيةِ أنْ تكونَ دعوتُه إلى اللهِ تعالى لا إلى حَظِّ نفْسِه! فإنَّ هذا وصْفُ الرَّسولِ ﷺ

❁ قَولُه تعالى :وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا قال بعضُ العلماءِ: (هذه مِن أرجى آيةٍ عندي في كتابِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ نبيَّه أن يُبَشِّرَ المؤمِنينَ بأنَّ لهم عندَه فضلًا كبيرًا، وقد بيَّن تعالى الفَضلَ الكبيرَ ما هو في قَولِه تعالى :وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ

❁ في قَولِه تعالى :وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وُجوبُ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى ، وهو اعتِمادُ القلبِ على الرَّبِّ فيما يُنيلُه مِن خَيرٍ، أو يُزيلُه مِن ضُرٍّ، وتَعاطي الأسبابِ –مع تحقيقِ ذلك– لا يَقدَحُ فيه

❁ في قَولِه تعالى :يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا فضيلةُ النَّبيِّ ﷺ ؛ حيث جَمَعَ اللهُ تعالى له بينَ هذه الأوصافِ العظيمةِ: النُّبُوَّةِ، والرِّسالةِ، والشَّهادةِ، والبِشارَةِ، والإنذارِ، والدَّعوةِ إلى اللهِ تعالى بإذنِه؛ وأنَّه السِّراجُ المنيرُ .

❁ قال اللهُ تعالى :وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ أرسَلَ اللهُ نبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ داعيًا إليه بإذنِه؛ فمَن دعا إلى غَيرِ اللهِ فقد أشرَكَ، ومَن دعا إليه بغَيرِ إذنِه فقد ابتدَعَ، والشِّركُ بِدعةٌ، والمبتَدِعُ يَؤُولُ إلى الشِّركِ، ولم يُوجَدْ مُبتَدِعٌ إلَّا وفيه نَوعٌ مِن الشِّركِ .

❁ قال اللهُ تعالى :وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ في قَولِه :بِإِذْنِهِ أنَّ دعوةَ النَّبيِّ ﷺ مَبنيَّةٌ على شَرعِ اللهِ تعالى بكيفيَّتِها وفيما يدعو إليه؛ فهو داعٍ إلى اللهِ تعالى بإذْنِه، أي: على حَسَبِ أمْرِه، وبشَرعِه، فيدعو إلى سَبيلِ اللهِ تعالى بالحِكمةِ والموعِظةِ الحَسَنةِ، ويجادِلُ بالَّتي هي أحسَنُ، وكذلك يدعو إلى شَرعِ اللهِ تعالى لا يَتجاوزُه .

❁ في قَولِه تعالى :وَسِرَاجًا مُنِيرًا سمَّى اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ سِراجًا مُنيرًا، وسمَّى الشَّمسَ سِراجًا وَهَّاجًا في قَولِه تعالى :وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا والسِّراجُ المُنيرُ أكمَلُ مِن السِّراجِ الوهَّاجِ؛ فإنَّ الوهَّاجَ له حَرارةٌ تُؤذي، والمُنيرُ يُهتدَى بنُورِه مِن غيرِ أذًى بوَهَجِه ، وذلك يَقتضي أنَّ الخَلقَ في ظُلمةٍ عَظيمةٍ لا نورَ يُهتدَى به في ظُلُماتِها، ولا عِلمَ يُستَدَلُّ به في جَهالاتِها، حتَّى جاء اللهُ بهذا النَّبيِّ الكريمِ، فأضاء اللهُ به تلك الظُّلُماتِ، وعَلَّم به مِنَ الجَهالاتِ، وهدى به ضُلَّالًا إلى الصِّراطِ المستقيمِ؛ فأصبح أهلُ الاستِقامةِ قد وَضَح لهم الطَّريقُ، فمَشَوا خَلفَ هذا الإمامِ، وعَرَفوا به الخَيرَ والشَّرَّ، وأهلَ السَّعادةِ مِن أهلِ الشَّقاوةِ، واستناروا به لِمعرفةِ مَعبودِهم، وعَرَفوه بأوصافِه الحميدةِ، وأفعالِه السَّديدةِ، وأحكامِه الرَّشيدةِ

❁ في قَولِه تعالى :وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ لم يَقُلْ سُبحانَه: «بَشِّرِ المُسلمينَ»؛ لأنَّ مِن المُسلِمينَ مَن يكونُ إسلامُهم ظاهِرًا، ويكونُ الإيمانُ في قُلوبِهم إمَّا مَفقودًا وإمَّا ضَعيفًا؛ فالَّذين لهم البِشارةُ المُطلَقةُ هم المؤمِنونَ الَّذين وَقَرَ الإيمانُ في قُلوبِهم، وصاروا يُنَفِّذُون مُقتضَى ذلك الإيمانِ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ :أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ فالبِشارةُ المُطْلَقةُ لا تَكونُ إلَّا للمُؤمِنينَ .

❁قال الله تعالى :وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا، فيه أنَّ الجزاءَ على الإيمانِ أكثرُ مما عَمِله العبدُ؛ لقولِه تعالى :فَضْلًا كَبِيرًا، وقولِه تعالى :مِنَ اللَّهِ؛ فيُؤخَذُ مِن الأمْرَينِ؛ أمَّا وجْهُ أخْذِه مِن الأوَّلِ فلِقولِه تعالى :كَبِيرًا، والكبيرُ إذا وَصَفَ الشَّيءَ بالكبيرِ فهو كبيرٌ جدًّا، وأمَّا الثَّاني فلأنَّه أضاف الفضلَ إلى الله تعالى :مِنَ اللَّهِ، وكما قال المَثَلُ: «العَطِيَّةُ على قَدْرِ مُعْطِيها»، فإذا كان هذا الفضلُ مِن الله تعالى؛ فإنه سيَكونُ فضلًا لا يَخْطُرُ على البالِ .

❁ في قولِه تعالى :وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ أنَّه قد يَتوَجَّهُ النَّهيُ عمَّا لم يُفْعَلْ لئلَّا يُفْعَلَ؛ فإنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما كان يُطيعُهم، لكنَّه نُهِيَ أنْ يُطيعَهم لئلَّا يفعلَ في المُستقبَلِ .قال الله تعالى :وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا يَتبيَّنُ إذا نظَرْتَ في الأمورِ الَّتي لأجْلِها لا يكفي الوكيلُ الواحِدُ؛ منها: ألَّا يكونَ قَويًّا قادِرًا على العَمَلِ، كالمَلِكِ الكثيرِ الأشغالِ يَحتاجُ إلى وُكَلاءَ؛

لعَجزِ الواحدِ عن القيامِ بجَميعِ أشغالِه، ومنها: ألَّا يكونَ عالِمًا بما فيه التَّوكيلُ، ومنها: ألَّا يكونَ غنيًّا. واللهُ تعالى عالمٌ قادرٌ، وغيرُ مُحتاجٍ؛ فيكفي وكيلًا .

❁ في قولِه :يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ذكَرَ الله تعالى للنَّبيِّ ﷺ هنا خَمْسةَ أوصافٍ؛ هي: شاهدٌ، ومُبشِّرٌ، ونَذيرٌ، وداعٍ إلى الله، وسِراجٌ مُنيرٌ؛ فهذه الأوصافُ يَنْطوي إليها وتَنْطوي على مَجامعِ الرِّسالةِ المُحمَّديَّةِ؛ فلذلك اقتُصِرَ عليها مِن بيْنِ أوصافِه الكثيرةِ .

❁وقُدِّمَت البِشارةُ على النِّذارةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ غلَبَ عليه التَّبشيرُ؛ لأنَّه رَحمةٌ للعالَمينَ، ولِكَثرةِ عدَدِ المؤمنينَ في أُمَّتِه .

❁ قولُه :وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا أشار إلى المبالَغةِ في البِشارةِ بالتَّضعيفِ؛ لِما لها مِن حُسنِ الأثَرِ في إقبالِ المَدْعُوِّ، وللتَّضعيفِ مِن الدَّلالةِ على كثرةِ الفِعلِ والمفعولِ؛ بِشارةً بكثرةِ التَّابعِ، وهو السَّبَبُ لمقصودِ السورةِ، وكانت المُبالَغةُ في النِّذارةِ أزيدَ؛ لأنَّها أبلَغُ في رَدِّ المخالِفِ، وهي المقصودُ بالذَّاتِ مِن الرِّسالةِ؛ لِصُعوبةِ الاجتراءِ عليها

❁ زِيادةُ بِإِذْنِهِ في قولِه :وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ؛ لِيُفيدَ أنَّ اللهَ أرسَلَه داعيًا إليه، ويسَّرَ له الدُّعاءَ إليه، مع ثِقَلِ أمْرِ هذا الدُّعاءِ، وعِظَمِ خَطَرِه، وهو ما كان استَشْعَرَه النَّبيُّ ﷺ في مَبدأِ الوَحْيِ مِن الخشيةِ إلى أنْ أُنزِلَ عليه : يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ

❁ وقولُه :وَسِرَاجًا مُنِيرًا تَشبيهٌ بَليغٌ بطَريقِ الحاليَّةِ، وهو طَريقٌ جميلٌ، أي: أرسَلْناكَ كالسِّراجِ المُنيرِ في الهِدايةِ الواضحةِ الَّتي لا لَبْسَ فيها، ولا تَترُكُ للباطلِ شُبهةً إلَّا فَضَحتْها، وأوقَفَتِ النَّاسَ على دَخائلِها، كما يُضِيءُ السِّراجُ الوقَّادُ ظُلمةَ المكانِ

❁ (الفضلُ) كنايةٌ عن العطايا الكبيرةِ الثَّوابِ، مِن قولِهم للعطايا: فضولٌ وفَواضلُ، أو المزيدِ على الثَّوابِ، وإذا ذَكَرَ المُتفضِّلُ به وكَبَّرَه، فما ظنُّكَ بالثوابِ؟! أو ما فُضِّلوا به على سائرِ الأُمَمِ، وذلك من جِهتِه تعالى، أو الجَنَّةِ وما أُوتوا فيها .

❁ قولُه : بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ يعني: لا مِن غيرِه؛ ولهذا قَدَّمَ مِنَ اللَّهِ مع أنَّه مُتَعَلِّقٌ بـ فَضْلًا كَبِيرًا .

❁ وفي قَولِه تعالى :وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ مناسَبةٌ حسَنةٌ، فقد قدَّم الكافرينَ على

المنافقينَ، بيْنَما في مواضعَ يُقَدِّمُ المنافقينَ على الكافرينَ؛ ففي مقامِ الجزاءِ يُقَدِّمُ المنافقينَ :إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ، لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ ؛لأنَّ ذَنْبَ المنافِقِ أعظَمُ مِن ذَنْبِ الكافرِ الصَّريحِ، وأمَّا هنا فالَّذي يُعارِضُ الرَّسولَ ﷺ صراحةً هو الكافرُ؛ ولهذا قَدَّمَهُ على المنافقِ؛ لأنَّ المنافقَ لا يَأْمُرُ بمخالفةِ الشَّرعِ كما يَأْمُرُ بها الكافرُ! إذْ إنه يَتَسَتَّرُ بنِفاقِه، ولهذا قال تعالى :وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ فبدأ بهم؛ لأنَّ مُعارضَتَهم للشَّرعِ أبْيَنُ وأظهرُ مِن المنافقينَ

❁ وقولُه :وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا تَذييلٌ لِجُملةِ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، أي: فإنَّ اللهَ هو الوكيلُ الكافي في الوكالةِ، أي: المُجْزي مَن تَوكَّلَ عليه ما وَكَّلَه عليه؛ فالباءُ تأكيدٌ .

❁ وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوضعِ الإضمارِ؛ لِتَعليلِ الحُكمِ، وتأكيدِ استِقلالِ الاعتراضِ التَّذييليِّ .

❁ ولَمَّا وصَفَ اللهُ نَبيَّه بخمْسِ صِفاتٍ، قابَلَ كُلًّا منها بخِطابٍ يُناسِبُه، وقد جاءت هذه الجُمَلُ الطَّلَبيَّةُ مُقابِلةً وناظرةً للجُمَلِ الإخباريَّةِ مِن قولِه :إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ... إلى وَسِرَاجًا مُنِيرًا فقولُه :وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ناظرٌ إلى قولِه :وَمُبَشِّرًا وقولُه هنا :وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ناظرٌ إلى قولِه :وَنَذِيرًا ؛ لأنَّه جاء في مُقابَلةِ بِشارةِ المؤمنينَ، وقولُه :وَدَعْ أَذَاهُمْ ناظرٌ إلى قولِه :شَاهِدًا . وقيل: لم يُذكَرْ مُقابلُ الشَّاهِدِ صَريحًا، وهو الأمرُ بالمُراقبةِ؛ ثِقةً بظُهورِ دَلالةِ مُقابلِ المُبشَّرِ عليه، وهو الأمرُ بالتَّبشيرِ. وقولُه :وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ناظرٌ إلى قولِه :وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ وأمَّا قولُه :وَسِرَاجًا مُنِيرًا؛ فلم يُذكَرْ له مُقابِلٌ في هذه المَطالبِ، إلَّا أنَّه لَمَّا كان كالتَّذييلِ للصِّفاتِ ناسَبَ أنْ يُقابِلَه ما هو تَذييلٌ للمَطالِبِ، وهو قولُه :وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .وقيل: قُوبِلَ السِّراجُ المُنيرُ بالاكتفاءِ به تعالى؛ فإنَّ مَن أيَّده اللهُ تعالى بالقُوَّةِ القُدسيَّةِ، ورشَّحه للنُّبوَّةِ، وجعَلَه بُرهانًا نَيِّرًا يَهدي الخَلْقَ مِن ظُلُماتِ الغَيِّ إلى نُورِ الرَّشادِ؛ حَقيقٌ بأنْ يَكْتَفيَ به عن كلِّ ما سِواهُ .

[الأحزاب: ٧٢-٧٣]

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣)﴾

معاني الألفاظ

فَأَبَيْنَ :أي: امتَنَعْنَ، والإباءُ: هو امتناعٌ باختيارٍ، وأَبَى الشَّيءَ: لم يَرْضَه، وأبى عليه: امْتَنَع، وهو غيرُ الاستكبارِ، وكلُّ إباءٍ: امْتناعٌ بلا عكسٍ، فإنَّ الإباءَ شدَّةُ الامتناعِ، وأصلُ (أبي): يَدُلُّ على الامْتِناعِ .

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا :أي: خِفْنَ مِن الأمانةِ أن لا يُوفِّيْنَها، فيَلحَقَهنَّ العقابُ، والإشفاقُ: عنايةٌ مختلطةٌ بخَوفٍ، وإذا عُدِّي بـ (مِن) فمعنَى الخوفِ فيه أظهرُ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ .

❀ لَمَّا أرشَد المُؤمنينَ إلى ما أرشَد مِن تركِ الأذَى، واتِّقاءِ الله، وسَدادِ القَولِ، ورَتَّب على الطَّاعةِ ما رَتَّب؛ بَيَّن أنَّ ما كُلِّفَه الإنسانُ أمرٌ عظيمٌ، فقال :إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ .أي: إنَّا عرَضْنا الأوامِرَ والنَّواهيَ والفرائِضَ والطَّاعاتِ على السَّمَواتِ والأرضِ والجِبالِ، فتُثابُ على حَملِها والقيامِ بها، وتُعاقَبُ على تَرْكِ ذلك .

❀ عن حُذَيْفةَ ﷺ ، قال : حدَّثَنا رَسولُ الله ﷺ حَديثَينِ، رأيتُ أحَدَهما، وأنا أنتَظِرُ الآخَرَ: حدَّثَنا أنَّ الأمانةَ نَزَلت في جَذْرِ قُلوبِ الرِّجالِ، ثمَّ عَلِموا مِنَ القرآنِ، ثمَّ عَلِموا مِنَ السُّنَّةِ، وحدَّثَنا عن رَفْعِها، قال: يَنامُ الرَّجُلُ النَّومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ مِن قَلْبِه، فيَظَلُّ أثَرُها مِثلَ أثَرِ الوَكْتِ ، ثمَّ يَنامُ النَّومةَ فتُقبَضُ فيَبقى أثَرُها مِثْلَ المَجْلِ ؛ كجَمرٍ دحْرَجْتَه على رِجْلِك فنَفِطَ فتَراه مُنتَبِرًا وليس فيه شَيءٌ! فيُصبِحُ النَّاسُ يَتبايَعونَ، فلا يَكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ! فيُقالُ: إنَّ في بني فُلانٍ رجُلًا أمينًا! ويقال للرَّجُلِ: ما أعْقَلَه! وما أظرَفَه! وما أجْلَدَه! وما في قَلْبِه مِثقالُ حَبَّةِ خَردلٍ مِن إيمانٍ! ولقد أتَى عليَّ زمانٌ وما أبالي أيَّكم بايَعتُ؛ لَئِنْ كان مُسلِمًا رَدَّه عليَّ الإسلامُ، وإنْ كان نصرانيًّا ردَّه عليَّ ساعِيه، فأمَّا اليومَ فما كنتُ أُبايِعُ إلَّا فُلانًا وفُلانًا

❁ وعن أبي هُريرةَ ﷺ ، قال : بيْنَما النَّبيُّ ﷺ في مجلِسٍ يُحَدِّثُ القَومَ، جاء أعرابيٌّ فقال: متى السَّاعةُ؟ فمضَى رسولُ الله ﷺ يُحدِّثُ، فقال بَعضُ القَومِ: سَمِعَ ما قال فكَرِهَ ما قال، وقال بعضُهم: بل لم يَسمَعْ. حتَّى إذا قضَى حديثَه قال: أين السَّائِلُ عن السَّاعةِ؟ قال: ها أنا يا رَسولَ الله. قال: فإذا ضُيِّعَت الأمانةُ، فانتَظِرِ السَّاعةَ. قال: كيف إضاعتُها؟ قال: إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِه، فانتَظِرِ السَّاعةَ

❁ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا أي: فلمْ تَقبَلِ السَّمَواتُ والأرضُ والجِبالُ أن تختارَ امتِثالَ الأوامِرِ واجتنابَ النَّواهي على الثَّوابِ والعِقابِ، وخِفْنَ مِن عذابِ اللهِ على عدَمِ القيامِ بذلك .

❁ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ. أي: وحمَلَ الإنسانُ الأمانةَ

❁ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا. أي: إنَّ الإنسانَ واقِعٌ في ظُلمِ نَفْسِه، والجَهلِ بربِّه وشَرْعِه وقَدْرِ الأمانةِ كما قال تعالى :إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

❁ لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ. أي: لِيُعذِّبَ اللهُ الَّذين خانوا الأمانةَ مِن المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ؛ الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ، ويُبطِنونَ الكُفرَ، ويُعَذِّبَ المُشرِكينَ والمُشرِكاتِ باللهِ تعالى .

❁ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ. أي: وليَتوبَ اللهُ على المؤمِنينَ والمؤمِناتِ؛ الَّذين قاموا بما أمَرَهم اللهُ، ولم يَخونوا الأمانةَ، فيَغفِرَ اللهُ لهم ذُنوبَهم، ويَرحَمَهم، ويُوفِّقَهم لطاعتِه .

❁ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا. أي: إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالمَغفرةِ، فيَستُرُ ذُنوبَ عبادِه ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ومُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالرَّحمةِ .

الفَوائِدُ

❁ في قَولِه تعالى :وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ...وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا أنَّه ليس لأحدٍ أن يَظُنَّ استِغناءَه عن التَّوبةِ إلى اللهِ، والاستِغفارِ مِن الذُّنوبِ، بل كلُّ أحدٍ مُحتاجٌ إلى ذلك دائمًا؛ فالإنسانُ ظالمٌ جاهِلٌ، وغايةُ المؤمنينَ والمؤمناتِ التَّوبةُ، وقد أخبرَ اللهُ تعالى في كتابِه بتوبةِ عبادِه الصَّالحينَ، ومَغفرتِه لهم

❁ قولُه :فَأَيْنَ أَنَّى بضميرِ هذه كضَميرِ الإناثِ؛ لأنَّ جمعَ التَّكسيرِ غيرَ العاقِلِ يجوزُ فيه ذلك وإن كان مُذكَّرًا .

❁ قال الله تعالى :إ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا فكذلك الإنسانُ مِن شَأنِه الظُّلمُ والجَهلُ، فلمَّا أُودِعَ الأمانةَ بَقِيَ بَعضُهم على ما كان عليه، وبَعضُهم ترَكَ الظُّلْمَ، كما قال تعالى :الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ـ وترَكَ الجَهلَ، كما قال تعالى في حقِّ آدمَ عليه السَّلامُ :وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ـ وقال في حَقِّ المؤمِنينَ عامَّةً :وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ ـ وقال تعالى :إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

❁ ذكَرَ اللهُ تعالى في الإنسانِ وَصْفَينِ: الظَّلومَ والجَهولَ، وذكَرَ مِن أوصافِه تعالى وَصْفَينِ، فقال :وَكَانَ اللهُّ غَفُورًا رَحِيمًا، أي: كان غَفورًا للظَّلومِ، ورحيمًا على الجَهولِ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى وعَد عبادَه بأنَّه يَغفِرُ الظُّلمَ جميعًا إلَّا الظُّلمَ العَظيمَ الَّذي هو الشِّركُ، كما قال تعالى :إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وأمَّا الوَعدُ فقولُه تعالى :إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ـ وأمَّا الرَّحمةُ على الجَهلِ فلأنَّ الجَهلَ محَلُّ الرَّحمةِ؛ ولذلك يَعتذِرُ المَسيءُ بقولِه: ما عَلِمتُ

❁ الأصلُ في بني آدمَ الظُّلمُ والجَهلُ، كما قال تعالى :وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا، ومجرَّدُ التَّكلُّمِ بالشَّهادتَينِ لا يُوجِبُ انتِقالَ الإنسانِ عن الظُّلمِ والجَهلِ إلى العَدلِ

❁ اتِّباعُ الظَّنِّ جَهلٌ، واتِّباعُ هوى النَّفْسِ بغَيرِ هُدًى مِن الله: ظُلمٌ، وجِماعُ الشَّرِّ الجَهلُ والظُّلمُ؛ قال الله تعالى :وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا .

❁ في قَولِه تعالى :وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهُّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أنَّ الذُّنوبَ واقعةٌ مِن بني آدَمَ لا مَحالةَ؛ فكلُّ بني آدمَ ظَلومٌ جهولٌ إلَّا مَن تاب اللهُ عليه .

❁ في قَولِه عزَّ وجَلَّ :وَيَتُوبَ اللهُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُّ غَفُورًا رَحِيمًا ذَكَر التَّوبةَ؛ لعِلْمِه سُبحانَه وتعالى أنَّه لا بُدَّ لكُلِّ إنسانٍ مِن أن يكونَ فيه جَهلٌ وظُلمٌ، ثمَّ يتوبُ اللهُ على مَن يشاءُ، فلا يَزالُ العَبدُ المؤمِنُ دائِمًا يَتبيَّنُ له مِنَ الحَقِّ ما كان جاهِلًا به، ويرجِعُ عن عمَلٍ كان ظالِمًا

فيه، وأدْناه ظُلْمُه لِنَفْسِه، كما قال تعالى :اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وقال تعالى :هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وقال تعالى :الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

❁ قوله تعالى :وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا بِشارةٌ للمُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ بأنَّ اللهَ عامَلَهم بالغُفرانِ والرَّحمةِ .

بلاغةٌ

❁قولُه تعالى :إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّنويهِ بشأنِ الأمانةِ، وتَفخيمِ أمْرِها، وفيه تَقريرٌ للوَعدِ السَّابقِ بتَعظيمِ الطَّاعةِ، وبَيانِ عِظَمِ شأْنِ ما يُوجِبُها مِن التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ، وصُعوبةِ أمْرِها، وبَيَّن ذلك كُلَّه بطَريقِ التَّمثيلِ مع الإيذانِ بأنَّ ما صدَرَ عنهم مِن الطَّاعةِ وتَرْكِها، صدَرَ عنهم بعدَ القَبولِ والالتزامِ، وسمَّاها أمانةً مِن حيثُ إنَّها واجبةُ الأداءِ .

❁ وتَخصيصُ السَّمَواتِ والأرضِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ المَوْجوداتِ؛ لأنَّهما أعظَمُ المعروفِ للنَّاسِ مِن الموجوداتِ ، ولأنَّها أشَدُّ الأمورِ وأحمَلُها للأثقالِ .

❁ وعطْفُ الجِبالِ على الأرضِ ؛ لأنَّ الجبالَ أعظَمُ الأجزاءِ المَعْروفةِ مِن ظاهِرِ الأرضِ، وهي الَّتي تُشاهِدُ الأبصارُ عظَمَتَها ، ولزيادةِ قوَّتِها وصلابتِها؛ تعظيمًا للأمرِ .

❁ قولُه :وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا، جُملةُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الذي يَسمَعُ خَبَرَ أنَّ الإنسانَ تَحمَّلَ الأمانةَ، يَترقَّبُ مَعرفةَ ما كان مِن حُسنِ قيامِ الإنسانِ بما حَمَلَه وتَحمَّلَه، وليستِ الجُملةُ تَعليليَّةً؛ فكيف يُعلَّلُ بأنَّ حَمْلَه الأمانةَ مِن أجْلِ ظُلمِه وجَهلِه؟!

❁ فقولُه :إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا مُؤْذِنٌ بكلامٍ مَحذوفٍ يَدُلُّ هو عليه؛ إذِ التَّقديرُ: وحَمَلَها الإنسانُ فلَمْ يَفِ بها؛ إنَّه كان ظَلومًا جَهولًا، فكأنَّه قيلَ: فكان ظَلومًا جَهولًا، أي: ظَلومًا في عَدَمِ الوَفاءِ بالأمانةِ؛ لأنَّه إجحافٌ بصاحِبِ الحَقِّ في الأمانةِ أيًّا كان، وجَهولًا في عَدَمِ تَقديرِه قَدْرَ إضاعةِ الأمانةِ مِن المُؤاخَذةِ المُتفاوِتةِ المراتبِ في التَّبِعةِ بها .

❁ قولُه :لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فيه الالتِفاتُ إلى الاسمِ الجليلِ (الله) أوّلًا؛ لتَهويلِ الخَطبِ، وتَربيةِ المهابةِ. والإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ ثانيًا وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ؛ لإبرازِ مَزيدِ الاعتناءِ بأمْرِ المُؤمنِينَ والتَّوبةِ عليهم؛ تَوفيةً لكُلٍّ مِن مَقَامَي الوعيدِ والوَعدِ حقَّه .

❁ وقدَّم هنا التَّعذيبَ على التَّوبةِ؛ لأنَّه لَمَّا سمَّى التَّكليفَ أمانةً، والأمانةُ مِن حُكمِها اللّازمِ أنَّ الخائِنَ يَضمَنُ، وليس مِن حُكمِها اللّازمِ أنَّ الأمينَ الباذِلَ جُهدَه يَستفيدُ أُجرةً؛ فكان التَّعذيبُ على الخيانةِ كاللَّازمِ، والأجرُ على الحِفظِ إحسانٌ، والعَدلُ قبْلَ الإحسانِ .

❁ وأيضًا قدَّم مِن الخَوَنةِ أجدَرَهم بذلك، فقال :الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، أي: الَّذين يُظهِرونَ بَذْلَ الأمانةِ كَذِبًا وزُورًا، وهم حامِلونَ لها عريقون في النِّفاقِ .

❁ وعطَفَ وَيَتُوبَ على لِيُعَذِّبَ؛ لِيَجمَعَ لهم بيْنَ العَذابينِ؛ لأنَّ في التَّوبةِ على المُؤمنِينَ إرغامًا للكُفَّارِ .

❁ وقولُه :لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ إلى نِهايةِ السُّورةِ، يَقتَضي أنَّ للأمانةِ المذكورةِ في الآيةِ السابقةِ :إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا مَزيدَ اختصاصٍ بالعِبْرةِ في أحوالِ المُنافقِينَ والمُشركِينَ مِن بيْنِ نَوعِ الإنسانِ في رَعْيِ الأمانةِ وإضاعتِها .

[فاطر: ٣٢]

قال تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾

مُقْتَصِدٌ :أي: غيرُ المُبالِغِ في طاعةِ ربِّه، بل يكونُ عمَلُه قَصْدًا، وهو المستوي الحالِ بيْنَ الحالَين؛ فهو فوقَ الظَّالِمِ لنفْسِه، ودونَ السَّابقِ بالخَيراتِ، وأصلُ (القصد): استِقامةُ الطَّريق

❁ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا. أي: ثمَّ أورَثْنا القُرآنَ أُمَّةَ مُحمَّدٍ ﷺ الَّتي اختَرْناها مِنْ عِبادِنا .

❁ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. أي: فمِنهم مَن هو ظالمٌ لنَفْسِه بالتَّقصيرِ والتَّفريطِ؛ يُفرِّطُ في بعضِ الواجباتِ، ويَفعلُ بعضَ المحرَّماتِ، ويُصِرُّ عليها .

❁ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ. أي: ومنهم مَن عمَلُه قَصْدٌ؛ يُؤدِّي الواجباتِ، ويَترُكُ المحرَّماتِ .

❁ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ. أي: ومِنهم المؤدِّي للفرائضِ والنَّوافلِ، التَّارِكُ للمُحرَّماتِ والمكروهاتِ، فسَبَق غَيْرَه بإذنِ الله تعالى .

❁ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ. أي: ذلك العَطاءُ الَّذي فضَّلَهم اللهُ به على غَيرِهم: هو الفَضلُ الكَبيرُ

فوائد

❁قال الله تعالى :وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ .قَولُه :بِإِذْنِ اللَّهِ راجِعٌ إلى السَّابقِ إلى الخَيراتِ؛ لِئَلَّا يَغترَّ بعَمَلِه، بل ما سبَقَ إلى الخَيراتِ إلَّا بتوفيقِ الله تعالى ومَعونتِه؛ فيَنبغي له أن يَشتَغِلَ بشُكرِ الله تعالى على ما أنعَمَ به عليه ، ويَكْبَحَ نفْسَه عن الاستعلاءِ والفَخْرِ بالطَّاعةِ .

❁ قَولُه تعالى :ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ فيه أنَّ أجَلَّ النِّعَمِ على الإطلاقِ، وأكبَرَ الفَضلِ: وِراثةُ هذا الكِتابِ .وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

❁كان الحَسَنُ يقولُ: (إنَّ المؤمِنينَ قَومٌ ذلَّت -واللهِ- منهم الأسماعُ والأبصارُ والأبدانُ، حتَّى حَسِبَهم الجاهِلُ مرضَى، وهم -واللهِ- أصِحَّاءُ القُلوبِ؛ ألَا تراه يقولُ :وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ، واللهِ لقد كابَدوا في الدُّنيا حَزَنًا شَديدًا، وجرَى عليهم ما جرَى على مَن كان قَبْلَهم، واللهِ ما أحزَنَهم ما أحزَنَ النَّاسَ، ولكِنْ أبكاهم وأحزَنَهم الخَوفُ مِن النَّارِ)

❁ عن إبراهيمَ التَّيميِّ، قال: (ينبغي لِمَن لم يَحزَنْ أن يخافَ أن يكونَ مِن أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ قالوا :الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

❁ في قَولِ الله تعالى :الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إشارةٌ إلى أنَّ الدُّنيا منزلةٌ يَنزِلُها المكلَّفُ، ويَرتَحِلُ عنها قَولُه تعالى :ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فيه فَضْلُ الله ﷻ على هذه الأُمَّةِ؛ حيث أوْرَثَها هذا الكتابَ العظيمَ، وفي قولِه :الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا أنَّ هذه الأُمَّةَ

أفضَلُ الأُممِ، ودلَّ لذلك أيضًا قولُه :كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

❁ في قَولِه تعالى : * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا بِشارةٌ كبيرةٌ لهذه الأُمَّةِ؛ إذ قد وُعِدوا على اختلافِ أحوالِهم، مِن الظُّلمِ والقَصْدِ والمُسابقةِ معًا: بالجنَّةِ، وفيه حُجَّةٌ على المعتزلةِ في بابِ الوعيدِ؛ لإدخالِ الظَّالِمِ نفْسَه الجنَّةَ مع المقتَصِدِ والسَّابقِ بالخَيراتِ بإذنِ الله. وأيضًا فيه حُجَّةٌ على الشُّراةِ -الخوارجِ-؛ فإنَّهم يَعُدُّونَ صغيرَ الذَّنْبِ وكبيرَه كُفرًا، فلو كان المصطفى لَمَّا ظَلَمَ نفْسَه كَفَرَ، لَمَا دخَلَ الجنَّةَ أبدًا -تابَ أو لم يَتُبْ-؛ لأنَّهم لا يَرونَ التَّوبةَ ولا يقولونَ بها !!وقد يقولُ قائِلٌ: يمكِنُ أنْ يُعَارِضَ الخوارجُ والمعتزلةُ هذا الاستِدلالَ بأنْ يقولوا بأنَّ المرادَ بالإثمِ هنا ما دونَ الكبائرِ. فيقالُ: إنَّ ما دونَ الكبائرِ يَقَعُ مَغفورًا بفعلِ الطَّاعاتِ؛ كالصَّلواتِ الخَمْسِ، والجُمُعةِ إلى الجُمُعةِ، ورمضانَ إلى رمضانَ، وحينَئذٍ يَنتفي الظُّلْمُ بمُجرَّدِ فِعلِ هذه الطَّاعاتِ

❁ في قَولِه تعالى :فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ أنَّه قد يُرادُ بالظُّلمِ ما لا يَنقُلُ عنِ المِلَّةِ .

❁ في قَولِه تعالى :فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ تفاضُلُ النَّاسِ في العَمَلِ، ويَتفرَّعُ عليه: تفاضُلُهم في الإيمانِ، والدَّليلُ على تفاضُلِهم في العمَلِ تَقسيمُهم إلى ثلاثةِ أقسامٍ، ويَلزَمُ مِن تفاضُلِهم في العَمَلِ أنْ يتفاضَلوا في الإيمانِ، فيكونُ في ذلك دليلٌ لِمَذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ القائِلينَ بزيادةِ الإيمانِ ونَقصِ الإيمانِ .

❁ في قَولِه تعالى :بِإِذْنِ اللَّهِ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه؛ يقولُ ويَفعلُ ويَترُكُ بغيرِ إذنِ الله !

❁ في قَولِه تعالى :ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ أنَّ أكبرَ فَضْلٍ يَتفضَّلُ اللهُ به على عبْدِه أنْ يُوَفِّقَه للقيامِ بطاعتِه، فمَن ورِثَ هذا الكتابَ عِلْمًا وعمَلًا ودعوةً، فهو الَّذي حاز الفضلَ الكبيرَ، وفي قولِه تعالى :قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ إشارة إلى هذا المعنى .

❁ قولُه تعالى :ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ هذا التَّقسيمُ لأُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ ، والظَّالِمُ لنفْسِه المرادُ به: أصحابُ الذُّنوبِ المُصِرُّونَ عليها، وقولُه بعدَ ذلك :جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا فيه دَلالةٌ لأهلِ السُّنَّةِ على أنَّه لا يُخلَّدُ

في النَّارِ أحدٌ مِن أهلِ التَّوحيد .

❁قولُه :ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ كما هو شأْنُها في عَطفِها الجُمَلَ، فهي هنا لِعَطفِ الجُمَلِ عَطفًا ذِكريًّا، فالمُتعاطفاتُ بها بمَنزلةِ المُستأْنَفاتِ؛ فهذه الجُملةُ كالمستأْنَفةِ، و(ثُمَّ) لِلتَّرَقِّي في الاستِئنافِ، وهذا ارتِقاءٌ في التَّنويهِ بالقُرآنِ المُتضَمِّنِ التَّنويهَ بالرَّسولِ ﷺ، وعُروجٌ في مَسَرَّتِه وتَبشيرِه؛ فبَعْدَ أنْ ذُكِّر بفَضيلةِ كِتابِه -وهو أمْرٌ قد تقرَّرَ لَدَيْه- زِيدَ تَبشيرًا بدَوامِ كِتابِه، وإيتائِه أُمَّةً هم المُصطَفَوْنَ مِن عِبادِ الله تعالى، وتبشيره بأنَّهم يَعمَلونَ به، ولا يَترُكونَه كما ترَك أُمَمُ مَنْ قَبْلَه كُتُبَهم ورُسُلَهم؛ لِقَولِه :فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ الآيةَ، فهذه البِشارةُ أهَمُّ عنْدَ النَّبيِّ ﷺ مِنَ الإخبارِ بأنَّ القرآنَ حَقٌّ مُصَدِّقٌ لِمَا بيْنَ يَدَيْه؛ لِأنَّ هذه البِشارةَ لم تَكُنْ مَعلومةً عِندَه، فوَقْعُها أهَمُّ .

❁ وقيل: في «ثُمَّ» -الدَّالَّةِ على التَّراخي- إشارةٌ إلى الفَترةِ بيْنَ عيسى ومحمَّدٍ ﷺ

❁ قَولُه :ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ على القولِ بأنَّ ثُمَّ هنا تقتضي التَّرخيَ في الزَّمانِ، وأنْ يُقالَ: ثمَّ نورثُه بعدَك المُصْطَفَيْن، فمجيءُ أَوْرَثْنَا ماضيًا: معناه: حَكَمْنا بتَوريثِه مِنك، أو نُورِثُه، فعَبَّرَ عنه بالماضي؛ لِتحَقُّقِه وتَقَرُّرِه، أو: أَوْرَثْناه مِنَ الأُمَمِ السَّالِفةِ، أو وَضَع الماضيَ مَوضِعَ المُستقبَلِ؛ تَنزيلًا لِمَا هو الكائِنُ بمَنزلةِ الكائِنِ، أو لِأنَّ هذه الآيةَ مُتَّصِلةٌ بما سبَقَ مِن قَولِه :إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ أي: قَدَّم اللهُ على إرسالِه -صَلَواتُ الله عليه- إرسالَ الرُّسُلِ في كُلِّ أُمَّةٍ، وعقَّبَه بما يُنبئُ أنَّ تلك الأُمَمَ تفرَّقَتْ حِزبَيْنِ: حِزْبًا كَذَّبوا الرُّسُلَ وما أُنزِلَ معهم، وإليه الإشارةُ بقَولِه :فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وحِزْبًا صَدَّقوهم وآمَنوا وتَلَوْا كِتابَ الله وعَمِلوا بمُقتضاه، وإليه الإشارةُ بقَولِه :إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا وعلى هذا الوَجْهِ يَكونُ أَوْرَثْنَا ماضيًا يَجْري على ظاهِرِه، والعَطفُ على إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ اعتِراضٌ؛ لِبَيانِ كَيفيَّةِ التَّوريثِ .

❁قَولُه :ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا في الإيراثِ مَعنى الإعطاءِ؛ فيَكونُ فِعلُ أَوْرَثْنَا حَقيقًا بأنْ يَنصِبَ مَفعولَيْنِ، وكان مُقتَضى الظاهِرِ أنْ يَكونَ أحَدُ المَفعولَيْنِ -الَّذي

هو الآخِذُ في المَعنى- هو المَفعولَ الأوَّلَ، والآخَرُ ثانيًا، وإنَّما خُولِفَ هنا فقُدِّمَ المفعولُ الثَّاني؛ لِأَمْنِ اللَّبسِ؛ قَصدًا لِلاهتِمامِ بالكِتابِ المُعطَى، وأمَّا التَّنويهُ بآخِذي الكِتابِ فقدْ حَصَل مِنَ الصِّلةِ .

❁ ولَمَّا أُرِيدَ تَعميمُ البِشارةِ مع بَيانِ أنَّهم مَراتبُ فيما بُشِّروا به، جِيءَ بالتَّفريعِ في قَولِه :فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ؛ فهو تَفصيلٌ لمَراتِبِ المُصطفَينَ؛ لِتَشملَ البِشارةُ جميعَ أصنافِهم، ولا يُظَنَّ أنَّ الظَّالِمَ لنَفْسِه محرومٌ منها؛ فمَناطُ الاصْطِفاءِ هو الإيمانُ والإسلامُ .

❁ وقُدِّمَ في التَّفْصيلِ ذِكرُ الظَّالِمِ لِنَفْسِه؛ لِدَفعِ تَوهُّمِ حِرْمانِه مِن الجَنَّةِ، وتَعْجيلًا لِمَسَرَّتِه ؛ فهذا المقامُ أظهرَ اللهُ فيه كرَمَه وشِدَّةَ رحمتِه ولُطفِه بعبادِه، وتعظيمَ هذا القرآنِ العظيمِ، وقوَّةَ آثارِه على مَن أوْرَثهم إيَّاه بدخولِ الجنَّةِ؛ فلذا قدَّم الظَّالمَ لئلَّا ييئسَ مِن رحمةِ الله، وأُخِّرَ السَّابقُ لئلَّا يُعجَبَ بعملِه فيَحبَطَ .

❁ وقال بعضُ العلماءِ: أكثرُ أهلِ الجنَّةِ الظَّالِمونَ لأنفُسِهم؛ لأنَّ الَّذين لم تقَعْ منهم معصيةٌ أقَلُّ مِن غيرِهم؛ لأنَّ اللهَ يقولُ :إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ولَمَّا كان أكثرُ أهلِ الجنَّةِ الظَّالِمِينَ لأنفُسِهم بدَأ بهم؛ لأكثريَّتِهم .

❁ وأيضًا قُدِّمَ الظَّالِمُ، ثمَّ المُقتَصِدُ، ثمَّ السَّابِقُ؛ للإيذانِ بكَثرةِ الفاسِقينَ وغَلَبَتِهم، وأنَّ المُقتَصِدينَ قَليلٌ بالإضافةِ إليهم، والسَّابِقونَ أقَلُّ مِنَ القَليلِ، ولأنَّ الظُّلْمَ بمَعنى الجَهلِ والرُّكونِ إلى الهَوى مُقتَضى الجِبلَّةِ، والاقتِصادُ والسَّبْقُ عارِضانِ .وقيل: خَتَم بالسَّابقينَ؛ لأنَّهم الخُلاصةُ، ولِيَكونوا أقرَبَ إلى الجنَّاتِ، فهو سُبحانَه تارةً يبدأُ بالأدنى، وتارةً بالأعلى؛ بحسَبِ ما يقتَضيه الحالُ

❁ وفي ذِكرِ الخَيْراتِ في قولِه :وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ دَلالةٌ على أنَّها مُرادةٌ في القِسْمَينِ الأوَّلَينِ، فيَؤولُ إلى مَعْنى ظالمٍ لنَفْسِه في الخَيراتِ، ومُقتَصِدٍ في الخَيراتِ أيضًا، ولك أنْ تجعَلَ مَعْنى ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ أنَّه ناقِصُها مِن الخَيراتِ، وفي اختِصاصِ السَّابِقينَ بعدَ التَّقْسيمِ بذِكرِ ثَوابِهم -

وذلك على قولٍ في التفسيرِ- والسُّكوتِ عن الآخَرينَ ما فيه مِن وُجوبِ الحَذَرِ.

❁ وفي قَولِه :بِإِذْنِ اللَّهِ تَنويهٌ بالسَّابِقينَ بأنَّ سَبْقَهم كان بعَونٍ مِن اللهِ وتَيْسيرٍ منه، وتَنْبيةٌ على عِزَّةِ مَنالِ هذه الرُّتْبةِ، وصُعوبةِ مَأْخَذِها .

[ص: ٢٦]

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾

❁ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ. أي: يا داودُ إنَّا استَخلَفْناك في الأرضِ بعدَ مَن كان قَبْلَك؛ لِتأمُرَ بالمعروفِ، وتَنهَى عن المُنكَرِ، وتُدَبِّرَ أمورَ أهلِها الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ بأمْرِنا .

❁ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ. أي: فاحكُمْ بيْن النَّاسِ بالعَدلِ والإنصافِ، وذلك بالحَقِّ المُنَزَّلِ مِن عندِ اللهِ تعالى .

❁ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. أي: ولا تَتَّبِعْ هوَى نَفْسِك المُخالِفَ لأمرِ اللهِ؛ فيُضِلَّك الهوَى عن اتِّباعِ الحَقِّ المُوصِلِ لِرِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه، ويُوقِعَك في الجَورِ والظُّلمِ كما قال تعالى :وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ

❁ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ. لَمَّا ذَكَرَ ما تَرتَّبَ على اتِّباعِ الهَوى، وهو الإضْلالُ عن سَبيلِ اللهِ؛ ذَكَرَ عِقابَ الضَّالِّ ، فقال: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ أي: إنَّ الَّذين يَحيدونَ عن طَريقِ اللهِ لهم عذابٌ شَديدٌ؛ بسَبَبِ نِسيانِهم يومَ القيامةِ، وتَرْكِهم الإيمانَ به، والاستِعدادَ له بالأعمالِ الصَّالحة

فوائِد

❁في قَولِه تعالى :فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ أنَّه لا ينبغي للشَّخصِ إذا وُكِلَ إليه تَوَلِّي القضاءِ أنْ يَفِرَّ منه ما دام يَعرِفُ مِن نفْسِه الكفاءةَ؛ حتَّى لا يتعطَّلَ هذا المَنصِبُ العظيمُ الَّذي هو مَنصِبُ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فإذا أتاه دونَ سؤالٍ فلْيَستَعِنْ بالله، واللهُ يُعينُه عليه ، فمَنصِبُ

القَضاءِ فَرْضُ كفايةٍ -كما قال ذلك أهلُ العِلمِ- وإذا لم يُوجَدْ إلَّا الشَّخصُ المُعَيَّنُ المُؤَهَّلُ، فإنَّه يَكونُ في حقِّه فرضَ عَينٍ .

❁قَولُ الله تعالى :وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فيه أنَّه ينبغي للحاكِمِ أن يَحذَرَ الهَوى، ويَجعَلَه منه على بالٍ؛ فإنَّ النُّفوسَ لا تخلو منه، بل يُجاهِدُ نَفْسَه بأن يكونَ الحَقُّ مَقصودَه، وأن يُلقِيَ عنه وقتَ الحُكمِ كُلَّ مَحبَّةٍ أو بُغضٍ لأحَدِ الخَصمَينِ .

❁ قَولُ الله تعالى :إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ فيه أنَّ السَّبَبَ الأوَّلَ لحُصولِ الضَّلالِ هو نِسيانُ يَومِ الحِسابِ؛ لأنَّه لو كان مُتذكِّرًا ليَومِ الحِسابِ لَمَا أعرَضَ عن إعدادِ الزَّادِ ليَومِ المعادِ، ولَمَا صارَ مُستَغرِقًا في هذه اللَّذَّاتِ الفاسِدةِ

❁ في قَولِه تعالى :بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ الحَذَرُ مِن الانغِماسِ في الدُّنيا؛ الَّذي يُوجِبُ نِسيانَ يومِ الحسابِ، وكلُّ لَهوٍ يَصُدُّ عن سبيلِ الله يُنسِي يومَ الحسابِ

❁ قَولُه تعالى :بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ فيه التَّرهيبُ مِن نسيانِ القيامةِ، قال تعالى :فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا

❁ في قَولِه تعالى :فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ أنَّه يجِبُ الحُكمُ بيْنَ النَّاسِ بالحقِّ؛ سواءٌ كان ذلك في طريقِ الحُكمِ أو في نفْسِ الحُكمِ، أمَّا طريقُ الحكمِ؛ فهو معاملةُ الخَصمينِ بحيثُ تكونُ المعامَلةُ بيْنَهما على وجهِ العدلِ، وألَّا يميلَ إلى أحَدِ الخَصمَينِ أو يحابيه؛ لِقَرابةٍ، أو لجاهِه، أو سبَبٍ يقتَضي المَيلَ، ويُؤيِّدُ هذا قَولُه :وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى، وأمَّا في الحكمِ؛ فأنْ يَحكُمَ بما تقتضيه الشَّريعةُ .

❁ قَولُ الله تعالى :يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ فيه أنَّ الحُكمَ بيْنَ النَّاسِ مَرتبةٌ دينيَّةٌ تولَّاها رُسُلُ الله وخواصُّ خَلقِه، وأنَّ وَظيفةَ القائِمِ بها: الحُكمُ بالحَقِّ، ومُجانبةُ الهوى؛ فالحُكمُ بالحَقِّ يَقتَضي العِلمَ بالأُمورِ الشَّرعيَّةِ، والعِلمَ بصُورةِ القَضيَّةِ المحكومِ فيها، وكيفيَّةَ إدخالِها في الحُكمِ الشَّرعيِّ؛ فالجاهِلُ بأحَدِ الأمْرَينِ لا يَصلُحُ للحُكمِ، ولا يَحِلُّ له الإقدامُ عليه .

❁ المعروفُ في استِعمالِ الهوَى عندَ الإطلاقِ: أنَّه المَيلُ إلى خلافِ الحقِّ، كما في قولِه ﷺ :وَلَا

تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

❁ قال الله تعالى :يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى، ولذلك اشتَرَط العُلَماءُ في الخَليفةِ شُروطًا كُلُّها تَحومُ حوْلَ الحَيلولةِ بيْنَه وبيْنَ اتِّباعِ الهوَى، وما يُوازيه مِنَ الوُقوعِ في الباطِلِ، وهي: التَّكليفُ، والحُرِّيَّةُ، والعَدالةُ، والذُّكورةُ

❁ مُجَرَّدُ الحبِّ والبغضِ هو هوًى، لكنَّ المُحَرَّمَ منه هو اتِّباعُ حُبِّه وبُغْضِه بغيرِ هُدًى مِن اللهِ؛ ولهذا قال اللهُ سبحانه لنَبيِّه داودَ عليه السَّلامُ :وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، فأخبَرَ أنَّ مَنِ اتَّبَعَ هواه أضَلَّه ذلك عن سَبيلِ الله، وهو هُداهُ الَّذي بَعَثَ به رَسولَه، وهو السَّبيلُ إليه – .قال الله تعالى :وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لم يَنْهَه عن هوى النَّفْسِ، ولكِنْ نهاه عن اتِّباعِ هواها؛ لأنَّ النَّفْسَ قد تَهوى في الحُكمِ بغيرِ حَقٍّ؛ حيث قال :فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى؛ لأنَّ النَّفْسَ أُنشِئَت على الهوى والمَيلِ إلى اللَّذَّاتِ والشَّهواتِ، وعلى ذلك طُبِعَت وبُنِيَت؛ فيكونُ في هواها إلى ما تَهوى مدفوعًا غيرَ مالِكٍ ولا قادِرٍ على دَفْعِه؛ لذلك لم يَنْهَه عن هواها، ولكِنْ نهاه عن اتِّباعِ هواها، ويَقدِرُ على مَنْعِها بالعَقلِ، ورَدِّها إلى اتِّباعِ الحَقِّ؛ لذلك كان ما ذَكَر. واللهُ أعلَمُ .

❁ في قولِه تعالى :فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أنَّ اتِّباعَ الهوَى يَجلِبُ للإنسانِ الضَّلالَ، كما أنَّه هو نَفْسُه ضَلالٌ، فإذا اتَّبَعتَ الهوى في قَضيَّةٍ ما فانتَظِرِ اتِّباعَ الهوى في القَضيَّةِ الَّتي تليها؛ لأنَّ المَعصيةَ قَبْلَ أنْ يَقَعَ فيها الإنسانُ يَجِدُ نَفْسَه تَستوحِشُ منها وتَنفِرُ، فإذا فَعَلَها مَرَّةً هانتْ عليه، وانكسرَ الحِجابُ، فإذا هانتْ عليه أوَّلَ مَرَّةٍ هانتْ عليه الثَّانيةُ ثمَّ الثَّالثةُ، حتَّى تُصبِحَ وكأنَّها لا شَيءَ؛ ولهذا يَضرِبُ العامَّةُ مَثَلًا له فائِدةٌ، يقولونَ: «بكثرةِ الإمسَاسِ يَقِلُّ الإحساسُ»، يعني: إذا أكثَرَ الإنسانُ مُماسَّةَ الشَّيءِ قَلَّ إحساسُه به .

❁قولُ الله تعالى :وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ في جَعلِ الضَّلالِ عن سَبيلِ الله، ونِسيانِ يومِ الحِسابِ سَبَبينِ لاستِحقاقِ العَذابِ الشَّديدِ: تَنبيهٌ على تلازُمِهما؛ فإنَّ الضَّلالَ عن سَبيلِ الله يُفضي إلى الإعراضِ عن مُراقَبةِ الجَزاءِ .

❁ أنَّ دِينَ الله تعالى واحِدٌ لا يَتشعَّبُ؛ لِقَولِه تعالى :عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فأفرَدَها، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى :وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ فسَبيلُ الله واحِدةٌ، وما خالَفَها فهو المُتَشَتِّتُ؛ فهذا سَبَبُه الهوى، وهذا سَبَبُه خَشيةُ الناسِ، وهذا سَبَبُه كذا، وهذا سَبَبُه كذا؛ فتتفَرَّقُ السُّبُلُ .

❁ أنَّ مِن أسبابِ الضَّلالِ عن سَبيلِ الله نِسيانَ يومِ الحِسابِ، والغفلةَ عنه، والانغماسَ في الدُّنيا حتَّى تُنسِيَ الإنسانَ ما خُلِقَ له، وما هو مُقبِلٌ عليه؛ ولهذا قال تعالى :بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ أي: غَفَلوا عنه، وليس المرادُ بالنِّسيانِ الذُّهولَ الَّذي يُعفَى عنه، بلِ المرادُ بالنِّسيانِ التَّركُ الَّذي هو الغَفلةُ، وعَدَمُ المُبالاةِ به .

❁ إثباتُ الأسبابِ؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى :بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ؛ لأنَّ الباءَ هذه للسَّبَبيَّةِ .

❁ مُناسَبةُ ذِكرِ الله تعالى قصَّةَ داودَ عليه السَّلامُ في سورةِ (ص): أنَّهم لَمَّا قالوا أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا كان في ذلك الكلامِ إشعارٌ بهَضمِ جانبِه، فغار الله لذلك، وبيَّن أنَّهم ليس عندَهم خزائنُ رحمتِه، ولا لهم مُلكٌ، وأنَّهم جندٌ مهزومون. وكأنَّه يقولُ: وما قدرُ هؤلاء؟ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ واذكُرْ مَن آتَيْناه المُلكَ العظيمَ في الدُّنيا، مع ما لَه في الآخرةِ، وهو أخوك، وأنت عندَنا أرفَعُ رتبةً منه. وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ مِن وجهينِ:

أحدهما :أنَّ النَّبيَّ ﷺلا شكَّ أنَّه يَفرَحُ لإخوتِه الأنبياءِ بما يَحصُلُ لهم مِن الخَيرِ، كما لو حصَل لِنَفْسِه، سواء بسواء، وأكثر.

والثَّاني :أنَّه يعلمُ أنَّ رتبتَه عندَ الله أكمَلُ. وإذا ذكَر هذَينِ الأمْرَينِ، احتقَر قُرَيشًا فيه، وعلِم أنَّ الَّذي أُوتوه وافتَخَروا به لا شيءَ. فهذا وجهُ المناسبةِ

❁ وقَولُه :فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مُفرَّعٌ على جَعْلِه خَليفةً؛ فأمَرَه بأنْ يَحكُمَ بيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ ذلك واجِبُه، وأنه أحَقُّ النَّاسِ بالحُكمِ بالعَدلِ؛ ذلك لِأنَّه هو المَرجِعُ لِلمَظلومينَ، والَّذي تُرفَعُ إليه مَظالِمُ الظَّلَمةِ مِنَ الوُلاةِ، فإذا كان عادِلًا خَشِيَه الوُلاةُ والأُمراءُ؛ لِأنَّه ألِفَ العَدلَ، وكَرِهَ الظُّلْمَ فلا يُقِرُّ ما يَجري منه في رَعيَّتِه كُلَّما

بَلَغَه، فيَكونَ الناسُ في حَذَرٍ مِن أنْ يَصدُرَ عنهم ما عَسى أنْ يُرفَعَ إلى الخَليفةِ فيَقتَصَّ مِنَ الظَّالِمِ، وأمَّا إنْ كانَ الخَليفةُ يَظلِمُ في حُكمِه، فإنَّه يَألَفُ الظُّلْمَ، فلا يُغضِبُه إذا رُفِعتْ إليه مَظلِمةُ شَخصٍ، ولا يَحرِصُ على إنصافِ المَظلومِ، والمُرادُ بالنَّاسِ ناسُ مَملَكَتِه؛ فالتَّعريفُ لِلعَهدِ، أو هو لِلاستِغراقِ العُرفيِّ .

❁ وأيضًا قَولُه :فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أمْرٌ بالدَّيمومةِ، وتَنبيهٌ لِغَيرِه ممَّن وَلِيَ أُمورَ النَّاسِ؛ فمِن حيثُ هو مَعصومٌ لا يَحكُمُ إلَّا بالحَقِّ أُمِرَ أوَّلًا بالحُكمِ، ولَمَّا كان الهَوى قد يَعرِضُ لِغَيرِ المَعصومِ أُمِرَ باجتِنابِه، وذَكَر نَتيجةَ اتِّباعِه؛ وهي إضلالُه عن سَبيلِ الله .

❁ وتَقدَّمَ الأمْرُ بالحُكمِ بالحَقِّ على قَولِه :وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى؛ لِيَكونَ تَوطِئةً لِلنَّهيِ عن اتِّباعِ الهَوى؛ سَدًّا لِذَريعةِ الوُقوعِ في خَطَأِ الحَقِّ؛ فإنَّ داودَ عليه السَّلامُ ممَّن حَكَمَ بالحَقِّ، فأمْرُه به باعتِبارِ المُستَقبَلِ .

❁والهَوى: كِنايةٌ عن الباطِلِ والجَورِ والظُّلمِ .

والتَّعريفُ في الهَوَى تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ لِلاستِغراقِ؛ فالنَّهيُ يَعُمُّ كُلَّ ما هو هَوًى؛ سواءٌ كان هَوى المُخاطَبِ، أو هَوى غَيرِه، مِثلَ هَوى زَوجِه ووَلَدِه، وسَيِّدِه وصَديقِه .

❁ وأيضًا النَّهيُ عن اتِّباعِ الهَوى تَحذيرٌ له، وإيقاظٌ؛ لِيَحذَرَ مِن جَرَّاءِ الهَوى، ويَتَّهِمَ هَوى نَفْسِه، ويَتعَقَّبَه، فلا يَنقادَ إليه فيما يَدعوه إليه إلَّا بعدَ التَّأمُّلِ والتَّثبُّتِ، والاستِرسالُ في اتِّباعِ الشَّهَواتِ وُقوعٌ في الرَّذائِلِ في الأغلَبِ؛ ولهذا جَعَلَ هنا الضَّلالَ عن سَبيلِ الله مُسبَّبًا عنِ اتِّباعِ الهَوى، وهو تَسبُّبٌ أغلَبيٌّ عُرفيٌّ؛ فشَبَّهَ الهَوى بسائِرٍ في طَريقٍ مهلكةٍ، وعَبَّرَ عن ذلك بالإضْلالِ عن طَريقِ الرَّشادِ، المُعبَّرِ عنه بسَبيلِ الله؛ فإنَّ الَّذي يَتَّبِعُ سائِرًا غَيرَ عارِفٍ بطَريقِ المَنازِلِ النَّافِعةِ، لا يَلبَثُ أنْ يَجِدَ نَفْسَه وإيَّاه في مهلكةٍ أو مَقطَعةِ طَريقٍ

❁ وقَولُه :فَيُضِلَّكَ جَوابٌ لِلنَّهيِ في قولِه :وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى

❁وقَولُه :عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فيه الثَّناءُ العظيمُ على شَريعةِ الله؛ وذلك بإضافتِها إلى الله؛ لأنَّ كلَّ ما

أُضيفَ إلى الله -إذا كانتِ الإضافةُ خاصَّةً- فإنَّ الإضافةَ تدُلُّ على شَرَفِه .

❁ والباءُ في بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ سَبَبيَّةٌ، و(ما) مَصدَريَّةٌ، أيْ: بسَبَبِ نِسيانِهم يومَ الحِسابِ .

❁ والنِّسيانُ في قَولِه :بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ :مُعبَّرٌ به عن الإعراضِ الشَّديدِ؛ لأنَّه يُشبِهُ نِسيانَ المُعرَضِ عنه .

[غافر: ٨-٩]

قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾

❁لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ يُبالِغونَ في إظهارِ العَداوةِ مع المؤمنينَ؛ بيَّنَ أنَّ أشرَفَ طَبَقاتِ المخلوقاتِ هم الملائِكةُ الَّذين هم حَمَلةُ العَرشِ، والحافُّونَ حَوْلَ العَرشِ؛ يُبالِغونَ في إظهارِ المَحبَّةِ والنُّصرةِ للمُؤمِنينَ، كأنَّه تعالى يقولُ: إنْ كان هؤلاء الأراذِلُ يُبالِغونَ في العَداوةِ، فلا تُبالِ بهم، ولا تَلتَفِتْ إليهم، ولا تُقِمْ لهم وَزنًا؛ فإنَّ حَمَلةَ العَرشِ معك، والحافُّونَ مِن حَوْلِ العَرشِ معك يَنصُرونَك .

❁ وأيضًا لَمَّا ذكَرَ جِدالَ الكفَّارِ في آياتِ اللهِ وعِصيانَهم؛ ذكَرَ طاعةَ هؤلاء المُصطَفَيْنَ مِن خَلقِه، وهُم حَمَلةُ العَرشِ ومَن حَوْلَه، وهُمُ الحافُّونَ به مِنَ المَلائكةِ .

❁ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ أي: الملائِكةُ الَّذين يَحمِلونَ عَرشَ الرَّحمنِ والملائِكةُ المُقَرَّبونَ الَّذين يَحُفُّونَ بالعَرشِ يُنَزِّهونَ رَبَّهم عن النَّقائِصِ تَنزيهًا مُقتَرِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحَبَّةً وتعظيمًا، ويُؤمِنونَ برَبِّهم، فيُقِرُّونَ بوُجودِه ورُبوبيَّتِه وألوهيَّتِه، وأسمائِه وصِفاتِه، ويُقِرُّونَ بأنَّه الإلهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه؛ فلا يَستكبِرونَ عن عِبادتِه .قال الله سُبحانَه وتعالى :وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ

❁ وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ، قال : أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ مِن مَلائِكةِ اللهِ مِن حَمَلةِ العَرشِ: إنَّ ما بيْنَ شَحْمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سَبْعِمئةِ عامٍ

❁ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا. أي: ويَطلُبونَ مِن اللهِ المَغفرةَ للَّذين آمَنوا بما يجِبُ الإيمانُ به، وأقَرُّوا بوَحدانيَّةِ الله، وتَبَرَّؤوا مِن كُلِّ مَعبودٍ سِواه . كما قال الله سبحانَه وتعالى :وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ

❁ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا. لَمَّا كانت المَغفِرةَ لها لوازِمُ لا تَتِمُّ إلَّا بها غيرُ ما يَتبادَرُ إلى كثيرٍ مِن الأذهانِ؛ أنَّ سُؤالَها وطَلَبَها غايتُه مُجَرَّدُ مَغفرةِ الذُّنوبِ- ذكَرَ تعالى صِفةَ دُعائِهم لهم بالمَغفِرةِ، بذِكرِ ما لا تَتِمُّ إلَّا به، فقال :

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا. أي: تَقولُ الملائِكةُ: يا رَبَّنا وَسِعَتْ رَحمتُك كُلَّ شَيءٍ، ووَسِعَ عِلمُك كُلَّ شَيءٍ، فما مِن شَيءٍ إلَّا شَمِلَتْه رحمتُك، ونالَه منها حَظٌّ ونصيبٌ، وأحاطَ به عِلمُك .

❁فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ. أي: فاستُرِ الذُّنوبَ وتَجاوَزْ عن المؤاخَذةِ بها: للَّذين تابوا مِنَ الشِّركِ والمعاصي، والتَزَموا بما شرَعْتَه مِن دينِ الإسلامِ، فوَحَّدوك وعَمِلوا بما أمَرْتَهم به، وانتهَوا عمَّا نَهَيْتَهم عنه

❁ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. أي: واصرِفْ عنهم عذابَ النَّارِ يومَ القيامةِ

❁ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أنَّه لَمَّا طَلَب الملائِكةُ مِنَ اللهِ إزالةَ العَذابِ عنهم؛ أردَفوه بأنْ طَلَبوا مِنَ اللهِ إيصالَ الثَّوابِ إليهم ؛ إذ كانت النَّجاةُ مِنَ العذابِ لا تَستلزِمُ الثَّوابَ .

❁ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ. أي: يا رَبَّنا وأدخِلِ الَّذين تابُوا واتَّبَعوا سَبيلَك جنَّاتِ عَدْنٍ الَّتي وعَدْتَهم بإدخالِهم إيَّاها . كما قال تعالى :إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا

❁ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ. أي: وأدخِلْ جنَّاتِ عَدْنٍ أيضًا مَنْ صَلَح في الدُّنيا مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم، فآمَنَ وعَمِلَ الصَّالحاتِ كما قال الله تعالى :جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ _ وقال سُبحانَه :وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ

❁ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. أي: إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، ولا يُرامُ جَنابُه، فأنت ذو القَدْرِ والسِّيادةِ، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الحَكيمُ في شَرْعِك وقَدَرِك وتدبيرِ خَلْقِك، فتَضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به

❁ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لَمَّا كان طلَبُ الغُفرانِ يَتضمَّنُ إسقاطَ العَذابِ؛ أَردَفوهُ بالتَّضرُّعِ بوِقايَتِهمُ العَذابَ على سبيلِ المُبالَغةِ والتَّأكيدِ .وأيضًا لَمَّا كان الإنسانُ قد يُغفَرُ له ويُكرمُ، وفيه مِنَ الأخلاقِ ما رُبَّما حَمَلَه على بعضِ الأفعالِ النَّاقِصةِ، دَعَوْا لهم بالكمالِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، فقالوا :

❁ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ. أي: واحفَظِ المؤمِنينَ الَّذين تابوا واتَّبَعوا سَبيلَك ممَّا يَسوؤُهم، مِن ارتِكابِ الأعمالِ السَّيِّئةِ، وعُقوباتِها الَّتي تَسوءُ أصحابَها .

❁ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ. أي: ومَن تَصْرِفْ عنه سوءَ عاقِبةِ سَيِّئاتِه يومَ القيامةِ فقد رَحِمْتَه بالنَّجاةِ مِن عَذابِك، ودُخولِ جنَّتِك .

❁ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. أي: والنَّجاةُ مِن النَّارِ ودُخولُ الجنَّةِ في الآخرةِ هو الفَوزُ الكبيرُ الَّذي لا فَوْزَ مِثلُه .كما قال الله تعالى :فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وقال سُبحانَه :يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

الفوائد

❁ في قَولِه تعالى: وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هذا مِن جُملةِ فَوائِدِ الإيمانِ وفَضائِلِه الكثيرةِ جِدًّا: أنَّ الملائِكةَ الَّذين لا ذُنوبَ عليهم يَستَغفِرونَ لأهلِ الإيمانِ؛ فالمؤمِنُ بإيمانِه تسَبَّبَ لهذا الفَضلِ

العَظيمِ . وفيه الحَثُّ على الإيمانِ؛ حتَّى تَدخُلَ ضِمْنَ مَن تَستَغفِرُ لهم الملائِكةُ، والإيمانُ كلُّه خَيرٌ وسُرورٌ، ونِعمةٌ في القَلبِ، ونِعمةٌ في البَدَنِ، حتَّى البلاءُ الَّذي يُصيبُ المؤمِنَ هو له خَيرٌ؛ لذا فاحرِصْ على تَحقيقِ إيمانِك بفِعلِ الوَسائلِ الَّتي تُنَمِّي هذا الإيمانَ وتُغَذِّيه وتُقَوِّيه .

❋ قَولُ الله تعالى: وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فيه تنبيهٌ على أنَّ الاشتِراكَ في الإيمانِ يَجِبُ أن يكونَ أدعى شَيءٍ إلى النَّصيحةِ، وأبْعَثَه على إمحاضِ الشَّفَقةِ، وإن تفاوَتَت الأجناسُ، وتباعَدَت الأماكِنُ .

❋ قَولُ الله تعالى: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا فيه أنَّ السُّنَّةَ في الدُّعاءِ أن يُبدَأَ فيه بالثَّناءِ على اللهِ تعالى، ثمَّ يُذكَرَ الدُّعاءُ عَقِيبَه .

❋ قولُه تعالى: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فيه سَعَةُ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ قال قائلٌ: كيف يَصِحُّ ذلك وأكثرُ بني آدمَ كُفَّارٌ! فأين الرَّحمةُ؟

فالجواب: هم مَرحومونَ بالرَّحمةِ العامَّةِ، مَن يُخرِجُ لهمُ النَّباتَ؟ مَن يُنزِلُ لهمُ المطرَ؟ مَن يَجْعَلُهم أصِحَّاءَ؟ مَن يُمَتِّعُهم بالأسماعِ والأبصارِ إلَّا اللهُ؟! وهذه رحمةٌ، فرحمةُ اللهِ وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ ، وفي الآيةِ أيضًا سَعَةُ عِلْمِ اللهِ تعالى؛ لقولِه: وَعِلْمًا، ويترتَّبُ على هاتَينِ الفائدتَينِ أنَّ الإنسانَ متى عَلِمَ ذلك تَعَرَّضَ لرحمةِ اللهِ لعلَّه يَكونُ مِن الدَّاخِلِينَ فيها، وإذا آمَنَ بسَعَةِ عِلْمِ اللهِ استحيا مِن اللهِ أنْ يَفْقِدَه حيثُ أمَرَه، أو يَجِدَه حيثُ نَهاه . الفوائد العلمية واللطائف:

❋ في قَولِه تعالى :الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ إثباتُ أنَّ لهذا العَرشِ حَمَلةً، وإثباتُ الحَمَلةِ له –مع قُدرةِ اللهِ سُبحانه وتعالى على إمساكِه بدونِ حَمَلةٍ– إشعارٌ بتَعظيمِه، وأنَّه عظيمٌ مُعتنًى به؛ ولهذا فإنَّ اللهَ قال في السَّمَواتِ :بِغَيْرِ عَمَدٍ ولم يَذْكُرْ لها حَمَلةً، والعَرشُ ذَكَرَ له حَمَلةً مع أنَّ الَّذي أمسَك السَّمَواتِ والأرضَ أنْ تَزولا قادِرٌ على إمساكِ العَرشِ بلا حَمَلةٍ، لكنْ هذا مِن بابِ التَّعظيمِ والتَّنويهِ بشَرَفِه وعَظَمتِه .

❋ قَولُ الله تعالى :الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ استِغفارَ الملائِكةِ لأهلِ الأرضِ

خاصٌّ بالمؤمِنينَ منهم، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يدُلُّ ظاهِرُها على خِلافِ ذلك، وهي قَولُه تعالى :وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ

الجواب: أنَّ آيةَ (غافر) مُخَصِّصةٌ لآيةِ (الشورى)، والمعنى: ويَستَغفِرونَ لِمَن في الأرضِ مِنَ المؤمِنينَ؛ لِوُجوبِ تخصيصِ العامِّ بالخاصِّ .

❁ دُعاءُ الملائكةِ في قَولِه تعالى :الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ... إلى آخِرِ الدُّعاءِ، تَضَمَّنَ أمورًا؛ منها:

❁ أوَّلًا :قد تَضَمَّنَ هذا الدُّعاءُ مِن الملائكةِ كَمالَ مَعرفتِهم برَبِّهم، والتَّوسُّلَ إلى اللهِ بأسمائِه الحُسنى الَّتي يُحِبُّ مِن عِبادِه التَّوسُّلَ بها إليه، والدُّعاءَ بما يناسِبُ ما دَعَوُا اللهَ فيه؛ فلمَّا كان دعاؤُهم بحُصولِ الرَّحمةِ، وإزالةِ أثَرِ ما اقتَضَتْه النُّفوسُ البَشَريَّةُ الَّتي عَلِمَ اللهُ نَقْصَها واقتِضاءَها لِما اقتَضَتْه مِنَ المعاصي، ونحوِ ذلك مِن المَبادئِ والأسبابِ الَّتي قد أحاط اللهُ بها عِلمًا- تَوَسَّلوا بالرَّحيمِ العَليمِ، وتضَمَّن كَمالَ أدَبِهم مع الله تعالى بإقرارِهم برُبوبيَّتِه لهم الرُّبوبيَّةَ العامَّةَ والخاصَّةَ، وأنَّه ليس لهم مِنَ الأمرِ شَيءٌ، وإنَّما دُعاؤُهم لرَبِّهم صَدَر مِن فَقيرٍ بالذَّاتِ مِن جَميعِ الوُجوهِ لا يُدِلُّ على رَبِّه بحالةٍ مِن الأحوالِ، إنْ هو إلَّا فَضلُ الله وكَرَمُه وإحسانُه.

❁ ثانيًا :تضَمَّن أيضًا مُوافقَتَهم لرَبِّهم تمامَ المُوافَقةِ، بمَحبَّةِ ما يُحِبُّه مِن الأعمالِ الَّتي هي العِباداتُ الَّتي قاموا بها، واجتَهَدوا اجتِهادَ المُحِبِّينَ، ومِن العُمَّالِ الَّذين هم المؤمِنونَ الَّذين يحِبُّهم اللهُ تعالى مِن بيْنِ خَلْقِه؛ فسائرُ الخَلقِ المُكَلَّفينَ يُبغِضُهم اللهُ إلَّا المؤمنينَ منهم، فمِن مَحَبَّةِ الملائكةِ لهم دَعَوُا اللهَ، واجتَهَدوا في صَلاحِ أحوالِهم؛ لأنَّ الدُّعاءَ للشَّخصِ مِن أدَلِّ الدَّلائِلِ على محَبَّتِه؛ لأنَّه لا يدعو إلَّا لِمَن يُحِبُّه

❁ ثالثًا :تضَمَّن ما شَرَحه اللهُ وفَصَّله مِن دُعائِهم بعْدَ قَولِه :وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا التَّنبيهَ اللَّطيفَ على كيفيَّةِ تدَبُّرِ كِتابِه، وألَّا يَكونَ المُتدَبِّرُ مُقتَصِرًا على مجرَّدِ معنى اللَّفظِ بمُفردِه، بل يَنبغي له أن يَتدبَّرَ معنى اللَّفظِ، فإذا فَهِمَه فَهمًا صَحيحًا على وَجْهِه نظَرَ بعَقلِه إلى ذلك الأمرِ،

والطُّرُقِ المُوصِلةِ إليه، وما لا يَتِمُّ إلَّا به، وما يتوقَّفُ عليه، وجزَم بأنَّ اللهَ أراده، كما يَجزِمُ أنَّه أراد المعنى الخاصَّ الدَّالَّ عليه اللَّفظُ، والَّذي يُوجِبُ له الجَزمَ بأنَّ اللهَ أراده أمْرانِ؛ أحَدُهما :مَعرفتُه وجَزْمُه بأنَّه مِن توابِعِ المعنى والمتوقِّفُ عليه .والثَّاني :عِلمُه بأنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، وأنَّ اللهَ أمَرَ عِبادَه بالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ في كتابِه. وقد عَلِمَ تعالى ما يَلزَمُ مِن تلك المعاني، وهو المُخبِرُ بأنَّ كِتابَه هُدًى ونُورٌ وتِبيانٌ لكُلِّ شَيءٍ، وأنَّه أفصَحُ الكَلامِ وأجَلُّه إيضاحًا، فبذلك يَحصُلُ للعَبدِ مِن العِلمِ العَظيمِ والخَيرِ الكثيرِ بحَسَبِ ما وفَّقَه اللهُ له.

❁ رابعًا :قَولُ الله تعالى :رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ تضَمَّن أنَّ المقارِنَ مِن زَوجٍ وولَدٍ وصاحِبٍ: يَسعَدُ بقَرينِه، ويَكونُ اتِّصالُه به سَببًا لخَيرٍ يَحصُلُ له خارِجًا عن عَمَلِه وسَبَبِ عَمَلِه، كما كانت الملائِكةُ تدعو للمؤمِنينَ ولِمَن صَلَح مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم، وقد يُقالُ: إنَّه لا بُدَّ مِن وُجودِ صَلاحِهم؛ لِقَولِه :وَمَنْ صَلَحَ؛ فحينَئِذٍ يكونُ ذلك مِن نتيجةِ عَمَلِهم .

❁قَولُه تعالى :الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُوجِبُ أنَّ لله تعالى عَرشًا يُحمَلُ، ويُوجِبُ أنَّ ذلك العَرشَ ليس هو المُلْكَ، كما تَقولُه طائِفةٌ مِن الجَهميَّةِ؛ فإنَّ المُلْكَ هو مجموعُ الخَلقِ، فهنا دَلَّت الآيةُ على أنَّ لله ملائِكةً مِن جُملةِ خَلْقِه يَحمِلونَ عَرشَه، وآخَرونَ يكونونَ حَوْلَه

❁قَولُ الله تعالى :الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ لَمَّا كان رُبَّما وقَعَ وَهمٌ أنَّه سُبحانَه مُحتاجٌ إلى حَمَلِهم لِعَرشِه، أو إلى عَرشِه، أو إلى شَيءٍ؛ نَبَّه بالتَّسبيحِ على أنَّه غَنيٌّ عن كُلِّ شَيءٍ .

❁ المَيتُ يَنتفِعُ بدُعاءِ الخَلْقِ له، واتَّفَقَ أئمَّةُ الإسلامِ على ذلك، ودلَّ عليه كِتابُ الله تعالى؛ كقَولِه عزَّ وجَلَّ :الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ... إلى قَولِه سُبحانَه :وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ... ؛ فقد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ الملائِكةَ يَدْعُونَ للمُؤمِنينَ بالمَغفِرةِ، ووِقايةِ العَذابِ، ودُخولِ الجنَّةِ .

❋ قال الله تعالى :الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ تأمَّلْ ما تضَمَّنَه هذا الخبَرُ عن الملائِكةِ مِن مَدْحِهم بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، والإحسانِ إلى المؤمِنينَ بالاستِغفارِ لهم، وقَدَّموا بيْنَ يَدَي استِغفارِهم تَوسُّلَهم إلى الله تعالى بسَعةِ عِلمِه وسَعةِ رَحمتِه؛ فسَعةُ عِلمِه تَتضَمَّنُ عِلمَه بذُنوبِهم وأسبابِها، وضَعفِهم عن العِصمةِ، واستيلاءِ عَدُوِّهم وأنفُسِهم وهواهم وطِباعِهم، وما زُيِّنَ لهم مِن الدُّنيا وزينتِها، وعِلمَه بهم إذ أنشَأَهم مِن الأرضِ وإذ هم أجِنَّةٌ في بُطونِ أمَّهاتِهم، وعِلمَه السَّابِقَ بأنَّهم لا بُدَّ أن يَعصُوه، وأنَّه يُحِبُّ العَفوَ والمَغفِرةَ، وغيرَ ذلك مِن سَعةِ عِلمِه الَّذي لا يُحيطُ به أحَدٌ سِواه. وسَعةُ رَحمتِه تَتضَمَّنُ أنَّه لا يَهلِكُ عليه أحَدٌ مِن المؤمِنينَ به أهلِ تَوحيدِه ومَحبَّتِه؛ فإنَّه واسِعُ الرَّحمةِ لا يَخرُجُ عن دائرةِ رَحمتِه إلَّا الأشقياءُ، ولا أشقَى ممَّن لم تَسَعْه رَحمتُه الَّتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ .

❋قولُه تعالى :وَيُؤْمِنُونَ بِهِ فيه أنَّ الملائكةَ مُكَلَّفون، ووجْهُ الدَّلالةِ: أنَّهم لولا أنَّهم مُكَلَّفون قد قاموا بها كُلِّفوا به؛ لم يَكونوا مُستحِقِّينَ للثَّناءِ بالإيمانِ! لو كان هذا مِن طبيعتِهم وسَجِيَّتِهم لم يكنْ للثَّناءِ عليهم بذلك كبيرُ فائدةٍ .

❋في قَولِه تعالى :وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إلى قولِه سبحانه :وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ دليلٌ على كرامةِ المؤمنِ على الله؛ إذْ قد أَلْهَم حَمَلةَ عرْشِه ومَن حَوْلَه الاستِغفارَ له، والدُّعاءَ، وما فيه –له ولآبائِه وأزواجِه وذُرِّيَّاتِه– النَّجاةُ .

❋قال الوَزيرُ ابنُ هُبَيرةَ في قَولِه تعالى :فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ :عَلِمَت الملائِكةُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُحِبُّ عبادَه المؤمنينَ، فتَقرَّبوا إليه بالشَّفاعةِ فيهم، وأحسَنُ القُرَبِ أنْ يُسأَلَ المُحِبُّ إكرامَ حَبيبِه؛ فإنَّك لو سألْتَ شَخصًا أن يَزيدَ في إكرامِ وَلَدِه لارتفَعْتَ عندَه؛ حيثُ تَحُثُّه على إكرامِ محبوبِه

❋يُتوسَّلُ إلى الله سُبحانَه وتعالى بصِفاتِه كما يُتَوَسَّلُ إليه بأسمائِه، فهنا تَوسَّلَ الملائكةُ إلى الله بالرُّبوبيَّةِ في قَولِهم :رَبَّنَا، وتوسَّلوا إليه بسَعةِ الرَّحمةِ :وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً، وبسَعةِ

العلمِ :وَعِلْمًا، والتَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بصِفاتِه هو مِن أسبابِ إجابةِ الدُّعاءِ، كالتَّوسُّلِ إليه بأسمائِه .

❁ الدُّعاءُ في أكثَرِ الأمرِ مَذكورٌ بلَفظِ (رَبَّنا)، ويدُلُّ عليه أنَّ الملائِكةَ عندَ الدُّعاءِ قالوا :رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا، وقال آدَمُ عليه السَّلامُ :رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وقال نوحٌ عليه السَّلامُ :رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ إلى غيرِ ذلك؛ فثَبَت أنَّ مِن أرضَى الدُّعاءِ أن يُناديَ العَبدُ رَبَّه بقَولِه: (يا رَبِّ) ؛ ففيه استِعطافُ العَبدِ لِمَولاه الَّذي ربَّاه وقام بمَصالِحِه مِن لَدُنْ نَشأتِه إلى وَقتِ نِدائِه؛ فهو جَديرٌ بألَّا يُناديَه إلَّا بلَفظِ الرَّبِّ المُقتضي للقيامِ بأمورِ العِبادِ وإصلاحِها، فكان العبدُ مُتعلِّقًا بمَنْ شأنُه التَّربيةُ والرِّفقُ والإحسانُ، قائلًا: يا مَن هو المُصلِحُ لِشُؤونِنا على الإطلاقِ، أتِمَّ لنا ذلك بكذا، وهو مُقتضى ما يَدعو به. وإنَّما أتى «اللَّهُمَّ» في مواضعَ قليلةٍ، ولِمَعانٍ اقتضَتْها الأحوالُ .

❁جَعْلُ الرَّحمةِ عِلَّةً للمَغفرةِ في قولِ الملائكةِ :رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ظاهِرٌ، أمَّا جَعْلُ العِلمِ عِلَّةً للمَغفرةِ، فمَعناهُ: حقَّقْنا أنَّ رحمتَك وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ فاغفِرْ للَّذينَ تابوا، وعرَفْنا أنَّ عِلمَك أحاطَ بكلِّ شَيءٍ فأَنجِحْ مَقاصِدَهم ما عَلِموا وما لم يَعلَموا؛ فإنَّك أَعلَمُ بأحوالِهم ومَصالِحِهم

❁ في قَولِه تعالى :فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ دعاءُ حَمَلةِ العَرشِ ومَن حَوْلَه للتَّائبينَ المُتَّبِعِينَ سبيلَ اللهِ بالمغفرةِ؛ وفيه دليلٌ على أنَّ التَّائبَ وغيرَ التَّائبِ مُحتاجٌ إلى مغفرةِ اللهِ ورِضوانِه؛ لا يُنَجِّيه عمَلُه دونَ أنْ يَجودَ عليه مَولاه برحمتِه .

❁قال تعالى :الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فهذا دعاءُ الملائكةِ للمُؤمِنينَ التَّائبينَ المُتَّبِعينَ لكِتابِه وسُنَّةِ رَسولِه، الَّذين لا سبيلَ لهم غيرُهما؛ فلا يَطمَعْ غيرُ هؤلاء بإجابةِ هذه الدَّعوةِ؛ إذْ لم يَتَّصِفْ بصِفاتِ المَدعُوِّ له بها !

❁في قَولِه تعالى :فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ❁ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ أنَّ مؤمني الجِنِّ يَدخُلونَ الجَنَّةَ، ودليلُ ذلك أنَّ كلَّ مؤمنٍ غَفَرَ اللهُ له ووقاه عذابَ الجحيمِ؛ فقد وَعَده الجَنَّةَ، والجِنُّ قد ثَبَت في حقِّ مؤمنِهم الإيمانُ، ومغفرةُ الذَّنْبِ، ووِقايةُ النَّارِ، كما في قولِه تعالى عن نَفَرٍ مِن الجِنِّ أنَّهم قالوا لقومِهم :يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ فتَعَيَّنَ دُخولُهم الجَنَّةَ .

❁ قولُه تعالى حكايةً عن الملائكةِ :وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ فيه أنَّ مِن تحقيقِ التَّوبةِ اتِّباعَ سَبيلِ اللهِ؛ ولهذا نَجِدُ أنَّ اللهَ تعالى يَقرِنُ دائمًا مع التَّوبةِ ذِكْرَ العَمَلِ الصَّالحِ، كقَولِه تبارك وتعالى :إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

❁ في قَولِه تعالى :وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ أنَّ الشَّيءَ لا يَتِمُّ إلَّا بانتِفاءِ المُؤذي، وحُصولِ المطلوبِ؛ وَجْهُ ذلك: أنَّهم لَمَّا انتهَوا مِن دُعاءِ اللهِ تعالى بانتِفاءِ المُؤذي، سألوا اللهَ تعالى حُصولَ المطلوبِ، وهو إدخالُ الجنَّاتِ .

❁ في قَولِه تعالى :الَّتِي وَعَدْتَهُمْ التَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بإجابةِ الدُّعاءِ، كأنَّهم يقولونَ: أدْخِلْهم هذا؛ لأنَّك وعَدْتَهم إيَّاه؛ فيكونُ مِن بابِ التَّوسُّلِ بوَعدِه إلى تحقُّقِ مَوعودِه .

❁ قولُهم :رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ فيه أنَّ مِن تمامِ النَّعيمِ أنْ يَجمَعَ اللهُ بيْنَ الإنسانِ وبيْن قَرابَتِه وزَوجِه، فإنْ قال قائلٌ: هل يَلزَمُ مِن ذلك أنْ يكونوا في درجةٍ واحدةٍ؟

قُلْنا: لا يَلزَمُ، ولكِنَّ الأزواجَ لا بُدَّ أنْ يَكونوا في دَرَجةِ أزواجِهم، والذُّرِّيَّةُ ذَكَرَ اللهُ سبحانه وتعالى في سورةِ (الطُّورِ) أنَّها في دَرَجةِ آبائِهم أيضًا؛ قال اللهُ تعالى :وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، وهذا يدُلُّ على أنَّ الذُّرِّيَّةَ الَّذين لم يَبلُغوا مَنازِلَ آبائِهم أنَّهم يُرفَعونَ حتَّى يَكونوا في مَنازِلِ آبائِهم، وأنَّ ذلك لا يَقتضي نَقْصَ الآباءِ مِن المَنازِلِ؛ ولذلك قال :وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ .

❁ قولُهم :رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ فيه الاحترازُ في الدُّعاءِ عن التَّعميمِ؛ حيثُ قالوا :وَمَنْ صَلَحَ، ولم يَقولوا: (وآباءَهم

وأزواجَهم وذُرِّيَّاتِهم)، ومِن ذلك قولُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ :وَارْزُقْ أَهْلَهُ أي: أهلَ المسجدِ الحرامِ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فقال :أَهْلَهُ ثم أبدَلَ منها قَولَه :مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فاحترَزَ، ولكِنَّ اللهَ تعالى قال :وَمَنْ كَفَرَ يعني: أرزُقُ مَن في هذا البلدِ ولو كانوا كُفَّارًا، لكِنْ :وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ؛ فيَنبغي للإنسانِ في الدُّعاءِ أنْ يَحترِزَ مِن التَّعميمِ الَّذي قد يَتناوَلُ مَن لا يَستحِقُّ الدُّعاءَ، فيَكونُ في دعائِه هذا نَوعٌ مِن الاعتداءِ .

❁ في قَولِه تعالى :وَأَزْوَاجِهِمْ أثبَتَ سبحانه الزَّوجيَّةَ لهنَّ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ زَوجةَ الإنسانِ في الدُّنيا تكونُ زوجتَه في الآخرةِ إذا كانت مِن أهلِ الجنَّةِ .

❁ أخبَرَ سُبحانَه عن ملائكتِه أنَّهم قالوا عَقِيبَ هذه الدَّعوةِ :إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، أي: مَصدَرُ ذلك وسَبَبُه وغايتُه صادِرٌ عن كَمالِ قُدرتِك وكَمالِ عِلمِك؛ فإنَّ العِزَّةَ كَمالُ القُدرةِ، والحِكمةَ كَمالُ العِلمِ، وبهاتَينِ الصِّفَتينِ يَقضي سُبحانَه وتعالى ما شاء، ويأمُرُ ويَنهى، ويُثيبُ ويُعاقِبُ؛ فهاتانِ الصِّفتانِ مَصدَرُ الخَلقِ والأمرِ .

❁ في قَولِه تعالى :وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ أنَّ الملائِكةَ الَّذين يَحمِلونَ العَرْشَ ومَن حوْلَه يَسألونَ اللهَ تعالى أن يَقِيَ الَّذين آمَنوا السَّيِّئاتِ -أي: عذابَها (على قولٍ في التَّفسيرِ)- حتَّى يَتِمَّ لهمُ المطلوبُ، فإنْ قال قائلٌ: أليس هذا حاصِلًا مِمَّا سبَقَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ؟

قُلْنا: بلى، ولكِنْ مقامُ الدُّعاءِ ينبغي فيه البَسطُ؛ لعِدَّةِ أسبابٍ:

السَّببُ الأوَّلُ :لأنَّه عِبادةٌ، فكُلَّما بَسَطْتَ فيه ازدَدْتَ تَعبُّدًا وتَقرُّبًا لله.

الثَّاني :أنَّه تفصيلٌ، والتَّفصيلُ خيرٌ مِن الإجمالِ؛ لأنَّه قد يكونُ في التَّفصيلِ ما يَغيبُ عنك عندَ الإجمالِ.

الثَّالثُ :أنَّه انبِساطٌ مع اللهِ الَّذي هو أحَبُّ شَيءٍ إليك، والحَديثُ مع المحبوبِ لا شكَّ أنَّ كلَّ أحدٍ يُحِبُّ أن يَطولَ؛ انظُرْ إلى قَولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنْبي كُلَّه؛ دِقَّه

وجِلَّه ، وأوَّلَه وآخِرَه، وعلانيتَه وسِرَّه ، اللَّهمَّ اغفِرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسَرَرتُ وما أعلَنْتُ، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي ، وكان يَكفي عن هذا كُلِّه أن يَقولَ: اللَّهمَّ اغفِرْ لي ذنْبي. لكِنَّ البَسطَ له تأثيرٌ على القَلبِ .

❁ في قَولِه تعالى :وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ أنَّ الرَّحمةَ كما تكونُ في جَلبِ المحبوبِ، تكونُ في دَفعِ المكروهِ - .قولُه :وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا في نَظْمِ استِغفارِ المَلائكةِ للمؤمِنينَ في سِلْكِ وظائِفِهم المَفروضةِ عليهم مِن تَسبيحِهم، وتَحميدِهم، وإيمانِهم: إيذانٌ بكمالِ اعتِنائِهم به، وإشعارٌ بوُقوعِه عِندَ اللهِ تعالى في مَوقِعِ القَبولِ .

❁ والإخبارُ عن صِنفَيِ المَلائكةِ بأنَّهم يُسَبِّحونَ ويؤْمِنونَ به تَوطئةٌ وتمهيدٌ للإخبارِ عنهم بأنَّهم يَستغفِرونَ للَّذينَ آمَنوا، فذلك هو المقصودُ مِنَ الخبَرِ، فقُدِّم له ما فيه تحقيقُ استِجابةِ استِغفارِهم؛ لصُدورِه ممَّن دأبُهمُ التَّسبيحُ، وصِفَتُهمُ الإيمانُ - .ورُتِّبَتِ القَراباتُ في هذه الآيةِ على ترتيبِها الطَّبيعيِّ؛ فإنَّ الآباءَ أسبَقُ عَلاقةً بالأبناءِ، ثمَّ الأزواجُ، ثمَّ الذُّرِّيَّاتُ .وقيل: قدَّموا الآباءَ؛ لأنَّ الآباءَ أحَقُّ النَّاسِ بالإجلالِ، وقدَّموا الأزواجَ في اللَّفظِ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّهم أشَدُّ إلصاقًا بالشَّخصِ .

[غافر: ٦٧]

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾

نُطْفَةٍ :النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ

عَلَقَةٍ :العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ .

❁ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ :بلوغُ الأشُدِّ، أي: بُلوغُ مُنْتهَى الشَّبابِ والقُوَّةِ، أو: اشتِدادُ الجِسْمِ وقوَّتُه، والبُلوغُ والبَلاغُ: الانتِهاءُ إلى أقصَى المَقصدِ والمُنتهَى، والأشُدُّ قيل: جمْعٌ لا واحدَ له، وقيل: مُفردُه شَدٌّ، وأصلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ .

❁ لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ نبيَّه نُهِيَ عن عِبادةِ الأوثانِ، وأنَّه أُمِر بالاستِسلامِ للهِ تعالَى؛ بَيَّن أمْرَ الوحدانِيَّةِ والألوهِيَّةِ الَّتي أصنامُهم عاريةٌ عن شَيءٍ منها، بالاعتِبارِ في تدريجِ ابنِ آدَمَ بأنْ ذَكَر مَبدأَه الأوَّلَ، وهو مِن تُرابٍ، ثُمَّ أشارَ إلى التَّناسُلِ بخَلْقِه مِن نطفةٍ

❁ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ. أي: اللهُ وَحْدَه الَّذي خَلَق أباكم آدَمَ -أيُّها النَّاسُ- مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقَكم مِن مَنِيٍّ، ثمَّ مِن قِطعةِ دَمٍ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ . كما قالَ اللهَ تباركَ وتعالى :وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ

❁ وعن عبدِ الله بنِ مَسعودٍ ﷺ ، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ ﷺ وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال : إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أُمِّه أربَعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضْغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقيٌّ أو سَعيدٌ، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ

❁ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا. أي: ثُمَّ يُخرِجُكم اللهُ مِن بُطونِ أُمَّهاتِكم أطفالًا صِغارًا

❁ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ أي: ثمَّ لِتَبلُغوا بالتَّدريجِ تَمامَ قُوَّتِكم وعُقولِكم .

❁ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا أي: ثمَّ لِتَكونوا كِبارًا في السِّنِّ ضُعَفاءَ كما قال تعالى :اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ

❁ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ. أي: ومِنكم مَن يموتُ قَبْلَ ذلك . كما قال تعالى :وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى

❁ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى. أي: ولِتَبلُغوا زَمَنًا مُحَدَّدًا تَموتونَ فيه، لا تتَجاوَزونَه، ولا تَتقَدَّمونَ عليه .

❁ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.أي: ولِتَعقِلوا حُجَجَ اللهِ وآياتِه، فتُوَحِّدوه وتَعلَموا كَمالَ قُدرتِه وحِكمتِه،

وغيرَ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه .

❁ ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)﴾ : لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى انتِقالَ الإنسانِ مِن كَونِه تُرابًا إلى كَونِه نُطفةً، ثمَّ إلى كَونِه عَلَقةً، ثمَّ إلى كَونِه طِفلًا، ثمَّ إلى بُلوغِ الأَشُدِّ، ثمَّ إلى الشَّيخوخةِ، واستَدَلَّ بهذه التَّغيُّراتِ على وُجودِ الإلهِ القادِرِ؛ قال بعدَه :هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، يعني: كما أنَّ الانتِقالَ مِن صِفةٍ إلى صِفةٍ أُخرى مِن الصِّفاتِ الَّتي تقَدَّمَ ذِكرُها يدُلُّ على الإلهِ القادِرِ، فكذلك الانتِقالُ مِن الحياةِ إلى المَوتِ وبالعَكسِ يدُلُّ على الإلهِ القادِرِ .

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى رُتَبَ الإيجادِ، ذكَرَ أنَّه المتَّصِفُ بالإحياءِ والإماتةِ، وأنَّه متى تعلَّقَت إرادتُه بإيجادِ شَيءٍ، أَوْجَدَه مِن غيرِ تأخُّرٍ .

❁ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ. أي: اللهُ هو المُنفَرِدُ بالإحياءِ والإماتةِ؛ فلا يَقدِرُ على ذلك أحَدٌ سِواه .كما قال تعالى :هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

❁ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. أي: فإذا أراد اللهُ شَيئًا فإنَّما يقولُ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيَكونُ ما أرادَه .كما قال تعالى :إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وقال سُبحانَه :إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

❁ في قَولِه تعالى :وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزعُمون أنَّ المقتولَ مَيِّتٌ بغيرِ أجَلِه، ومَقطوعٌ عليه حَياتُه !

❁ في قَولِه تعالى :هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ بيانُ كَمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولهذا قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ للَّذي حاجَّه في ربِّه :رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فلا يُمكِنُ أنْ يُحييَ أحدٌ مَيِّتًا، ولا أنْ يُميتَ حيًّا، فإنْ قيلَ: أليس عيسى ابنُ مريمَ عليه السَّلامُ كان يُحيي الموتَى؟! قُلْنا: بلى، ولكنْ بإذنِ اللهِ؛ بنَفْسِ الآيةِ :وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ فإنْ قيلَ: أليسَ الرَّجُلُ يَقتُلُ الآخَرَ -وهو حيٌّ- فيَموتُ؟! قُلْنا: بلى، ولكنْ ما فَعَلَه هو سببُ الموتِ وليس هو الإماتةَ! وكثيرًا ما تُقطَعُ أوداجُ الإنسانِ؛ ويُشَقُّ بطنُه؛ ثمَّ يَبقَى حيًّا ويَحيا، فالحاصلُ أنَّ الإحياءَ والإماتةَ

بيدِ الله ﷻ .

❁ قولُ البعضِ: «سُبحانَ مَن أَمْرُه بيْنَ الكافِ والنُّونِ» قولٌ غيرُ صحيحٍ؛ لأَنَّه سُبحانَه أَمْرُه بعدَ الكافِ والنُّونِ كُنْ، فإنَّ الأمْرَ هنا بمعنى المأمورِ، أما إنْ كان الأمرُ الَّذي هو فِعْلُه -يعني: أَمْرَه- فهو قبْلَ الكافِ والنُّونِ .

❁ في قَولِه تعالى: فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أنَّ قولَ الله بحروفٍ؛ لقولِه تعالى: كُنْ؛ وهي كلمةٌ بحرفَينِ، ويكونُ قولُه بصوتٍ مَسموعٍ .

❁ في قَولِه تعالى: فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أنَّه ليس بيْنَ أمْرِ الله بالتَّكوينِ وتكَوُّنِه تَراخٍ؛ بل يكونُ على الفَوريَّةِ؛ وذلك لقولِه تعالى: فَيَكُونُ ، فالفاءُ للتَّعقيبِ تدُلُّ على أنَّه يكونُ عَقِبَ قولِه: (كُنْ) سواء لا يَتأخَّرُ عنه .

❁ احتجَّ كثيرٌ مِن السَّلَفِ على أنَّ القُرآنَ غيرُ مَخلوقٍ بقَولِه تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فلو كان كُنْ مَخلوقةً لَزِمَ ألَّا يُوجَدَ شَيءٌ مِن المَخلوقاتِ؛ لأنَّ كُنْ تكونُ مَخلوقةً بـ كُنْ أُخرى، وهَلُمَّ جَرًّا، فلا يُوجَدُ شَيءٌ !-

❁ قولُه :هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ... استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ كيفيَّةِ تكوُّنِ البدَنِ، وهو استِئنافٌ رابعٌ بعْدَ استئنافِ جُملةِ هُوَ الحَيُّ وما تفرَّعَ عليها، وكلُّها ناشئٌ بعضُه عنْ بَعضٍ، وهذا الامتِنانُ بنِعمةِ الإيجادِ، وهو نِعمةٌ؛ لأنَّ الموجودَ شَرَفٌ، والمعدومُ لا عِنايةَ به، وأُدمِجَ فيه الاستِدلالُ على الإبداعِ

❁ وقيل: قولُه :هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ مِن تَتمَّةِ قولِه :وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ولذلك اكتُفِيَ بالضَّميرِ دونَ الاسمِ الجامعِ، ولم يُؤتَ باسمِ الإشارةِ أو بما يَقومُ مَقامَه مِن الضَّميرِ؛ لانْبِناءِ التَّوحيدِ عليه، لكنْ فيه اعتناءٌ بدَليلِ الأنفُسِ؛ لِذِكْرِه أوَّلًا مُجمَلًا، ثمَّ مُفصَّلًا ثانيًا .

❁ واللَّاماتُ في قولِه :ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وما عُطِفَ عليه بـ(ثمَّ) مُتعلِّقاتٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: ثم يُبْقِيكم، أو ثمَّ يُنشِئُكم لِتَبْلُغوا أشُدَّكم، وهي لاماتُ التَّعليلِ مُستعمَلةٌ في مَعنى (إلى)؛ لأنَّ

الغايةَ المقدَّرةَ مِن الله تُشبِهُ العلَّةَ فيما يُفْضي إليها .

❁ قولُه :وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ عطْفٌ على وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى، أي: إنَّ مِن جُملةِ ما أرادهُ اللهُ مِن خلْقِ الإنسانِ على الحالةِ المبيَّنةِ أنْ تكونَ في تلك الخِلْقةِ دَلالةٌ لآحادِه على وُجودِ هذا الخالقِ البديعِ، وعلى انفرادِه بالإلهيَّةِ، وعلى أنَّ ما عداهُ لا يَستحِقُّ وصْفَ الإلهيَّةِ، فمَن عقَلَ ذلك مِن النَّاسِ فقدِ اهْتَدى إلى ما أُرِيدَ منه، ومَن لم يَعقِلْ ذلك فهو بمَنزلةِ عَديمِ العقْلِ، ولأجْلِ هذه النُّكتةِ لم يُؤتَ لِفِعلِ تَعْقِلُونَ بمَفعولٍ، ولا بمَجرورٍ؛ لأنَّه نُزِّلَ مَنزِلةَ اللَّازمِ، أي: رَجاءَ أنْ يكونَ لكم عُقولٌ؛ فهو مُرادٌ لله مِن ذلك الخلْقِ، فمِن حِكمتِه أنْ جعَلَ ذلك الخلْقَ العجيبَ عِلَّةً لأُمورٍ كثيرةٍ .

❁ قولُه تعالَى :هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ استِئنافٌ خامِسٌ، ومُناسَبةُ مَوقعِه مِن قولِه :هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ إلى قولِه :ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا إلى وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فإنَّ مِن أوَّلِ ما يُرْجَى أنْ يَعقِلوه هو ذلك التَّصرُّفُ البديعُ بخلْقِ الحياةِ في الإنسانِ عندَ تكوينِه بعْدَ أنْ كان جُثَّةً لا حَياةَ فيها، وخلْقِ الموتِ فيه عِندَ انتِهاءِ أجَلِه بعْدَ أنْ كان حيًّا مُتصرِّفًا بقُوَّتِه وتَدبيرِه .

❁ قولُه :هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ المقصودُ منه الامتِنانُ بالحياةِ تَبَعًا لقولِه قبْلَ هذا :هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ .وفُرِّعَ على هذا الخبرِ إخبارٌ بأنَّه إذا أراد أمْرًا مِن أُمورِ التَّكوينِ مِن إحياءٍ، أو إماتةٍ، أو غيرِهما؛ فإنَّه يَقدِرُ على فِعلِه دونَ تَردُّدٍ ولا مُعالَجةٍ، فالفاءُ مِن قولِه :فَإِذَا قَضَى فاءُ تَفريعِ الإخبارِ بما بعْدَها على الإخبارِ بما قبْلَها .

[النجم: ٣٢]

قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) ﴾

الْإِثْمِ :الإثمُ والأثامُ: اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنْبُ الَّذي يَستحِقُّ العقوبةَ عليه،

وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه

وَالْفَوَاحِشَ :جمعُ فاحِشَةٍ، أي: ما عَظُم قُبحُه مِنَ الكبائِرِ، والفُحْشُ والفَحْشاءُ والفاحِشةُ: ما عظُم قُبحُه مِن الأفعالِ والأقوالِ، وكلُّ شَيءٍ جاوَز قَدْرَه فهو فاحِشٌ، ولا يكونُ ذلك إلَّا فيما يُتكرَّهُ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ .

اللَّمَمَ :أي: صِغارَ الذُّنوبِ؛ مِنْ ألَمَّ بالشَّيءِ: إذا لم يتعَمَّقْ فيه ولم يَلزَمْه، وأصلُ اللَّمَمِ: ما يَعمَلُه الإنسانُ الحِينَ بعدَ الحِينِ، ولا يكونُ له عادةً ولا إقامة عليه .

أَجِنَّةٌ :جمعُ جَنينٍ: وهو الوَلَدُ ما دامَ في البَطنِ، وسُمِّيَ جَنينًا؛ لاجتِنانِه واستِتارِه، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ .

فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ :أي: لا تُبَرِّئُوها عن الآثامِ، ولا تَمدَحوها بحُسنِ أعمالِها، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزِيادةٍ، وطهارةٍ .

❁ لَمَّا وَعَد سُبحانَه الَّذين وَقَع منهم الإحسانُ؛ وصَفَهم فقال : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ. أي: الَّذين يَبتَعِدونَ عن كبائِرِ الذُّنوبِ، ويَبتَعِدونَ عن الفواحِشِ، كالزِّنا وعَمَلِ قَومِ لُوطٍ . كما قال تبارك وتعالى :فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ

❁ إِلَّا اللَّمَمَ. أي: إلَّا صَغائِرَ الذُّنوبِ دونَ إصرارٍ عليها، فهي مَعفوٌّ عنها، وليس ذلك بمُخرِجٍ لصاحِبِها مِن جُملةِ المُحسِنينَ .

❁ عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ما رأيتُ شَيئًا أشبَهَ باللَّمَمِ مِمَّا قال أبو هُرَيرةَ عن النَّبيِّ ﷺ إنَّ اللهَ كَتَب على ابنِ آدَمَ حَظَّه مِنَ الزِّنا، أدرَكَ ذلك لا مَحالةَ؛ فزِنا العَينِ النَّظَرُ، وزِنا اللِّسانِ المَنطِقُ، والنَّفْسُ تَمَنَّى وتَشتَهي، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك كُلَّه ويُكَذِّبُه

❁ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ. لَمَّا أخرَجَ تعالى المُسِيءَ عن المَغفِرةِ؛ بَيَّنَ أنَّ ذلك ليس لضِيقٍ فيها، بل ذلك بمَشيئةِ الله تعالى، ولو أراد اللهُ المَغفِرةَ لكُلِّ مَن أحسَنَ وأساء لَفَعَل، وما كان يَضيقُ عنهم

مَغفِرتُه .

وأيضًا لَمَّا كان المُلوكُ لا يَغفِرونَ لِمَن تكَرَّرَتْ ذُنوبُه إليهم وإنْ صَغُرَت، فكان السَّامِعُ يَستَعظِمُ أن يَغفِرَ مَلِكُ المُلوكِ سُبحانَه مِثْلَ هذا؛ عَلَّلَ ذلك بقَولِه تعالى :

إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ. أي: إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- واسِعُ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها . كما قال تعالى :إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا وقال سُبحانَه :قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وقال ﷻ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا

❁ وعن أبي هُرَيرةَ ﷺ ، أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كان يقولُ : الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رمَضانَ: مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهنَّ إذا اجتَنَب الكبائِرَ

❁ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ تقريرٌ لِما مَرَّ مِن قَولِه :هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ كأنَّ العامِلَ مِن الكُفَّارِ يَقولُ: نحن نَعمَلُ أُمورًا في جَوفِ اللَّيلِ المُظلِمِ، وفي البَيتِ الخالي، فكيف يَعلَمُه اللهُ تعالى؟! فقال: ليس عَمَلُكم أخفى مِن أحوالِكم وأنتم أجِنَّةٌ في بُطونِ أُمَّهاتِكم، واللهُ عالِمٌ بتلك الأحوالِ .

❁ وأيضًا فهو تأكيدٌ وبَيانٌ للجَزاءِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قال :لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا كأنَّ الكافِرينَ قالوا: هذا الجزاءُ لا يتحَقَّقُ إلَّا بالحَشرِ، وجَمْعِ الأجزاءِ بعدَ تفَرُّقِها. وإعادةُ ما كان لِزَيدٍ مِن الأجزاءِ في بَدَنِه مِن غَيرِ اختِلاطٍ: غَيرُ مُمكِنٍ؛ فقال تعالى :هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ، فيَجمَعُها بقُدرتِه على وَفْقِ عِلْمِه كما أنشَأَكم .

❁ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ. أي: ربُّكم أعلَمُ بكم حينَ خَلَق أباكم آدَمَ مِن الأرضِ قبْلَ أن تُوجَدوا، وحينَ كُنتُم حَمْلًا مَستورينَ في بُطونِ أمَّهاتِكم قبْلَ أن تُولَدوا .

❁ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ. لَمَّا كان مِن عادةِ مَن سَلِمَ مِنَ الذُّنوبِ أن يَفتَخِرَ على مَن قارَفَها -لِما بُنِيَ

الإنسانُ عليه مِن محبَّةِ الفَخرِ؛ لِما جُبِلَ عليه مِنَ النُّقصانِ-، وكان حالُه قد يَتبدَّلُ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ فيَشقَى- سَبَّبَ عن ذلك قَولَه تعالى :

❁ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ. أي: فلا تَشهَدوا لأنفُسِكم بالبَراءةِ مِنَ الذُّنوبِ والآثامِ، أو تَمدَحوها بحُسنِ الأعمالِ .كما قال تعالى :أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا

❁ وعن مُحمَّدِ بنِ عَمرِو بنِ عَطاءٍ، قال: سَمَّيتُ ابنَتي بَرَّةَ، فقالت لي زَينبُ بنتُ أبي سَلَمةَ : إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ نهى عن هذا الاسمِ، وسُمِّيتُ بَرَّةَ، فقال رَسولُ اللهِ ﷺ : لا تُزَكُّوا أنفُسَكم؛ اللهُ أعلَمُ بأهلِ البِرِّ منكم! فقالوا: بِمَ نُسَمِّيها؟ قال: سَمُّوها زَينبَ

❁ وعن أبي بَكْرةَ الثَّقَفيِّ ﷺ، قال: أثْنَى رَجُلٌ على رَجُلٍ عندَ النَّبيِّ ﷺ، فقال : وَيْلَك! قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك -مِرارًا-، ثمَّ قال: مَن كان مِنْكم مادِحًا أخاه لا مَحالةَ فلْيَقُلْ: أحسَبُ فُلانًا، واللهُ حَسيبُه ، ولا أُزَكِّي على اللهِ أحدًا ، أحسَبُه كذا وكذا، إنْ كان يَعلَمُ ذلك منه

❁ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى. أي: اللهُ أعلَمُ بمَن اتَّقى سَخَطَه وعَذابَه مِنكم، فامتثَلَ أوامِرَه، واجتنَبَ نواهيَه .

الفوائد

❁ قَولُه تعالى :إِلَّا اللَّمَمَ الاستِثناءُ هنا بمعنى الاستِدراكِ. ووَجهُه: أنَّ ما سُمِّيَ باللَّمَمِ: ضَربٌ مِنَ المعاصي المحَذَّرِ منها في الدِّينِ؛ فقد يَظُنُّ النَّاسُ أنَّ النَّهيَ عنها يُلحِقُها بكبائِرِ الإثمِ؛ فلذلك حَقَّ الاستِدراكُ، وفائدةُ هذا الاستِدراكِ عامَّةٌ وخاصَّةٌ؛ أمَّا العامَّةُ فلِكَيلا يُعامِلَ المُسلِمونَ مُرتَكِبَ شَيءٍ منها مُعامَلةَ مَن يَرتَكِبُ الكبائِرَ. وأمَّا الخاصَّةُ فرَحمةٌ بالمُسلِمينَ الَّذين قد يَرتَكِبونَها؛ فلا يَفُلُّ ارتِكابُها مِن نَشاطِ طاعةِ المُسلِمِ، ولِيَنصَرِفَ اهتِمامُه إلى تجنُّبِ الكبائِرِ؛ فهذا الاستِدراكُ بِشارةٌ لهم، وليس المعنى أنَّ اللهَ رَخَّص في إتيانِ اللَّمَمِ !صرَّح اللهُ تعالى بالنَّهيِ العامِّ عن تزكيةِ النَّفْسِ في قَولِه :فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، وأحْرَى نَفْسُ الكافِرِ الَّتي هي أخَسُّ شَيءٍ

وأنجَسُه !وفيه تحذيرٌ للمُؤمِنينَ مِن العُجْبِ بأعمالِهم الحَسَنةِ عُجبًا يُحدِثُه المَرءُ في نَفْسِه، أو يُدخِلُه أحَدٌ على غيرِه بالثَّناءِ عليه بعَمَلِه، ويَشملُ ذلك ذِكرَ المَرءِ أعمالَه الصَّالِحَةَ للتَّفاخُرِ بها، أو إظهارَها للنَّاسِ، ولا يجوزُ ذلك إلَّا إذا كان فيه جَلبُ مَصلحةٍ عامَّةٍ

❀ إنَّ تزكيةَ الإنسانِ نَفْسَه ضَربانِ؛ أحَدُهما: بالفِعلِ، وهو محمودٌ، وإليه قُصِدَ بقَولِه تعالى :قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا والثَّاني: بالقَولِ –كتَزكيةِ العَدلِ غَيرَه–، وذلك مذمومٌ أن يَفعَلَ الإنسانُ بنَفْسِه، وقد نهى اللهُ تعالى عنه بقَولِه :فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، ونَهيُه عن ذلك تأديبٌ؛ لِقُبحِ مَدحِ الإنسانِ نَفْسَه عَقلًا وشَرعًا؛ ولهذا قيل لحَكيمٍ: ما الَّذي لا يَحسُنُ وإنْ كان حقًّا؟ فقال: مَدْحُ الإنسانِ نَفْسَه !

❀ في قَولِه تعالى :فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى إشارةٌ إلى وُجوبِ الخَوفِ مِن العاقِبةِ، أي: لا تَقطَعوا بخَلاصِكم أيُّها المُؤمِنونَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَعلَمُ عاقِبةَ مَن يكونُ على التُّقَى، وهذا يؤيِّدُ قَولَ مَن يَقولُ: «أنا مؤمِنٌ إن شاء اللهُ»؛ للصَّرفِ إلى العاقِبةِ

❀ أنَّ المؤمِنَ مع المؤمِنِ بمَنزلةِ العُضوِ مع العُضوِ اللَّذَينِ تَجمَعُهما نَفْسٌ واحِدةٌ؛ ولهذا سَمَّى اللهُ تعالى الأخَ المؤمِنَ نَفْسًا لأخيه في غَيرِ مَوضِعٍ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ قال تعالى :فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ

❀ في قَولِه تعالى :فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى إنْ قال قائِلٌ: أليس اللهُ تعالى يقولُ :قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا

الجوابُ: بلى، لكِنْ معنى :مَنْ زَكَّاهَا أي: مَن عَمِلَ عملًا تَزكُو به نَفْسُه، وليس معنى مَن زَكَّاها: مَن أثنَى عليها ومَدَحها بأنَّها عَمِلَت وعَمِلَت! بلِ المرادُ عَمِلَ عَمَلًا تزكُو به نَفْسُه؛ فلا مُعارَضةَ بيْنَ الآيتَينِ، والتَّزكيةُ الَّتي يُذَمُّ عليها أنْ يُدِلَّ بعمَلِه على ربِّه، ويَمدَحَ وكأنَّه يَمُنُّ على الله! يقولُ: صَلَّيتُ، وتصَدَّقتُ، وصُمْتُ، وحَجَجْتُ، وجاهَدْتُ، وبَرَرتُ والديَّ، وما أشْبَهَ ذلك؛ فلا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُزَكِّيَ نَفْسَه .

❀ في قَولِه تعالى :فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى رَدٌّ على أولئك الصُّوفيَّةِ الَّذين يَدَّعونَ

أنَّهم أئِمَّةٌ، ويُزَكُّون أنْفُسَهم، ويقولونَ: وصَلْنا إلى حَدٍّ لا تَلْزَمُنا الطَّاعةُ! وصَلْنا إلى عالَمِ المَلَكوتِ؛ فليس علينا صَلاةٌ ولا صَدَقةٌ ولا صيامٌ، ولا يَحْرُمُ علينا شَيءٌ! وهؤلاء مُنسَلِخونَ مِنَ الدِّينِ انسِلاخًا تامًّا؛ ولذلك نقولُ: هؤلاء الَّذين يُزَكُّون أنْفُسَهم هم أبعَدُ النَّاسِ عن الزَّكاةِ؛ لأنَّهم أُعجِبوا بأعمالِهم، وأَدَلُّوا بها على الله عزَّ وجلَّ، وجَعلوا لأنْفُسِهم مَنصِبًا لم يَجعَلْه اللهُ تعالى لهم، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى كأنَّه يقولُ: لماذا تُزَكُّون أنْفُسَكم؟ أتُريدونَ أنْ تُعْلِموا اللهَ بما أنتم عليه؟! الجوابُ: لا؛ ولهذا قال :هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى، يعني: إنْ كنتَ مُتَّقيًا لله فاللهُ أعلَمُ بك، ولا حاجةَ أنْ تَقولَ لله: إنِّي فعَلْتُ وفعَلْتُ .

❁ في قَولِه تعالى :فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى أي: لا تَصِفُوها بالزَّكاةِ افتِخارًا، وأمَّا التَّحَدُّثُ بنِعمةِ الله على العَبدِ، مِثلُ أنْ يقولَ القائلُ: إنَّه كان مُسرِفًا على نَفْسِه، كان مُنحَرِفًا، فهداه اللهُ ووَفَّقَه ولَزِمَ الاستِقامةَ؛ تحدُّثًا بنِعمةِ الله، لا تزكيةً لنَفْسِه- فإنَّ هذا لا بأسَ به، ولا حَرَجَ فيه؛ أنْ يَذْكُرَ الإنسانُ نِعمةَ الله عليه في الهِدايةِ والتَّوفيقِ، كما أنَّه لا حَرَجَ أنْ يَذْكُرَ نِعمةَ الله عليه بالغِنى بعدَ الفَقرِ

❁ في قَولِه تعالى :وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ بَيانُ المُسيءِ والمُحسِنِ؛ لأنَّ مَن لا يجتَنِبُ كبائِرَ الإثمِ يكونُ مُسيئًا، والَّذي يجتَنِبُها يكونُ مُحسِنًا، وعلى هذا ففيه لَطيفةٌ: وهي أنَّ المُحسِنَ لَمَّا كان هو مَن يجتَنِبُ الآثامَ، فالَّذي يأتي بالنَّوافِلِ يكونُ فَوقَ المُحسِنِ، واللهُ تعالى وَعَدَ المُحسِنَ بالزِّيادةِ؛ فالَّذي فَوقَه يكونُ له زياداتٌ فَوقَها، وهم الَّذين لهم جزاءُ الضِّعفِ

❁ في قَولِه تعالى :وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَصْفُ الله المُحسِنينَ باجتِنابِ الكبائرِ ، فقولُه :الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ صِفةٌ لـ الَّذِينَ أَحْسَنُوا، أي: الَّذين أحسَنوا واجتَنَبوا كبائِرَ الإثمِ والفواحِشَ، أي: فَعَلوا الحَسَناتِ واجتَنَبوا المَنهيَّاتِ؛ وذلك جامِعُ التَّقْوى.

وهذا تنبيهٌ على أنَّ اجتِنابَ ما ذُكِرَ يُعَدُّ مِنَ الإحسانِ؛ لأنَّ فِعلَ السَّيِّئاتِ يُنافي وَصْفَهم بالَّذين

أحسَنوا؛ فإنَّهم إذا أتَوا بالحَسَناتِ كُلِّها ولم يَترُكوا السَّيِّئاتِ، كان فِعْلُهم السَّيِّئاتِ غَيرَ إحسانٍ، ولو تَرَكوا السَّيِّئاتِ وتَرَكوا الحَسَناتِ كان تَركُهم الحَسَناتِ سَيِّئاتٍ .

❁ في قَولِه تعالى :الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ أنَّ مِن الذُّنوبِ كَبائِرَ وصَغائِرَ ، وفي قَولِه تعالى :إِلَّا اللَّمَمَ دَلالةٌ على عَدَمِ المساواةِ بيْنَ المعاصي .

❁ في قَولِه تعالى :الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ... الآيةَ: تَكفيرُ الصَّغائِرِ باجتِنابِ الكبائِرِ

❁ في قَولِه تعالى :كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ سُؤالٌ: إذا ذُكِرَتِ الكبائِرُ، فما الفواحِشُ بَعْدَها؟ الجوابُ: الكبائِرُ إشارةٌ إلى ما فيها مِن مِقدارِ السَّيِّئةِ، والفواحِشُ إشارةٌ إلى ما فيها مِن وَصفِ القُبحِ، كأنَّه قال: «عظيمةُ المقاديرِ، قَبيحةُ الصُّوَرِ»، والفاحِشُ في اللُّغةِ مُختَصٌّ بالقَبيحِ الخارِجِ قُبحُه عن حَدِّ الخَفاءِ، ولهذا لم يَقُلْ: «الفواحِشَ مِن الإثمِ»، وقال في الكبائِرِ :كَبَائِرَ الْإِثْمِ؛ لأنَّ الكبائِرَ إنْ لم يُمَيِّزْها بالإضافةِ إلى الإثمِ لَمَا حَصَلَ المقصودُ، بخِلافِ الفواحِشِ

❁ في قَولِه تعالى :كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ أنَّ الكبائرَ تختلِفُ؛ وأنَّ الفواحشَ تختلفُ، لأنَّ الكبائرَ وَصْفٌ؛ كلَّما كان أعظمَ صار أشدَّ كبيرةً، والفواحشُ كذلك، وفي قَولِه تعالى :وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا وقال وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وقال أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ فَرَّقَ اللهُ بيْنَها -معَ أنَّها كلَّها فواحشُ- لكنَّ بعضَها أعظمُ مِن بعضٍ

❁ في قَولِه تعالى :هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ أنَّه تعالى عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ قبْلَ وُقوعِه؛ فهو يَعلَمُ ما سيَعمَلُه الخَلقُ .

❁ قال تعالى :هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ المعنى أنَّ الضَّعْفَ المُقتَضِيَ لسَعةِ التَّجاوُزِ بالمَغفِرةِ مُقَرَّرٌ في عِلمِ اللهِ مِن حينِ إنشاءِ آدَمَ مِنَ الأرضِ بالضَّعفِ الملازِمِ لجِنسِ البَشَرِ على تفاوُتٍ فيه؛ قال تعالى :وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا فإنَّ إنشاءَ أصلِ الإنسانِ مِن الأرضِ -وهي عُنصُرٌ ضَعيفٌ- يَقتَضي ملازَمةَ الضَّعفِ لجَميعِ الأفرادِ المنحَدِرةِ مِن ذلك الأصلِ

❁ في قَولِه تعالى :وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ تَنبيهٌ على كَمالِ العِلمِ والقُدرةِ؛ فإنَّ بَطنَ الأُمِّ

في غايةِ الظُّلمةِ، ومَن عَلِمَ بحالِ الجَنينِ فيها لا يَخفَى عليه ما ظَهَر مِن حالِ العِبادِ .

❁ في قَولِه تعالى :وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ دَليلٌ على تثبيتِ نَسَبِ ولدِ الزِّنا مِن أُمِّه، ومُغْنٍ عن قياسِه على وَلَدِ المُلاعَنةِ؛ لِدُخولِ ولَدِ الزِّنا -لا محالةَ- في هذا الخِطابِ، ونِسبتِه جلَّ وتعالى جميعَ الأَجِنَّةِ إلى الأُمَّهاتِ .

❁ قَولُه تعالى :فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى دليلٌ على أنَّ الزَّكاةَ هي التَّقْوى، وعُلِم مِن ذلك أنَّ التَّزكيةَ هي الإخبارُ بالتَّقوى

[التوبة: ١٠٢]

قال تعالى ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)﴾

خَلَطُوا :أي: تعاطَوْا هذا مرَّةً وذاك مرَّةً، وأصلُ الخَلطِ: الجَمعُ بين أجزاءِ الشَّيئينِ

❁ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا. أي: وقومٌ آخَرونَ أقَرُّوا بذُنوبِهم بتخَلُّفِهم عن الجهادِ مع رَسولِ الله ﷺ في غزوةِ تَبوكَ، جَمَعوا عملًا صالحًا بالتَّوبةِ وغَيرِها من الطَّاعاتِ، وعملًا سَيِّئًا بالتخَلُّفِ عن الجهادِ وغيرِ ذلك من المعاصي والسَّيِّئاتِ .

❁ عن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ ﷺ ، قال: قال رسولُ الله ﷺ لنا : أتاني اللَّيلةَ آتيانِ فابتَعَثاني، فانتهَينا إلى مدينةٍ مَبنيَّةٍ بلَبِنِ ذَهَبٍ، ولَبِنِ فِضَّةٍ، فتلقَّانا رجالٌ شَطرٌ مِن خَلْقِهم كأحسَنِ ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبَحِ ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهَبُوا فقعُوا في ذلك النَّهرِ، فوَقَعوا فيه، ثمَّ رَجَعوا إلينا، قد ذهَبَ ذلك السُّوءُ عنهم، فصاروا في أحسَنِ صُورةٍ، قالا لي: هذه جَنَّةُ عَدْنٍ، وهذاك مَنزِلُك، قالا: أمَّا القَومُ الذين كانوا شَطرٌ منهم حَسَنٌ، وشَطرٌ منهم قَبيحٌ، فإنَّهم خَلَطوا عملًا صالحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تجاوَزَ اللهُ عنهم

❁ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. أي: سيقبلُ اللهُ توبةَ أولئك الذين اعتَرَفوا بذُنوبِهم .

❁ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. أي: إنَّ اللهَ غفورٌ يَستُرُ ذُنوبَ مَن تابَ إليه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم، فلا يُعَذِّبُهم بها .

❁ هذه الآيةُ دلَّت على أن المُخَلِّطَ الذي خلطَ الأعمالَ الصَّالحةَ بالأعمالِ السَّيِّئةِ؛ من التجرُّؤِ على بعضِ المُحَرَّمات، والتقصيرِ في بعضِ الواجِباتِ، مع الاعترافِ بذلك والنَّدَمِ، والرَّجاءِ بأن يغفِرَ اللهُ له- أنَّه تحت الخَوفِ والرَّجاءِ، وهو إلى السَّلامةِ أقرَبُ، وأمَّا المخَلِّطُ الذي لم يَعترِف ويَندَمْ على ما مضى منه، بل لا يزالُ مُصرًّا على الذُّنوبِ، فإنَّه يُخافُ عليه أشَدَّ الخَوفِ .

❁ عن أبي عُثمانَ النَّهديِ قال: ما في القرآنِ آيةٌ أرجى عندي لهذه الأمَّةِ مِن قَولِه تعالى :وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا. ...

❁ قال اللهُ تعالى :وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ...هذه الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ المُذنِبينَ الخاطئينَ المُخلِصينَ المُتلَوِّثينَ .

❁ قال الله تعالى :وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ مُجَرَّدُ الاعترافِ بالذَّنبِ لا يكونُ تَوبةً، فأمَّا إذا اقتَرَن به النَّدمُ على الماضي، والعزمُ على ترْكِه في المستقبَلِ، وكان هذا النَّدمُ والتَّوبةُ لأجلِ كَونِه مَنهيًّا عنه مِن قِبَلِ الله تعالى؛ كان هذا المجموعُ تَوبةً، فقَولُه تعالى :عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ يقتضي أنَّ هذه التَّوبةَ إنَّما تحصُلُ في المستقبَلِ. وقَولُه :وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ دلَّ على أنَّ ذلك الاعترافَ حصل في الماضي، وذلك يدلُّ على أنَّ ذلك الاعترافَ ما كان نَفسَ التَّوبةِ، بل كان مُقَدِّمةً للتَّوبةِ، وأنَّ التَّوبةَ إنَّما تحصُلُ بَعدَها .

❁ في قَولِه تعالى :وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا .. بيانُ أنَّ اعترافَ المُذنِبِ بِذَنبِه مع النَّدَمِ عليه، هي توبةٌ مقبولةٌ؛ فإنَّ (عسى) من الله واجِبةٌ ؛ لأنَّها إطماعٌ، ومَن أكرمُ مِن الله حتَّى يحقِّقَ ما أطمَع فيه عبدَه ؟!!قَولُ الله تعالى :عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ عَسَى منه سُبحانه وتعالى واجِبةٌ؛ لأنَّ هذا دأْبُ الملوكِ، ولعلَّ التَّعبيرَ بها يفيدُ- مع الإيذانِ بأنَّه لا يجِبُ عليه لأحدٍ شيءٌ ، وأنَّ كُلَّ إحسانٍ يَفعَلُه، فإنَّما هو على سبيلِ الفَضلِ- إشارةً إلى أنَّهم صاروا كغَيرِهم مِن خُلَّصِ المؤمنينَ غَيرِ المعصومينَ في مُواقعةِ التَّقصيرِ، وتوقُّعِ الرحمةِ مِن اللهِ بالرُّجوعِ بهم إلى المُراقبةِ، فكما أنَّ أولئك مَعدودونَ في حِزبِ الله مع هذا التَّقصيرِ المرجُوِّ له

العَفوُ، فكذلك هؤلاءِ .

❁ من كان مؤمِنًا وعَمِلَ عَملًا صالحًا لوَجهِ الله تعالى، فإنَّ الله لا يَظلِمُه، بل يُثيبُه عليه، وأمَّا ما يفعَلُه مِن المُحَرَّم اليسيرِ، فيستَحِقُّ عليه العُقوبةَ، ويُرجى له من الله التَّوبةُ، كما قال الله تعالى :وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وإن مات ولم يتُبْ، فهذا أمْرُه إلى الله، هو أعلَمُ بمقدارِ حَسَناتِه وسَيِّئاتِه، لا يُشهَدُ له بجنَّةٍ ولا نارٍ، بخلافِ الخوارجِ والمُعتَزلةِ، فإنَّهم يقولونَ: إنَّ مَن فعَلَ كبيرةً أحبَطَت جميعَ حَسَناتِه، وأهلُ السُّنَّةِ والجماعة لا يقولونَ بهذا الإحباطِ، بل أهلُ الكبائرِ معهم حسَناتٌ وسيِّئاتٌ، وأمرُهم إلى الله تعالى .

[الزمر: ٣٣-٣٥]

قال تعالى ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾

لِيُكَفِّرَ :أي: لِيَستُرَ، ولا يؤاخِذَ، وأصلُ (كفر): سترٌ وتغطيةٌ .

❁ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ أي: والَّذين دَعَوا إلى القُرآنِ وما اشتمَلَ عليه مِنَ الحَقِّ، وصدَّقوا به: هم الَّذين تَتحَقَّقُ فيهم صِفةُ التَّقْوى لله تعالى .

❁ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لَمَّا مَدَحهم على تَقْواهم؛ قال في جوابِ مَن سأَلَ عن ثَوابِهم، لافِتًا القَولَ إلى صِفةِ الإحسانِ تعريفًا بمَزيدِ إكرامِهم :أي: لأولئك المتَّقينَ عندَ رَبِّهم يومَ القيامةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم في الجنَّةِ . كما قال تعالى :وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ وقال سُبحانَه :لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ

❁ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ. أي: ذلك النَّعيمُ ثَوابُ الَّذين أحسَنوا في الدُّنيا

❁ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ أي:

لِيُكفِّرَ اللهُ عن المُحسِنينَ أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ .

❁ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَمَّا ذَكَر سبحانَه ما يَدُلُّ على دفعِ المَضارِّ عنهم؛ ذَكَر ما يدُلُّ على جَلْبِ أعظَمِ المنافِعِ إليهم .

❁ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ. أي: ويَجزيَهم اللهُ ثَوابَهم بأحسَنِ الَّذي كانوا يَعمَلونَه مِنَ الطَّاعاتِ .

قال تعالى :وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]

❁ وعن أبي هُرَيرةَ ﷺ، قال: قال رَسولُ الله ﷺ إذا أحسَنَ أحَدُكم إسلامَه، فكُلُّ حَسَنةٍ يَعمَلُها تُكتَبُ له بعَشرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مِئةِ ضِعفٍ، وكُلُّ سَيِّئةٍ يَعمَلُها تُكتَبُ له بمِثلِها

❁ قال الله تعالى :وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ : هو مَن شَأْنُه الصِّدقُ في قَولِه وعَمَلِه وحالِه، فالصِّدقُ: في هذه الثَّلاثةِ؛ فالصِّدقُ في الأقوالِ: استِواءُ اللِّسانِ على الأقوالِ كاستِواءِ السُّنبُلةِ على ساقِها، والصِّدقُ في الأعمالِ: استِواءُ الأفعالِ على الأمرِ والمُتابعةِ كاستِواءِ الرَّأسِ على الجَسَدِ، والصِّدقُ في الأحوالِ: استِواءُ أعمالِ القَلبِ والجوارِحِ على الإخلاصِ، واستِفراغُ الوُسعِ، وبَذْلُ الطَّاقةِ؛ فبذلك يكونُ العَبدُ مِن الَّذين جاؤوا بالصِّدقِ، وبحَسَبِ كمالِ هذه الأُمورِ فيه وقيامِها به تكونُ صِدِّيقيَّتُه ، ولا يَكْفي صِدقُك، بل لا بدَّ مِن صدقِك وتصديقِك للصادِقينَ، فكثيرٌ مِنَ النَّاسِ يَصدُقُ، ولكنْ يَمنَعُه مِن التَّصديقِ كِبْرٌ أو حسدٌ أو غيرُ ذلك ، فلا بدَّ في المدحِ مِن الصِّدقِ والتَّصديقِ؛ فصِدقُه يدُلُّ على عِلمِه وعدلِه، وتصديقُه يدُلُّ على تَواضُعِه وعدَمِ استِكبارِه .

❁ قولُه تعالى :ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ فيه الحَثُّ على الإحسانِ؛ والأمرُ بالإحسانِ والحَثُّ عليه كثيرٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ، والإحسانُ يَتَضَمَّنُ الإحسانَ في عبادةِ اللهِ تعالى، والإحسانَ إلى عبادِ اللهِ تعالى، والإحسانُ إلى عبادِ الله تعالى يكونُ بالقولِ وبالفعلِ وبالجاهِ وغيرِ ذلك مِن أنواعِ الإحسانِ، فلا تَدَّخِرْ وُسْعًا في بَذْلِ الإحسانِ إلى إخوانِك؛ فإنَّ ذلك ممَّا يكونُ سببًا لدُخولِ الجنَّةِ،

ويكونُ أيضًا سببًا في عَونِ الله تعالى لك؛ فإنَّ اللهَ تعالى في عَوْنِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه

❁ في قَولِه تعالى :وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ فائدةٌ أصوليَّةٌ، وهي: أنَّ المَوصولَ مِن صِيَغِ العُمومِ؛ فقد أخبَرَ عن الاسمِ المَوصولِ (الَّذي) -وهو اسمٌ مُفرَدٌ- بكلمةٍ دالَّةٍ على الجَمعِ، فقال :أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ، ولم يقُلْ: هو المُتَّقي، وذلك لأنَّ الاسمَ الموصولَ يُفيدُ العُمومَ، وإن كان مُفرَدًا .

❁ في قَولِه تعالى :وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ مَدْحُ مَن جاء بالصِّدقِ وصَدَّق بالحَقِّ الَّذي جاءه، وهذه حالُ مَن لم يَقبَلْ إلَّا الصِّدقَ، ولم يَرُدَّ ما يَجيئُه به غَيرُه مِن الصِّدقِ، بل قَبِلَه ولم يُعارِضْ بيْنَهما، ولم يَدفَعْ أحَدَهما بالآخَرِ ، وأمَّا مَن لم يُصَدِّقْ بما يَشُكُّ فيه فلا حَرَجَ عليه .

❁ في قَولِه تعالى :لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ سُؤالٌ: هذا الوَعدُ يَدخُلُ فيه كُلُّ ما يَرغَبُ المكَلَّفُ فيه، فإنْ قيلَ: لا شَكَّ أنَّ الكَمالَ محبوبٌ لِذَاتِه، مَرغوبٌ فيه لِذَاتِه، وأهلُ الجنَّةِ لا شَكَّ أنَّهم عُقَلاءُ، فإذا شاهَدوا الدَّرَجاتِ العاليةَ الَّتي هي للأنبياءِ وأكابِرِ الأَولياءِ، عَرَفوا أنَّها خَيراتٌ عاليةٌ، ودَرَجاتٌ كامِلةٌ، والعِلمُ بالشَّيءِ مِن حيثُ إنَّه كَمالٌ وخَيرٌ يُوجِبُ المَيلَ إليه، والرَّغبةَ فيه، وإذا كان كذلك فهم يَشاؤونَ حُصولَ تلك الدَّرَجاتِ لأنفُسِهم؛ فوَجَب حُصولُها لهم بحُكمِ هذه الآيةِ! وأيضًا فإنْ لم يَحصُلْ لهم ذلك المرادُ كانوا في الغُصَّةِ ووَحشةِ القَلبِ! الجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى يُزيلُ الحِقدَ والحَسَدَ عن قُلوبِ أهلِ الآخِرةِ، وذلك يقتَضي أنَّ أحوالَهم في الآخرةِ بخِلافِ أحوالِهم في الدُّنيا .

ويجوزُ أنَّ الله يُلهِمُهم أنْ يَشاؤوا ما لا يتجاوزُ قَدْرَ ما عيَّن اللهُ مِن الدَّرجاتِ في الجنَّةِ؛ فإنَّ أهلَ الجنَّةِ مُتفاوِتونَ في الدَّرَجاتِ.

ويجوزُ أنَّ مَا يَشَاءُونَ ممَّا يقعُ تحتَ أنظارِهم في قُصورِهم، ويَحجُبُ الله عنهم ما فوقَ ذلك بحيثُ لا يَسألون إلَّا ما هو مِن عطاءِ أمثالِهم، وهو عظيمٌ، ويَقلعُ اللهُ مِن نفوسِهم ما ليس مِن حُظوظِهم .ويجوزُ أنَّ مَا يَشَاءُونَ كنايةٌ عن سَعةِ ما يُعطَوْنَه .

❁ في قَولِه تعالى :هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ أنَّهم سَلَّموا له في الأُولى ما يَشاءُ؛ فسَلَّم لهم في الأُخرى ما يَشاؤونَ .

❁قال تعالى :وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فهؤلاء الصِّدِّيقونَ المُتَّقونَ قد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ لهم أعمالًا سَيِّئةً يُكَفِّرُها، ولا رَيبَ أنَّها ظُلمٌ للنَّفْسِ، وقال تعالى :وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

فأخبَرَ سُبحانَه عن صِفاتِ المتَّقينَ، وأنَّهم يقَعُ منهم ظُلمُ النَّفْسِ، والفاحِشةُ، لكِنْ لا يُصِرُّونَ على ذلك .فليس مِن شرطِ أولياءِ الله المُتَّقينَ ألَّا يَكونوا مُخْطِئِينَ في بعضِ الأشياءِ خطأً مغفورًا لهم! بل ولا مِن شرطِهم تَرْكُ الصَّغائرِ مُطلقًا! بل ولا مِن شرطِهم تَرْكُ الكبائرِ أو الكفرِ الَّذي تَعْقُبُه التَّوبةُ! فقد وَصَفَهم اللهُ تعالى بأنَّهم هم المُتَّقونَ -والمُتَّقون هم أولياءُ الله-؛ ومع هذا فأَخْبَرَ أنَّه يُكَفِّرُ عنهم أسْوَأَ الَّذي عمِلوا .

❁ في قَولِه تعالى :أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا »أسوأُ« اسمُ تفضيلٍ، وهو على بابِه -وذلك على قولٍ-؛ فإذا كان اللهُ تعالى يُكَفِّرُ عنهم أسْوَأَ ما عَمِلوا، فما دونَه مِن بابِ أَولى، ويكونُ التَّعبيرُ بالأسْوَأِ مِن بابِ البِشارةِ لهم ، وفيه دَلالةٌ على سُقوطِ العِقابِ عنهم على أكمَلِ الوُجوهِ، ومعنَى تكفيرِها أن يَستُرَها عليهم بالمَغفِرةِ ، وقد عُلِمَ أنَّه إذا مُحِيَ الأكبَرُ انمحَى الأصغَرُ؛ لأنَّ الحَسَناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئاتِ؛ فلِلَّه دَرُّ أهلِ البَصائِرِ، والإخلاصِ في الإعلانِ والسَّرائِرِ .

❁قَولُه تعالى :الَّذِي عَمِلُوا، وقولُه :الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فيه أنَّ الخَطَراتِ الَّتي تَخطُرُ على القُلوبِ لا حُكمَ لها؛ وقد جاء الحديثُ مُؤَيِّدًا لذلك، فقال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: إنَّ اللهَ تَجاوَزَ عن أُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم تَعمَلْ أو تتكلَّمْ

❁ قال تعالى :وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فمَن كان في هذه الدَّارِ مُحسِنًا في

وَقتٍ ما، يَعبُدُ اللهَ كأنَّه يَراه؛ فهو في الآخِرةِ كُلَّ حينٍ يَراه !قال القُشَيْرِيُّ: (ثمَّ أحسَنُ الأعمالِ عليها أحسَنُ الثَّوابِ، وأحسَنُ الثَّوابِ الرُّؤيةُ؛ فيَجِبُ أن تكونَ على الدَّوامِ)

[الجاثية: ٢١]

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)﴾

اجْتَرَحُوا :أي: اكتَسَبوا وعَمِلوا، ومنه الجارِحةُ للأعضاءِ الَّتي يُكتَسَبُ بها كالأيدي، وأصلُ (جرح): يدُلُّ على كَسْبٍ

❁ قَولُ الله تعالى :أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ يُستنبَطُ مِن هذه الآيةِ تَبايُنُ حالِ المؤمِنِ العاصي مِن حالِ الطَّائِعِ، وإن كانت في الكُفَّارِ .

❁ قال تعالى :أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ عن مَسروقٍ قال: (قال لي رَجُلٌ مِن أهلِ مَكَّةَ: هذا مَقامُ أخيك تَميمٍ الدَّاريِّ، لقد رأيتُه ذاتَ لَيلةٍ حتَّى أصبَحَ، أو كَرَبَ أن يُصبِحَ يَقرَأُ آيةً مِن كِتابِ الله، يَركَعُ ويَسجُدُ ويَبكي :أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ... الآيةَ

وقال بَشيرٌ: (بِتُّ عِندَ الرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ ذاتَ لَيلةٍ، فقام يُصَلِّي، فمَرَّ بهذه الآيةِ فمَكَث ليلَه حتَّى أصبَحَ لم يَعْدُها، ببكاءٍ شَديدٍ)!

وقال إبراهيمُ بنُ الأشعَثِ: (كثيرًا ما رأيتُ الفُضَيلَ بنَ عِياضٍ يُرَدِّدُ مِن أوَّلِ اللَّيلِ إلى آخِرِه هذه الآيةَ ونَظيرَها، ثمَّ يقولُ: لَيْتَ شِعْري مِن أيِّ الفريقَينِ أنتَ؟!)، وكانت هذه الآيةُ تُسَمَّى مَبكاةَ العابِدينَ !

❁ المذنبُ إنْ عُفِي عنه بغيرِ سببٍ مِن الأسبابِ المكفِّرةِ ونحوِها، فإنَّه لابدَّ أن تلحقَه عقوباتٌ كثيرةٌ، منها ما فاتَه مِن ثوابِ المحسنين؛ فإنَّ اللهَ تعالى وإنْ عَفَا عنِ المُذنِبِ فلا يَجعلُه كالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، كما قال تعالى :أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .

❁اللهُ تعالى قائِمٌ بالقِسطِ، ولا يَظلِمُ النَّاسَ شيئًا؛ فلا يَضَعُ شَيئًا في غيرِ مَوضِعِه، ولا يُسَوِّي بيْنَ مُختَلِفَينِ، ولا يُفَرِّقُ بيْنَ مُتماثِلَينِ، كما قال تعالى :أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .

[الأحقاف: ١٦]

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾

❁ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا. أي: أولئك يتقبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ الَّذي عَمِلوه في الدُّنيا؛ فيُثيبُهم عليه .

❁ وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ. أي: ويَصفَحُ الله عن سَيِّئاتِ أعمالِهم؛ فلا يُعاقِبُهم عليها

❁ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ. أي: وهم في عِدادِ أهلِ الجنَّةِ، الَّذين يُفعَلُ بهم مِثلُ ذلك

❁ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ. أي: وَعَدَ اللهُ أهلَ الإيمانِ أن يَتقبَّلَ مِن مُحسِنِهم ويَتجاوَزَ عن مُسيئِهم وَعْدَ الصِّدْقِ والحقِّ الَّذي لا يُخلَفُ، فهو موفٍ لهم به ولا شكَّ

❁ في قَولِه تعالى :قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ردٌّ على القَدَريَّةِ والمُعتَزِلةِ فيما أخبَرَ عنه مِن إيزاعِ الشُّكرِ والتَّوفيقِ للعَمَلِ الصَّالحِ، ولو كان مُستطيعًا بنَفْسِه لَكان دعاؤُه مُحالًا، ثم أثْنى عليه ربُّه، وأضاف العملَ -الَّذي هو أعانَه عليه- إليه،

❁ فقال :أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فالعَمَلُ حَسَنُه وسَيِّئُه مُضافٌ إلى عامِلِه وإنْ كان مُعانًا على الحَسَنِ، مَقْضِيًّا عليه بالسَّيِّءِ، ولو كانتِ الاستطاعةُ مُستغنيةً بنَفْسِها ما عَمِلَ أحَدٌ عَمَلًا سَيِّئًا أبدًا !

❁قَولُ الله تعالى :أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا التَّقَبُّلُ: ترتُّبُ آثارِ العَمَلِ، مِن ثوابٍ على العَمَلِ، واستِجابةٍ للدُّعاءِ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ هذا الدُّعاءَ مَرجوُّ الإجابةِ؛ لأنَّ اللهَ تولَّى تَلقينَه

❁إنْ قيلَ: لِمَ قال تعالى :أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا، واللهُ يَتقَبَّلُ الأحسَنَ وما دونَه؟

فالجوابُ مِن وُجوهٍ؛ منها:

الأَوَّلُ :المرادُ بالأحسَنِ: الحَسَنُ، كقولِهم: النَّاقِصُ والأشَجُّ أعْدَلا بني مَرْوانَ، أي: عادِلَا بني مَرْوانَ.

الثَّاني :أنَّ الحَسَنَ مِنَ الأعمالِ هو المباحُ الَّذي لا يَتعَلَّقُ به ثوابٌ ولا عِقابٌ، والأحسَنَ ما يُغايِرُ ذلك، وهو كُلُّ ما كان مَندوبًا أو واجِبًا .

الفهرس



رسائل من القرآن العظيم

